أقريبٌ أنت؟

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: أقريبٌ أنت؟
التأليف: سلمى حسب الله
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 256 صفحات
عدد الملازم: 16 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/22636
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 725 - 8

محفوظة جميع حقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

أقريبٌ أنت؟

تأليف
سلمى حسب الله

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

هناك من يقيِّم ما قد يناقض فكره،

وهناك من يلفظ كل ما يخالف ضميره،

وإلى هؤلاء وأولئك أهدي روايتي

الفصلُ الأوّل

حلّالُ العُقد

هل هناك ما هو أشدّ إيلامًا ممّا أنا فيه الآن؟ الغُربة تتوغّل فيّ دون رادع أو مقاومة، ترهقني، بل تكاد تفتكُ بي، وقد لازمتني منذ أنْ وطئت قدماي ذلك المكان، ولكنّها الليلة ازْدادت حدّة وشراسة، ما عدتُ أطيقها.. فأنا غريبٌ عمّن حوْلي، بل غريبٌ عن نفسي، وما هي نفسي؟ لا أعرفها..

هذا ما كان يجولُ بخاطره وهو يراقبُ ظلالهم من وراء النّافذة الشّمالية العريضة من شاليهٍ فاخر بالسّاحل الشمالي في زمْهرير آخرِ يوم من العام الميلادي، كانوا يتمايلون كفروعِ أشْجار خاوية، تهزّها رياحٌ دونَ هدفٍ أو غاية، تخلّلت تلاطم أمواج البحْر رَنين ضحكاتهم ممزوجة بموسيقاهم الصّاخبة تعلنُ عن هزيمتِه أمام تصميمهم وعنادهم، على الرّغم من مثابرتِه وإلحاحه، وقطرات الخمرِ لا تزال تقطرُ من وجهه الذي ارْتسمت عليه ملامحُ حدادٍ على أفكاره المهزَومة.. وهل تضاءل الإيمانُ ليصبح مجرّد فكرة؟! ارتجف قلبُه لوهلةٍ وهو يتساءل: هل حقًّا فازت أفكارُهم وطغت؟ وما هو معيار الفوز إنْ تحقّق؟ لقد قضى عمرَه يظنّ أنّ أقوى انتصارات يمكن أنْ يحقّقها المرءُ أن يهزم نفسَه من أجل حقٍّ يعرفه، فكيف تخلّى عنْه الحقّ؟ ضغطَ بغلظةٍ على صدره خشيةً مِن أن يتسلّل مِن قلبه ما يُحْييه، شعر باختناق ملء صدره، وكأنّه رجلُ إطفاء، همَّ ليخمدَ النيران، ولمّا اقترب منها غشيته!! بالأمس كان يمشي بخطًى واثقةٍ مهْما تعرّجت الأرض من تحت قدميْه، ولكن الآن لا يجد أرضًا يمشي عليها.. دقّت السّاعة لتعلنَ عن انقضاء مُنتصف اللّيل وانقضاء

العام معًا، وعلتْ معها أصواتُ التّصفيق والتّهليل، وتعجّب من فرحتهم، فما فائدةُ أنْ ينقضي عامٌ ويهلّ آخر إذا آل كلّ شيء إلى التّراب؟

فعَلَى الرّغم من اتّساع قبّة السّماء وعرض البحر، كان حالُه كسجينٍ يضيق عليه سجنُه في عزلٍ انفرادي، وقد وُقّعت عليه أقصى العقوبة، علا صوتُ بكائه وتساءل: مَن أكون أنا؟ أكاد لا أعرفُني، وسأفقد ملامحي إذا هربَ منّي إيماني.. لقد كنت دومًا مدركًا قدرَ الأدوات التي أمدّني الله بها، وكان يقيني بالله مصدرَ تلك الطّاقة التي كانت تشعّ من قلمي، فتمتد؛ لتغيث المئاتِ من قرّائي.. هل كنت واهمًا؟

على مدارِ حياته لم تمرّ عليه لحظةُ ارتباك كهذه، ففي يوم ليس ببعيد كان الحقّ واضحًا في نفسه، فعلِمَ غايته، وسهرَ بجدّ بين ملفّاتٍ قرّائه يدرسها، وقد حمل كلُّ ملفٍّ قضية، أو مشكلة في غايةِ التعقيد لفردٍ، بل لأسرة بأكملها تعاني من ويلات شياطينها، ما بين خيانة، وطلاق، وسرقة لميراث، وتزوير وصية، وتفرقة بين الأبناء، غيرها.. وقد تكاثرت الشياطين ورقصت على طبول حربٍ ضارية غزتِ البلاد منذ أربعةِ أعوام تقريبًا. العدو فيها قيِّد مجهولًا، وملأ صدى أبواقِها العالمَ منذ أكثر من عقدين، وهي لا تنتهي!

ولأنه يحترمَ قلمه؛ فقد حرصَ بشدّة على عرض ما هو مفيدٌ من مشكلات، ودأبَ على حلّها في مقالته الأسبوعية بجريدةِ البيان الحر، والتي كانت تحملُ عنوان (كلّ عقدة ولها حلّ). وسعى إلى أنْ يترك بكلماته أثرًا إيجابيًّا على قرّائه؛ ولذلك كانت معاييرُ اختياره للرسائل المحرَّرة بالغةَ الدقّة، فيستبعدُ منها ما يراه قليل الجدوَى، أو ما يعتقده مفبْركًا؛ لتناقض أحداثه.. فارتقتْ بوّابته

وربتْ على نظيراتها من مقالاتٍ وبواباتٍ انْحصرت أهدافها في إحداث ضجّة وإثارة. وكانت تُحرّر في صحف ومجلات منافسة.

ولكلّ نجاح ثمنٌ باهظ، يسدَّد مِن زمن وعرق صاحبه، فما ضنَّ الأستاذ حسين راشد بأيّ جهد، بل راح يدفع من رصيد وجدانه ونفسه؛ فشارك صاحبَ المحنة معاناته وألَمه، أيًّا كان رجلًا أو امرأة، شيخًا أو شابًّا، غنيًّا أو فقيرًا. وقد فزع مراتٍ ومرَّات إلى ذوي الخبرة والفكر؛ أملًا في إيجادِ حلٍّ مناسبٍ، فإذا استدعتِ المشكلة إلمامًا بفقهٍ أو بفتوى؛ استشار صديقَه الشيخ محمود، خطيب مسجد التقوى المجاور، والذي كان يثقُ في حكمته وصدقه. وأحيانًا ما كان الأمرُ يستدعي زيارةَ طبيبٍ نفسي وشرعي، ومحامٍ وقاضٍ ومتخصّص تنمية بشرية، وغيرهم.. ولم يكن يملّ إذا استعصى عليه حلٌّ لبعض الوقت، وقد علمَ أنّ رحلة بحثه إذا طالت كانت استثمارًا لإدراكه وحنْكَته، فأفادته في حلّ قضايا مستقبليّة أخرى.

وفي يوم من أيام الجمعة قصد صديقَه الشيخ محمود يستشيره، فوقفَ بين الحشدِ بعدَ الانتهاء من الصلاة، ينتظره.. وقد بدا له أنّ كلّ مَن في الحشد لديه ما يحيِّره ، وعندما وقع نظرُ الشيخ عليه، قال له مُرحِّبًا:

– السلام عليكم يا حسين، كيف حالك اليوم؟

أومأ برأسه قائلًا:

– أحمدُ الله.

– يطلّ من عينيك تساؤلٌ عظيمٌ.

ردَّ مبتسمًا:

– جئتُ مُحمّلًا، كعادتي، ببعض المتاعب.

– انتظرني بعضَ الوقت حتى أنتهي من الردِّ على أسئلة هؤلاء الإخوة، ثمّ نعود معًا إلى البيت.

تابعتْهما الأنظار وهُما يخرجان من المسجد، فلطالما أثارت صداقتهما تساؤلًا ودهشة؛ ولم يكن واضحًا ما يجمعُ بينهما، فحسين الابن الأكبر للطبيب الرائد المتوفَّى عزت راشد، من عائلة مرموقةٍ وميسورةِ الحال، تعلَّم في أرقى المدارس، وقضى بعضًا من سني عمره في الخارج، أجاد الإنجليزية والفرنسية إلى جانب العربية، وكان وجيهًا يلبسُ أرقى الملابس، ويضع أجملَ العطور، اجتماعيًّا، يعرف جيدًا كيف يعامل المرأة، على خلاف الشيخ محمود الذي لم يكن يميلُ إلى الاختلاط إلّا إذا حضرت إلى المسجد مَن لديها مشكلة أو سؤال في الدين، تنشُدُ لديه حلا أو تبحثُ عن إجابة.. وقد سافر– رغم مكثِه في القاهرة منذ ولادته – إلى بلادٍ وأزمنة بعيدة من خلال اطّلاعه على كتبِ علماء أجلّاء على اختلاف مذاهبهم وأفكارهم، وكانت هيبته ووقاره يتألقان من خلال زيِّه الأزهري، وحديثه الجادِّ والمتأنِّي. وعلى الرغم من تقارب عمر الصديقين، فقد بدا أكبرَ من حسين بسنين، وتوطّدت علاقتهما مع الأيام، ففاقت العوامل المشتركة بين حسين راشد والشيخ محمود كلَّ مظاهر الاختلاف، وأصبح ما يجمعهما لا يدركه إلّا مَن حظي بقلبٍ سليم.

قطع صمتَهما الشيخُ محمود قائلًا:

– هل أعجبتك خطبةُ اليوم؟

ارتبك حسين قليلًا، ثمّ قال:

– أحسنتَ يا شيخ.

ابتسمَ الشيخ محمود ابتسامةً باهتة، ثمّ هزَّ رأسه قائلًا:

– لم تسمعْ منها كلمة، يبدو أنّها كانت مملَّة.

– أبدًا، أنا الذي تأخَّرتُ، ففاتني جزءٌ كبيرٌ منها، فلم أستطعْ متابعتَها.

رمقَه بنظرةِ عتاب، ثمّ هزَّ رأسَه قائلًا:

– كان الأجدرُ بك يا أخي المبادرةُ بالسعي إليها، فكلّما حضرت إليها مُبكرًا كان ذلك أعظمَ لأجرك.

كان يعلم جيدًا أنّه لا يصحّ إلّا الصحيح، فآثر الصمتَ على الإتيان بعللٍ تذوب وتتلاشَى أمام نداءِ صلاة الجمعة، حتى تغيَّرت نبرة الشيخ، وهو يقول:

– أخبرني، ما هي المشكلة التي اسْتعصَت على صديقي النابغة؟

– أبٌ في محنة، أرسل إليَّ يبحث عن حلٍّ لمشكلة ابنته.. أقصدُ لمصيبتِها.

– وما هي؟

– لقد تعرَّضت ابنتُه للاغتصاب مِن مجهول، وهي حامل الآن، فهل يصحُّ في هذا الظرف إجهاضُ الجنين؟

زَوَى الشيخ بين عينيه، وراح يقول وهو يضربُ كفّيه إحداهما بالأخرى:

– لا حولَ ولا قوة إلّا بالله! ماذا يحدث لنا؟! فنحن كلّ يوم في تَدَنٍّ وسقوط!

أعادَ عليه السؤال قائلًا:

– لم تفْتِني بعدُ يا شيخ محمود، ما حلُّ هذه المصيبة؟

قال الشيخ:

– لا أدري.

هزّ حسين كتفيه قائلًا:

– مَن قال لا أعلم؛ فقدْ أفتى!

– حسين، حاول أن تفْهمني، فهذا الموضوع يصعبُ البتُّ فيه في لحظة، لا بدّ من البحث والدراسة، بل والاتّصال بمركز الفتوى بالأزهر. سأتّصل بهم، وإنْ شاء الله سآتيك بفتوى موثّقة قريبًا.

ربتَ حسين على كتفه مقدِّرًا صِدق صاحبِه وحرصه.

***

قاد سيارته قاصدًا منزله ليلًا، غير مبالٍ بازدحام المرور، والطرق التي أغلقت إمّا لدواعي أمنية وإما لإجراء بعضِ التصليحات؛ لشروده في مشاكل ومحن قرّائه، فجالت بخاطره مراسِلةٌ تركت زوجها لتبنّيه آراء سياسية تختلف عن آرائها، وأخرى هجرها زوجُها بعد إصابتها بالمرض الخبيث؛ لأنه لم يعدْ قادرًا على تحمّل مصاريف علاجها، وآخر عانى فسادًا في عمله؛ فاضطر إلى مخالفة ضميره والسكوت متعلّلًا بأنه لا يملك قوتَ يومه.

ولم يفقْ من استرجاع تلك المشاكل المؤسفة إلا برؤية سيارة زوج أخته واقفة أمام بيته. ابتهج ومدَّ خطاه، فقد اشتاق إلى رؤية ابن أخته كثيرًا، فتح باب المنزل مسرعًا؛ حيث وجد أخته وزوجها يجلسان مع أمه في صالة المعيشة يتجاذبون أطراف الحديث، ويحتسون عصيرًا طازجًا، أمّا وائل الصغير فكان يلهو بدرّاجته الهوائية أمامهم، وصاح مسرورًا حين لمحه:

– خالي.

فتح حسين ذراعيه قائلًا:

– مرحبًا حبيب خالك.

حمله، وراح يقبّله بفرحة، فصاحت أخته بلومٍ:

– وماذا عن أمه وأبيه؟

– أهلًا نهى، مرحبًا يا ناجي، معذرةً؛ فكلما نظرت إلى ابنكما نسيت الدنيا ومَن فيها.

أخذ مجلسه بينهم بعد أن قبَّل أمَّه بحنان، وحمل وائل على ركبتيه وأخذ يلاعبه، وغمزت أمُّه لأخته، فقالت:

– يا حلّال العقد، عندي مشكلة، وأطمع في أن أجدَ لها حلًّا عندك.

أصغى إليها حسين باهتمامٍ قائلًا:

– خيرًا يا نهى؟ أفضي إليَّ بها بسرعة.

– لي أخٌ ميسور الحال، وعلى خُلق، تتمناه أبهى الفتيات وأجْملهن، ولكنه مُصِرٌّ على العزوف عن الزواج، وقد تخطَّى الخامسة والثلاثين.

قاطعها باستياء:

– لا تشغلي بالك بي يا أختاه، فأنا سعيدٌ بحالي، ولقد جرَّبت حظي يومًا كما تعلمين، وكان بالغَ السوء؛ فلن أعيد الكَرَّة.

– ولكن يا حسين، أصابعك ليست متشابهة.. فالنساء لسْنَ سواء.

لم تكملْ قولها حتى قام فجأة من مقعده، قائلا بانفعال، بعد أن أنزل ابنها:

– معذرة، يجب أن أنصرفَ حتى أكمل مقالي، لقد سعدتُ كثيرًا بلقائكم.

همس ناجي:

– قلت لكما، الكلام في هذا الموضوع لن يفيد، وقد يزعجه، وقد حدث ما كنت أخشاه!

تابعته أمُّه بنظراتها حتى دخل حجرته، ثمّ التفتت إلى زوج ابنتها قائلة بحسرة:

– إلى متى يا ناجي يظلّ بدونَ زواج؟! فأنا لن أدوم له طوالَ عمره.

قال ناجي بهدوء:

– اهدئي يا حماتي واطمئنّي، سيتغلب على أزمته عاجلًا أم آجلًا، حسين كما نعرفه قويّ، كيِّس، نافذُ البصيرة، وعلاوةً على ذلك يجيد التعاملَ مع الجنس اللطيف، وأنا على يقين أنه سيدخل علينا يومًا شابكًا في ذراعه شريكة حياته، ولكنْ تجنَّبي أسلوب الإلحاح المملّ هذا، فوالله لن يجدي مع شخصٍ مثله.

***

أغلق باب حجرته، وألقى بنفسه على فراشه، ومرّر أصابعه بين خصلات شعره الغزير باضطراب، وهو يخرج زفيرًا عميقًا لعلّه يخفّف من الضيق والانزعاج اللذيْن تأجَّجا بداخله، وتسارعت الأفكار في رأسه، لماذا تصرُّ أخته على فتح هذا الجرح كلّما التأم؟

داهمتْهُ – رغمًا عنه– ذكرياتُ آخرِ لقاءٍ بينه وبين امرأةٍ تعذّب بها، وكانت في زيارةٍ له مع أبيها في منزله. كانت تنظرُ إليه باسْتجداءٍ أثناء حديثٍ غير مُنمَّق منْ أبيها، وكان بين جملةٍ وأخرى يستعطفُه:

– يا بني، راجع نفسَك؛ فالوضعُ قد تغيَّر.

وأخيرًا، قاطعتْه ابنته وهي تضعُ يدَها على يدِ حسين:

– حسين، هل تسمح لي أنْ أتكلّم معك على انْفراد؟

هزّ رأسَه رافضًا وهو يسحبُ يدَه، فصاحتْ والدموعُ في عينيها:

– ألهذا الحدّ هُنتُ عليك؟!

لا يريدُ أن يتذكّر المزيد.. لا بدَّ أن يشغل نفسه حتّى لا تشغلَه ذكرياتُ تجربةٍ قاسية مريرة خاضها من سنين، وتركت مذاقَ علقمٍ مُرٍّ في حلقه، نهض مجددًا وسحب حاسوبه المحمول من فوق المنضدة المجاورة، وشغَّلَه بعد أن وضعه أمامه، وإذْ برسالة إلكترونية جديدة تصل إليه، أسرع في فتحها؛ عسى أن تكون جديرةً بأن توقف زحفَ ذكرياتٍ، كَرِه استرجاعها إلى رأسه، ثمّ قرأ ما فيها:

أستاذي العزيز،

حرصت على متابعةِ مقالاتك منذ زمنٍ؛ لِما فيها من حكمة بليغة وعبرة، بل دعني أقول لك إنِي أعدُّها منارةً لكلِّ نفس تائهة حائرة، وجوابًا لكل سؤال استعصى عليه ردٌّ، ولم أكن أتخيل يومًا أن أرسل إليك قضيتي كبقية مراسليك!

يا سيدي الفاضل، شكواي هذه في غايةِ الخطورة والأهمية؛ لأنها لا تقتصر على ابنتي فحسب، ولكنها امتدّت لتشمل جيلًا بأكمله، ولحساسية الموضوع المفرطة؛ أشعر أنني عاجزةٌ عن الكتابة، فلن أسترسل أو أضيف عباراتٍ مبهمةً؛ لصعوبة وصف المشكلة من خلال رسالة، ولذلك كل ما أرجوه أن ألتقيكَ في أي مكان، وفي أي موعد تحدّده حتى أتمكن من الشرح والاستفاضة؛ فلقائي بك وجهًا لوجه سييسر عليَّ الأمر، وكلي أملٌ أن تقبل طلبي.

مع جزيل الشكر.

توقيع: الدكتورة حنان الشوربجي.

وضع حاسوبه جانبًا، وأخذ يفكر مليًّا فيما قرأه، وجرفته الظنون إلى كلّ درب.. ما وراء هذه الطبيبة؟ ومَن تكون؟ وما طبيعة محْنتها؟ وقد استشعرَ رعشة يدها وهي تكتب، على الرغم من أن الرسالة التي وصلت إليه منها إلكترونية، ثمّ ثمّة شيء آخر شدّ انتباهه؛ فعادة ما يظنّ صاحب المشكلة أنّ محنته ليست كأي محنة، وما ابتُلِيَ بمثلها مخلوقٌ، ولكنَّ هذه المرأة تدَّعي أن محنة ابنتها محنةُ جيل بأكمله، وهذا الادّعاء وحده كفيلٌ بأن يدفعه للقائها.

اعتدلَ في جلسته، وكتب:

السلام عليكم دكتورة حنان، شكرًا لثقتكم الغالية، نلتقي غدًا الساعة الخامسة مساء، في "كوستا" مصدّق- الدقي.

***

دخل المطعم في تمام الخامسة، قُرب وقت غروب الشمس من اليوم التالي، فعلى الرغم من تكدّس المرور، وخضوع جدولِه للتغْيير بين لحظةٍ وأخرى؛ كان شديد الحرص على الالتزام بمواعيده، فهو يقدّس وقته ووقتَ غيره على حدٍّ سواء، جالَ ببصره في أرجاء الغرفة، يتفحّص وجوه الجالسين، فصاحبة رسالة أمسِ من المفترض أن تكون جالسةً بينهم، حتى وقع بصره على امرأةٍ تجلس بمفردها في ركنٍ بعيد، شاردةَ الذهن، توجّه نظرها بين حين وآخر إلى باب المطعم، ثمّ تعود لتثبته على جدرانه، لم تبدِ ملامحها ردّ فعل حين وقعتْ عيناها عليه، بل عادت إلى شرودها، فتردَّد قليلًا ثمّ اتجه ناحيتها ليتأكّد من هويّتها قائلًا بابتسامة خفيفة:

- مساء الخير، هل أنتِ الدكتورة حنان الشوربجي؟

حملقتْ في وجهه، ثمّ قالت:

- لا أصدق عيني! هل أنت حسين راشد؟!

قال وهو يجذب الكرسي الأماميّ لها، ويهمّ بالجلوس:

- نعم.

قالت ونظراتُ الدهشة لا تزال تطلّ من عينيها:

– لقد ظننتكَ في الخمسين، ولكنْ أراك أمامي لم تتجاوز الثلاثين!

قال بابتسامة:

– بل جاوزتها منذ خمسةِ أعوام، وعلى كلٍّ؛ عمرُ الإنسان لا يُعدّ مؤشرًا لخبراته، هناك مَن يُعمَّر وما تجاوزَ إدراكه فهم مُراهق.

أخذت نفسًا عميقًا، ثمّ قالت:

– صدقت، فزوجي.. أقصد زوجي سابقًا، في نظري، لا يزال يحبو وهو في الخمسين.

تأمّلها بنظرةٍ خاطفة وهي جالسة أمامه، فهي امرأة جاوزت الأربعينَ ببضعة أعوام، كشف مظهرُها عن بساطتها وأناقتها في آن؛ وقد تألقت في رداءٍ قرمزي، ورفعت شعرها كاملًا على مستوى أعلى الرأس، تاركة بعضَ الخصلات الأمامية تنسدلُ على وجهها الجميل الهادئ المكسو بعَباءة الحزن.

جاء النادل لتسجيل طلباتهما وانصرف، وبعد لحظات قال حسين ليذيب جليدَ الصمت بينهما:

– ما هي مشكلة ابنتك التي أشرتِ إليها في رسالتك؟

– المسكينةُ تئنّ من حمل أوزار جيلٍ بأكمله وهي في عزّ شبابها، تتخبّط في هذه الدنيا منذُ نعومة أظافرها.

– كيف؟

– لم أكنْ وزوجي على وفاق، فانفصلنا ومريمُ في التاسعة، وكان أمرًا طبيعيًّا أن تعيش معي، ولكنّ ظروف عملي كطبيبة وانشغالي عنها جعلاها تُفضّل الاستقرار مع والدها، على الرغم من زواجه بأخرى، اعتادت أن تأتي لزيارتي بين حينٍ وآخر، وكنت مع الأسف أشعر باتساع الفجوةِ بيننا مع مرور الوقت. رأيت تقلّب مزاجها، وتأرْجحها بين اتجاهات وأفكار شتى، ارتدت الحجاب لفترة، وكانت آنذاك لا تتحدّث معي إلا لإقناعي بارتدائه، وعندما يئست مني صامتْ عن الكلام، شاركتْ في ثورة يناير بمنتهى التحدِّي والحماس، على الرغم من موقفي وموقفِ أبيها المعارض لهذه الثورة، ثمّ شاركتْ في ثورةِ الثلاثين من يونيو، ومنذ عام خلعتِ الحجاب فجأة، وأخذت اتجاهًا معاكسًا تمامًا، غيَّرت سلوكها كما غيَّرت زيَّها؛ فأصبحتْ متمردةً عنيدة، وتاهَ عنها وقارُها، أبذل قصارَى جهدي كي أتقرَّب منها، ولا حياةَ لمن تنادي.

توقّفت عن الكلام حين جاءَ النادل؛ ليضع فنجانيْن من القهوةِ الساخنة على المائدة، فقال حسين بهدوءٍ بعد انصرافه:

– دكتورة حنان، ما ذكرتِه حتى الآن أمرٌ متوقّع، فابنتك تعرَّضت لحياةٍ مضطربة، وعانتْ من انقساماتٍ وعدم استقرار داخلَ البيت وخارجه، شدّ وجذب داخلَ الأسرة وداخل المجتمع، وطبيعي أن يكون لهذا كله أثرٌ عليها، كسائق دراجة يسير في طريق غير ممهَّدٍ يفقده توازنَه للحظات؛ فيأخذ تارةً أقصى اليمين، وتارةً أقصى الشمال؛ حتى يستعيد توازنَه.

قالت بصوتٍ مَخنوق:

– وقد يسقط قبل أن يستعيد توازنه.. كانت عندي البارحة، وصلت إليها رسالةٌ على محمولها، فتركتِ المنزل على عجَل بعد قراءتها، ونسيَتْ إغلاق الحاسوب، وعندما دخلتُ حجرةَ المعيشة وجدته مفتوحًا على حسابها التابع للفيسبوك، وبدا لي أنها انضمّت إلى مجموعة (جروب) من الشباب، أطلقوا على أنفسهم اسم "كفَرْنا بالعيشة"، انتابتني حيرة، بل صدمةٌ حين كشفت الغطاءَ عن أفكارهم من خلال تصفّحي عباراتهم وتعليقاتهم في الجروب، فهؤلاء الشباب جمعَهُم اليأس من كلِّ شيء، والكفرُ بكلِّ شيء، إلى حدّ أنه تمّ الاتفاق بينهم على الاجتماع في أحد الشاليهات التي تمّ استئجارها في الساحلِ الشمالي– على الرغم من برودة الجو– بهدف التعارف، والبحث عن حلٍّ للتغلّب على معاناتهم، وقد وضعوا الانتحارَ حلًّا من الحلول المطروحة!

وضعت يديْها المرتجفتين على فمِها من هوْل ما نطقت به، ثمّ أردفت:

– لم أجدْ بُدًّا من أنْ أرسل إليك لتنقذ ابنتي من الهلاك.. فموعد لقائها بهم الشهرُ القادم.

قاطعها قائلًا:

– لِمَ لا تلجئين لأبيها؛ فمِن حقّه أن يعرف، ويشاركَ في الحل؟

قالتَ بانفعال، وقد تحجَّرت دموعُها في مقلتيها:

– ليس له حقٌّ عندي، ثمّ إنه شديدُ الحماقة، لا يُعتمد عليه، فمشاركتُه في الأمر ستزيدُ الطين بلّة، هذا ما ألفْتُه منه كلما لجأت إليه في مشورةٍ أو حلٍّ لمشكلة منذ أن عرفتُه.

نظر إليها وهو يقلّب ما قالته في ذهنه، هل صحّ هجومُها على الرجل، أو أنه مجرّد كرهٍ يفوحُ من فمِ امرأةٍ حانقة؟ وكأنّها قرأت أفكاره؛ فأردفت قائلة:

– أمٌّ يائسة مثلي تتعلق بقشّة، فلو كان في طليقي أملٌ، ولو ضعيف، ما تردَّدتُ لحظةً في اللجوء إليه، فهذا أقرب وأيسر من اللّجوء إلى رجلٍ غريب.

لم يجدْ حسين إجابة تبعث الطمأنينة في نفس الطبيبة، فقال:

– أمْهليني بعضَ الوقت؛ كي أفكر في الأمر، ثمّ أعود إليكِ.

قالت برجاء:

– أرجو ألّا تنشر المشكلةَ من قريبٍ أو من بعيد.

قال وهو يومِئ برأسَه:

– أعدُك بعدم النشر إلّا بعد حلّها، وإذا رأيتُ في نشرها فائدةً تعمّ على قرّائي.

وجدتْ في ردّه ما يُريحها ولو مؤقتًا، ثمّ قالت بمزيدٍ من التوسّل:

– لي رجاء آخر، ألّا تعدَّ تقديم بلاغ للشرطة حلًّا واردًا؛ قد يسبّب هذا البلاغ أذًى لابنتي، فأقلّ الأضرار سيكّون الفضيحة، وأنت تعلم أنّها فتاة، سُمْعَتها هي رصيدها.

قال وقد بدأ صبرُه ينفد:

– اطمئنّي؛ لستُ بهذا الغباء.

ثمّ أردف وهو يهمّ بالنهوض بعد أن دفع حسابَهما:

– هل معكِ سيارة؟

– أشكرك؛ فالسائقُ ينتظرني خارجَ المطعم.

قال وهو يبتعد:

– لا تنسي أن ترسلي إليَّ رابط الجروب.

– بكلّ تأكيد.

***

شعرَ مع كلّ تدوينةٍ قرأها لأعضاء جروب " كفَرْنا بالعيشة" وغيرها من مجاميعَ مُماثلة أنّ المصيبة لاحقتْهُم لأنّهم عُزَّل لا يملكونَ سلاحَ علم ولا تاريخ ولا منطق! رضوا أنْ يكونوا ببّغاوات تردّد أقاويلَ متضاربة دونً تدبُّر، أخذَ صدرُه ينقبض حزنًا وأسفًا كلّما جال بخاطره بعضُ عباراتهم، مثل: لقد سئمت حياةً بلا حكمة ولا معنى! وآخر خطَّ، وقد فاحتْ رائحةُ الكفر من قلمِه: انتصرَ الشرّ وحُسِم أمرُ الإله! وآخرُ استنتج أنّ سبب ركودِ الأمة وتخلفها التشبُّثُ بدينها، وغيرها من عبارات، ثم دوَّن حزنَه واستنكارَه في عباراتٍ موجزة عن طريق إحدى تطبيقات محمولِه، حيث كتب: كيف يخطو هؤلاء خطواتهم وقد اهتزّت الأرض مِن تحت أرجلهم؟! إنهم يسقطون ويتوهّمون أنهم يُحلِّقون، ويضيق عليهم حصارُ الجهل ويتصوَّرون أنّهم بالعلم يتحرَّرون!

***

كانت وجهتُه عيادةَ الدكتور أسامة سويلم المتخصِّص في معالجة الأمراض النفسية؛ بحثًا عن حلٍّ للمصيبة التي شغلته مؤخّرًا، والخاصة بابنة الدكتورة حنان الشوربجي، والتي- بمحنتها- أزالتِ الغشاوةَ عن انزلاقِ بعض الشباب إلى فكرٍ شاذّ عن فكر مجتمعهم، وفي غفلة منه. وصل في موعده، وبعد أن أجلسَه الطبيب، قال حسين:

- حسين راشد، جئتك..

قاطعه الدكتور بابتسامةٍ قائلًا:

- أتذكّرك جيدًا أستاذ حسين، لقد زرْتني من قبل لمناقشة بعض مشاكل قرّائك.

تنفّس الصّعداء؛ إذْ وفّر عليه، ببضع كلمات، مقدمةً قد تطول، فقال:

- تمام. وقد جئتك اليومَ لنفس السّبب.

- كلّي آذانٌ صاغية.

- إنها مشكلة إحدى مراسلاتي، عانت ابنتُها منذُ طفولتها من تفكّك أسري بعد أن طلق أبوها أمها وتزوج أخرى، فتأرْجحت الابنة بين أفكار ومعتقدات شتّى حتى أَلْحَدت، أدهشني إنكارها لله؛ لأنّني كنت متصوّرًا أنّ مَن يتبنَّى هذا الفكر يكون ممَّن يعيشون في مجتمعات هُمِّشت فيها الأديان، ولكن..

توقّف حسين عن الحديث؛ لأنه- بقليل من التأمّل- وجد أنّ مجتمعه الآن أشدّ خطورةً على الشباب، فقد تناقضت أفعالهم مع أقوالهم، وفي حين أنهم يستشهدون بقول الله ورسوله، فقد توغل فيهم واستشرى الفسادُ والكذب

والخيانة والكِبْر. نظرَ إلى الطبيب؛ وجده منصتًا باهتمام، ولمْ يتحرّك له ساكنٌ، فسأله سؤالًا صريحًا:

– هل هناك مرضٌ نفسي؟! أو دعني أقول حالةٌ نفسية تدفع الناس إلى الإلْحاد؟

قال الطبيب في هدوء، وهو يعتدل في جلسته:

– أستاذ حسين، الإلحاد مثلُه مثل الإيمان، فهو عقيدة يعتنقها أصحابُها، ولكن البعض يتصورون لجهلهم بهذه العقيدة أنه مرض نفسي! لقد ذكّرني تعليقك هذا بمَن جاء يطلب علاجًا لابنه لظنّه أنه قيصر، ولم يدرك أنّ ابنه ليس مريضًا، ولكنه اعتنق البوذية وتناسخَ الأرواح.

قال حسين بحَيْرة:

– ولكن، كيف يواجه مَن أنكر ربّه المصاعبَ والمِحن؟

أجابه وهو يتّكئ على مسندِ كرسيّه:

– وجّه هذا السؤال إليهم، فأنا والحمدُ لله مؤمن، ولكنّ سؤالك هذا دفعَ كثيرًا من الخبراء وأساتذة علم النفس في الغرب للاعتقاد أنّ الإيمان بالله مرضٌ يصيب العاجز عن مواجهةِ المشاكل.

أفزعه ردّ الطبيب؛ فقال بانفعال:

– هؤلاء الخبراء جُهلاء، والدليلُ على ذلك مَن يسوقه إلحادُه إلى الانتحار؛ لعدم قدرته على التعامل مع أزماته.

قاطعه د. أسامة:

– إنَّ ما يدفع المريضَ إلى الانتحار هو الاكتئاب، وليس الإلحاد. قد يمنع الإيمانُ مريض الاكتئاب من الإقدام على هذه الفكرة خوفًا من الله، ولكنْ يظلّ الاكتئاب هو الدافعَ الأساسي للانتحار، والإلحاد بريء منها.

نظر طبيبُه إلى ساعته، فشعر حسين أنْ قد حان وقت انصرافه، فنهض مستأذنًا، فقال له الطبيب:

– لي نصيحة أخيرةٌ أستاذ حسين، الدنيا لا تقتصرُ على اللّونين الأبيض والأسود، فهناك ألوانٌ كثيرة متداخلة ومتدرّجة، فلا تغفل هذه الحقيقة وأنت تتعاملُ مع المشكلة، إن كنت تعدّها مشكلة.

وصل إلى بيته، وهو يقلّب في رأسه ما قاله د. أسامة سويلم ، ماذا يقصد في تلميحه الأخير؟! هل أرادَ أن ينصحه بأن يكون أكثرَ مرونة وتقبّلًا لفكر هؤلاء؟ فما تبيَّن يقينًا مقصدَه، ثمّ هناك شيء آخر لفت انتباهَه في حديثه، لقد برأ الإلحاد مِن دفع هؤلاء إلى الانتحار، وأقرّ أن الاكتئاب والخوف يسوقان المريضَ إليه، أوَليسَ إنكار الله يبثّ الاكتئاب والخوفَ في النفس؟! ألا بذكْر الله تطمئنّ القلوب.

أوقفَ سيارته أمام منزله، ولكنَّه لم يستطع الصّعود، فقادته قدماه إلى منزل صديقِه الشيخ محمود. تردَّد في طرق بابَ المنزل لتأخّر الوقت، وهو يعلم حرص صديقه على النوم مبكرًا؛ ليستيقظ قبل صلاة الفجر. نظر إلى ساعته، فقرَّر أن يغادر المكان، ولكن لم تطعْه قدماه، فدقّ دقّة خفيفة، فتح على إثرها صديقُه الباب، وصاح مهلّلًا:

– ما أجملها مفاجأة! تفضّل حسين.

قال في شيءٍ من الارْتباك:

– أعتذر لطرقي بابك في هذا الوقت المتأخر، ولكن لم أستطعْ منعَ نفسي من زيارتك.

أدخله على الفور، فقال بعد أن قدَّم إليه واجبَ الضيافة:

– جئتكَ كعادتي لمناقشة مشكلةِ إحدى قارئاتي، ويبدو أنها استشرت في كثير من الشباب.

– أتقصدُ الإلحاد؟

تعجّب حسين لحدسِ صديقه وسرعةِ بديهته، فقال:

– كيف عرفت؟!

– لا تنسَ يا حسين أنّ جزءًا من وظيفتي هو ملاحظةُ الناس والاستماع إليهم.

سأله باهتمام:

– أوَ جاءك مَن كفرَ بالله؟

قال الشيخُ بابتسامةٍ هادئة:

– ليسَ بالضرورة أن يجيئني كافرٌ بعينه، ولكنْ وصلني ما سمّيْته بمقدمات الكفر مِن كثيرٍ مِن شباب اليوم.

حكّ ذقنَه وهو يتدبّر كلماتِ صديقه، ثمّ سأله:

– وما مقدّمات الكفر؟

– أولُها القنوط يا حسين.. اليأسُ من رحمة الله، ألم يقل النبي يعقوبُ لبنيه: وَلَا تَيْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ؟

اعتدلَ حسين في جلستِه قائلًا:

– وكيفَ لمست في الناس القنوطَ ؟

– مِن شكْواهم التي اتّسمت بالاعتراض والسّخط، فقد كثر في هذه الأيام الذين يتساءلون، كيف ينتصر الظلم؟ وكيف يغيب العدل؟ وما الذي جنيتُه كي أتعذب؟ إني أتحمَّل ما لا أطيق، لا أستحقّ ما ألاقيه، وأشياء من هذا القبيل، وكأنّ هذه دارُ بقاء، وليست دار ابتلاء وفناء، ونسوا قولَ الله تعالى: وليمحِّصَ الله الذين آمَنوا..

قال حسين بفُضول:

– وما ثانية مقدّمات الكفر؟

– الجهل.

قال حسين مُعترضًا:

– ولكنّي أرى أنّ الفلاحين البُسطاء في المزارع والحقول بالقرى، والبدو في الصَّحراء، ينْعَمون بقسطٍ كبيرٍ من الإيمان الفِطري، على عكس المثقّفين في المدن الكبرى!

قال الشيخُ وهو يصبّ مَزيدًا من الشاي في فنجانِ صديقه:

– الجاهلُ ليس بالضرورة مَن لا يعلم، وإنّما الجاهل هو مَن يظنّ أنه يعلم وهو لا يعلم، وهؤلاء تجدُهم في المُدن التي ضلّ مُثقّفوها ضلالًا بعيدًا،

فساقوا الناس بأقلامِهم ومحاضراتِهم وإعلامِهم إلى الهاوية، يلبسون الحقَّ بالباطل، ويزوّرون التاريخ، ويضعونَ الكلام في غير مَوضعه، ومنهم مَن يكتمونَ الحقّ وهُم يعلمون.

سأله حسين باهْتمام:

- هل لمقدّمات الكفر ثالث؟

قال الشيخ:

- الخوف، ويأتي في أشكالٍ عدّة، الخوف من قلّة الرزق مثلًا يسوق صاحبَه إلى السرقة والنهب والفساد، فتزيد الفجوةُ بينه وبين خالقه، وأسوأ من ذلك الخوفُ من الهلاك في جوٍّ غاب فيه الأمنُ والأمان، والذي يدفع صاحبَه إلى التجرّد مِن إنسانيّته، فيهلّل إن لم يعاون في قتل وحرق وتعذيب وتشريد غيره؛ ظنًّا منه أنّ ذلك يؤَمِّنه، وقد يسوق الخوفُ أصحابَه إلى النفاق، والمنافقون- والعياذ بالله- في الدّرك الأسفل من النار، ولن يجدوا لأنفسهم نصيرًا.

وضعَ حسين يدَه على كتف صديقِه يسأله:

- والحلُّ؟

- قديمًا عندما كان الطغيانُ والفسادُ يستشريان؛ كان الله يرسل نبيًّا أو رسولًا لإحياء دينه، وتصحيح المسارِ، ولكنّ حبيبنا عليه أفضلُ الصّلوات، هو خاتم الأنبياء، ولن يبعث اللهُ رسولًا مِن بعده.

قال حسين في حَيْرة:

– إذًن، على حدّ قولك، لا سبيل إلى الخروج مِن هذا المنزلَق!

قاطعه قائلًا:

– إلّا بإحياء الدّين القيّم الذي نزل على موسى وعيسى ومحمد، وكلّ الأنبياء؛ في قلوبنا.

***

خرج من عند صديقِه يتدبّر النقاش الذي دارَ بينهما وهو يسير بخطوات واسعة نحو بيتِه، وكأنّه يشحن طاقته في السير ليلًا في جوّ بردٍ قارس، استرجعَ آخر كلمات نطقَ بها الشيخ حينما قال: إنّما تكمنُ مصيبتنا اليوم في اختزال الدين في أداء عبادات من صلاة وصوم ومناسك عمرةٍ وحجٍ إلى آخره، وهو في الأصل رسالةٌ من الله لعباده تشملُ منهجًا كاملًا للحياة وطريقًا للعودة إليه. ثمّ انتبه حسين إلى حاله، فلمواجهة هذا الكابوس؛ عليه أن يقوم بدوْره في إحياء الدين، وهو يملك سلاحَ قلمه، قد تكون كتابة سلسلة مقالاتٍ عن الإيمان والإلحاد فكرةً صائبة لبعض قرّائه، ولكن لن تسعف أفراد جروب (كفرنا بالعيشة) وأمثالهم، وقد فقدوا كلّ حماس لقراءة مثْل هذه الموضوعات، ثمّ جالَت بخاطره فكرةٌ أخرى، لِمَ لا يدخل على مدوّناتهم ويرد على تعليقاتهم؟ فهو على أتمّ استعداد أن يقضِي ساعات وساعات للردّ على كل ادّعاء صدر منهم بالحجَّة الدامغة والدّليل المبين.. ولكنّ الوقت لن يسعفه، وقد بات حلُّ الانتحار وشيكًا، فضلًا عن أنهم

سوف يغلبونه بكثرتهم، ويتكالبون ليبطئوا بأعدادهم خروجَ صوتِ الحق مِن فيه، وقد بدأ سباقه مع الزمن منذ أيام.. رنّ محمولُه، فمدّ يدَه إلى جيبه، وإذا بزوج أخته يقطع حبلَ أفكاره بدعوةٍ إلى العشاء مساءَ غدٍ.

***

فرح بصحبة أخته وزوجِها، وأخذ بها هُدنةً من معركة شرسة داهمته بغتةً دون أن يعدّ لها عُدتها، جلس بينهما في غرفة معيشتهما، وأرسل نظرَه إلى الأفق الواسع خارج النافذة الزجاجية؛ حيث القمرُ يتلألأ على ضفافِ النيل في جزيرة المنْيل. قالت أختُه بحنان:

– ما بك يا أخي؟ لستَ على ما يُرام هذه الأيام، ولا أدري ما السبب!

فقال بأسًى:

– همومُ الناس أرهقتني، وما زادَ همّي أضعافًا هروبُ الإيمان من بعضِ القلوب الشابّة.. يا لَه من عصرِ فتَنٍ، أخشى أن نهلكَ به!

قال ناجي وهو يصبُّ له فنجانَ شاي:

– صدقتَ، فالإلحاد ينتشرُ خِلسة بين الشباب، أدركتُ هذا مِن مساعدي بالمعمل، وقد أسرَّ لي أنّه يعاني مِن ابنه الذي كفَر بالله، وأن الخلاف بينهما تصاعد، حتى أدَّى إلى طرْده من المنزل!

قال حسين باسْتنكار:

– أيطردُ ابنه؟! لقد فقده بهذا التصرّف الأحمق إلى الأبد، وكان أحرَى به أن يتحلّى بمزيدٍ من الصبر فيتحدّث إليه باللّين والرّفق، ويتقرب منه، كان عليه أن يقابله في منتصف الطريق.

ولم يكمل كلامَه حتى لمعت في ذهنه فكرةٌ وليدة للتصدّي لعدوان الإلحاد الذي داهمَ شباب (كفَرْنا بالعيشة)، فاستأذن أختَه وزوجها فجأة متعلّلًا بمشاغله.

***

لم ينمْ ليلتها، إذْ دخل على مدوّناتهم بحسابٍ جديد، ولكنْ بنفس الاسم، وكتب:

هل تعبث بنا الأقدار؟ هل تقودنا إلى مجهولٍ بلا حكمةٍ أو بصيرة؟

وبهذا قدَّم نفسَه بسؤالين مُبْهمين اتُّخذا على محمَلِ سيره في ركابهم، وبدا وكأنه يعاني هو أيضًا من ظُلم أيامه، ويبحث عنَ مخرج، فقُوبِل بحفاوةٍ وترحاب، وبعد أن كتب تدويناتٍ مشابهةً في أيّامٍ قلائل تلت، دعوه لينضمّ إليهم في المجموعة، ثمّ ليلتقي بهم في الساحل أوَّلَ الشهر القادم.

الفصلُ الثّاني

بدأتِ الرِّحلة

لم يكنْ يعلم موعدًا لعودته من الرِّحلة، ولكنه أعدَّ عُدته مع زملائه، ورتّب أوراقه في الجريدة التي يعمل بها بقدْر المستطاع؛ حتى لا يتأثّر عملُه أثناء غيابه.

وقبل سفره بليلة، أرسل إلى الطبيبة حنان الشوربجي رسالةً كتب فيها: انضممْتُ إلى جروب (كفرْنا بالعيشة)، وسألقاهم بإذن الله تعالى غدًا، فاهْدئي واطمئنّي، واسْتعيني على قضاء حوائجِك بالكتمان.

***

انتعل حذاءَه، وقام بتمشيط خصلات شعره الغزير بطريقةٍ عشوائية، تاركًا لحيةً خفيفة على وجهه، وربطَ قلادةً سوداء حول عنقه ليروق مظهرُه مَن يقصدهم، وأصبح بشكلِه الجديد أكثرَ جاذبيةً وشبابًا. ثمّ أخذ سترتَه وحمل حقيبته، واتّجه إلى أمّه وهي تطهو في مطْبخها، نظرتْ إليه بدهشة، ثمّ قالت بفرحة:

– أرجو أن يكون وراءَ ذلك التغيير امْرأة.

فأجابها بابتسامة:

– أجلْ يا أمّي، هي امرأة التي دفعتني إلى تلك الرّحلة، وإلى ذلك المظهر، ولكنْ ليس الأمرُ كما تظنّين.

قاطعتْه قائلة:

– والله لن يخيّبَ رجائي، ستتزوَّجها إن شاء الله.

ضحك، ثمّ قال:

– اعتني بنفسك، سأكون على اتّصالٍ بك إنْ شاء الله، نهى وناجي سيصاحبانكِ أثناءَ غيابي.

ضمَّها إليه، شعرت بغصّة في قلبها دونَ إنذار، فبكتْ فجأة وهي تقول:

– أيجبُ أن تذهب يا بني؟ لا أدري لِمَ شعرتُ بالخوف عليك فجأة! فلا ترحل.

قال وهو يقبِّلها:

– أنسيتِ دعاءكِ لي يا أمي! فلِمَ الخوف إذًا، واللهُ يرعاني؟

قالت وهي تجفّف دمعَها:

– لا تدقّق في ترّهات أمٍّ أثناء وداع فلذةِ كبدها، أرجو أن تستمتع بكلّ لحظة، فأنت جديرٌ بالراحة والاستمتاع.

***

اقتربَ من الساحل، كان شبه خالٍ في هذا الوقت من العام، ثمّ قام بتشغيل وتتبع نظام تحديد الموقع "جي بي إس"، حتى وصل إلى الشاليه المتّفق عليه في نحو الرابعة والنصف عصرًا. لم يخطرْ على باله ما رآه ؛ إذْ لم يجد شاليهًا بالمعنى المفهوم، بل فيلّا كبيرة مكوّنة من دورين في حضن البحر، تحوطها مساحاتٌ تكسوها الخضرة، وتعلوها أزهارٌ مُزدانة بمختلف الألوان الزّاهية، وتتعانق من فوقها أغصان الشجر لتشكّل من تحتها ممرًّا بديعًا للمشاة ، ومكانًا رائعًا

للجلوس، أمّا حمَّام السباحة فكان أشبه ببحَيْرة صناعيّة صغيرة تسمع خريرَ مياهها وهي تنتقل من مستوًى إلى آخر حوْل المْشى، وكأنّها جنة الله على الأرض!

صعد بخفّةٍ أدراجًا ثلاثة، ثمّ وضع حقيبتَه أمام الباب الرئيسي للشاليه، ودقّ الجرس، فتح له رجلٌ نحيف شاحبُ اللّون، بدا عليه الحزن رغمَ ابتسامته، وقال بصوتٍ خافت وهو ينظرُ للأسفل:

– أهلًا بك. تفضّل، أنا عبد الوهاب.

أومأ حسين برأسِه مرحّبًا، ثمّ دخل وألقى نظرةً على قاعة الاستقبال الرئيسية للشاليه، لم يتمكّن من رؤية وجوه الجالسين بوضوح لاختراق أشعةِ الشمس المكانَ من خلال نوافذ الغرفة الزجاجية التي امتدّت بطول الحائط الشمالي، فغمرتها ضياءً ودفئًا في يوم من أيام ديسمبر الباردة، ثمّ سمع صوتًا رقيقًا من الجهة الأخرى من القاعة لفتاة تقول:

– هل تفضّل مشروبًا ساخنًا، أم مثلجًا؟

ألقى ببصره ناحيةَ الصوت، فرأى فتاةً ممْشوقة القوام، تتوسّط مطبخًا مكشوفًا، فابتسم قائلًا:

– فنجان شاي إذا أمكن.

ثمّ اتّجه ناحية الجالسين، فوجد رجليْن ألهاهُما الحديثُ عن مجرّد النظر إليه، وفتاة شقراء استلقتْ على (شيزلونج) يبعدُ عنهما قليلًا، تغطي وجْهها بقُبّعة كبيرة، وصاحَ عبد الوهاب بحماسٍ مِن خلفه:

– لقد انضمَّ إلينا صديقٌ جديد.

توقّف الرجلان عن الحديث، أمّا الفتاة فرفعتِ القبّعة، ورمقته بنظرةٍ خاطفة، ثمّ اعتدلتْ في جلستها وقالت:

– مَن أنت؟

خفقَ قلبُه، فهو يعلم أهميَّة الانطباعِ الأوَّل، وضرورة جذبِهم إليه من الوهْلة الأولى، فرسم على شفتيْه ابتسامةً صغيرة وهو يقول:

– حسين راشد، انضممْتُ إلى مجموعتكم منذ أسبوعين تقريبًا.

صاحت الفتاة التي دعتْه إلى مشروب مِن ورائه، وهي تحمل فنجانًا من الشاي الدافئ وتقدمه له:

– أهلًا حسين، أنا مريم.

لفتَ اسمُها انتباهَه، فهي ابنةُ الطبيبة، والسببُ في وجوده اليوم بينهم، أمعنَ النظرَ فيها وهو يأخذ منها الفنجانَ قائلًا:

– شكرًا يا مريم.

كسا وجهَها الحُسن، وكانت تشبه أمّها إلى حدٍّ كبير، شعرُها الدّاكن منسدلٌ على كتفيها بخفّة، وترتدي سروالًا ضيّقًا، وقميصًا قصيرًا أظهرَ جاذبيتَها، خطتْ كالفراشة حتى أخذتْ مجلسًا بين الرجليْن الجالسين، ثمّ مدَّ أحدُهما يدَه مُرحبًا:

– أنا فارس جلال، أدمنِ الجروب، وصاحب فكرة اللّقاء.

كان فارس أسمرَ الوجهِ، نحيفًا، نظرات اليقظة والدّهاء تطلّ من عينيه، أمّا الآخر فكان مائلًا إلى السمنة، يجلس وكأنّه صنمٌ إسفنجيّ، يحمل حول

عنقِه آلةَ تصوير، لم يحوِّل نظره إلى حسين، ولم يحرّك ساكنًا. أردفَ فارس قائلًا وهو يشير إليه:

– وهذا علاء، انضمّ إلينا منذ شهرين تقريبًا، ولكنَّه في غاية النشاط.

نظرَ حسين إلى الفتاةِ المستلقية وسألَ:

– وأنتِ؟

قالت الشّقراء برقّة:

– ناني.

لم تنهِ كلامها حتى دقّ جرسُ الباب، قام عبد الوهاب لفتحه، ودخلت فتاةٌ هزيلة، بدا من انتفاخ بطنها أنّها حامل، فحمل عنها عبدُ الوهاب حقيبتَها ودعاها لتنضمّ إلى مجلسِهم، دخلت تجرّها خطواتها، فحوصِرت بنظراتِ الحضور لدقائق، ثمّ قالت مريم لتفكّ قيدَ الحصار:

– مرحبًا بكِ، يبدو عليكِ الإرهاق بعد عناءِ الرّحلة.

قالت ناني وهي تعتدلُ في جلستها على الشيزلونج:

– وما اسمُ الصديقة الجديدة؟

– فيفيان.

قالت مريمُ بابتسامةٍ وهي تتّجه إلى المطبخ المكشوف:

– هل ترغبين في مشروبٍ؟

– أشكرك، أودّ أن أنالَ قسطًا من الراحة.

قال فارس بصيغةِ الأمْر:

– قوديها يا مريم إلى طابقكُنّ العلوي لتستريح، وليكنِ اجتماعُنا في هذه الغرفة الليلة الثامنة مساء.

***

قضى حسين ساعاتٍ على الشاطئ يناجي ربّه، فقيرًا إليه، ويطلب منه مددًا، وقد أثلج صدرَه رؤيةُ البحر الهادئ بدرجاته الزرقاء، لا شيء يعلوه إلّا قاربٌ صغيرٌ يتأرجح على أمواجه، ولا يسع إلّا اثنين، مربوط بحبلٍ على الشاطئ، وبدا له أنّ علاء– على الرغم من انطباعه عنه– يُقدّر مثله الجمال، إذْ أخذ يلتقط صورًا للطبيعة بعدسته الاحترافية، ولم يهب الوقوف في أماكنَ تحتاج إلى اتّزان تامّ للحصول على أفضل صور، أو يكتفِ بتصوير المناظر الطبيعية، بل أخذ يسجِّل انطباع كلّ منهم عن المكان وعن الرحلة، واستبعدَ في تسجيله رأي حسين دونَ مبرّر.

وفي الساعة الثامنة، اتّخذ كلٌّ منهم مجلسًا في القاعة الرئيسية للشاليه؛ تأهبًا للاجتماع، توسَّط "علاء" فارسَ ومريم، وكان كعادته يحمل عدستَه لتغطية أحداثِ الاجتماع، أمّا ناني فجلست على الشيزلونج الذي كانت تجلس عليه عصرًا، وأسند عبدُ الوهاب ظهره إلى وسادةٍ كبيرة مستلقيًا على الأرض، أمّا فيفيان فجلستْ مُثقلة على كرسي مريحٍ بذراعين مكسوين بالجلد الفاخر، وقد انضمّ إليهم وجهٌ جديد، رُسمتْ ابتسامةُ ازدراءٍ على شفتيه، ينتعل

صاحبه حذاءً ذا عنقٍ طويل، وسترةً ذات ماركة عالمية ومِن تحتها تي شيرت. قال فارس، وهو يشيرُ إليه:

– لم يكن يسْعنا أن نبدأ الاجتماع قبل حضور عمرو العلايلي، فهو الذي دعانا إلى هذا الشَّاليه الفخم، ولولاه لما كان هذا اللّقاء.

وصمتَ قليلًا، ثمّ أردف:

– كما نعلم، فإنّ الهدف الأساسي من لقائنا هو وضعُ حدٍّ لمشاكلنا، فقد طفح الكيل، ولا بدَّ من وضع نهاية نتَّفق عليها، ولن نتمكّن من هذا إلّا إذا بدأنا نتعارف أولًا؛ ولذلك أرجو مِن كلّ منَّا أن يحدِّثنا عن نفسه، ثمّ يحكي لنا عمَّا دفعَه للانضمام إلى جروب (كفرْنا بالعيشة).. مَن يبدأ؟

قال علاء بحدَّة:

– فلنبدأ بحسين، فليحدّثنا عنْ نفسه.

تعجَّب حسين من اقتراح علاء، فقد شعرَ أنه لم يرُق له من اللّحظة الأولى، فهو لم يوجّه إليه كلمة منذ قدومِه، وتجاهله تمامًا وهو يسجّل آراء كلّ مَن في المجموعة عن المكان. ودَّ لو يقول له دعْني وشأني، أو يسأله لِمَ هذا النّفور؟ ولكنه كظمَ غيظه، وقال بهدوء:

– ولِمَ لا نبدأ بكَ أنت؟

قاطعتْهما مريم قائلة:

– بل أنا التي ستبدأ الحديث.

توجَّهت الأنظار إليها وهي تتوسَّط الحجرة، وقد خصَّها علاء الذي ضبط بؤرةَ عدستِه عليها بالاهتمام وهي تتكلّم:

– منذ كنت في المهد وأنا أتجرَّع العذاب، فقد غاب التفاهمُ والوئام عن بيتنا، أحببتُ أمي وأبي كثيرًا، كنت أتمنَّى أن يظلَّا معًا.. ولكنْ لم تشأ الظروف، فأبي، رغم طيبة قلبه، مدمنٌ.

قاطعَها عبد الوهاب قائلًا:

– أيّ صنف أدمنَه؟

– لم يدمنْ مخدّرات، ولا كحوليّات، ولكنّه أدمن الجلوس فتراتٍ طويلة مع أصدقائه في المقاهي.

قال عمرو بسخريةٍ وهو يضحك:

– وما الجرعة التي إذا تناولها من أصدقائه غابَ عن الوعي؟

تجاهلتْ مريم سلوكَه الساخر، وقالت بهدوء:

– أيّ فعل يُعدّ إدمانًا إذا تجاوزَ الحدَّ، فأبي فضَّل أصدقاءه علينا، وجعل لهم الأسبقيّة على مسئولياته تجاهنا وتجاه عمله، أتذكَّر شجاره مع أمي وصياحَهما وهُما يتراشقان بأبشعَ الألفاظ، كنت أسجن نفسي في حجرةِ نومي حتى لا أسمع المزيد، وأدعو ربي أن يصلح بينهما.. ولكنْ لم يسمع لي، بل زادتْ معاناتهما معًا، واتّسعت الفجوة بينهما إلى حدَّ الطلاق، فأمي طبيبةٌ ناجحة، ولم تصمدْ طويلًا مع رجلٍ فشلَ في كلّ شيء سوى مؤانسة أصدقائه، لم أستوعب

انفصالهما في بادئ الأمر، بل عدت أدعو ربي مجدَّدًا كي يعودا، بتّ أحلم ببيتٍ يضمُّني ويضمّ أبي وأمي من جديد، دعوتُه ودعوتُه، فذهب دعائي أدراجَ الرّياح، إذ تزوَّج أبي أخرى، كانت غير أمي، أكثر صلابة وصبرًا عليه، تحمَّلت عيوبه وعاشت معه، لا أدري لِمَ لَمْ تتحمّله أمي- كما فعلت زوجة أبي. كان عليها أن تفعل ذلك ولو مِن أجلي.. ومرَّت أعوامٌ وأنا أتنقّل بينهما.. أينما ذهبتُ، كانت الغيرة تأكلني والحسدُ يفتك بي كلّما وقعت عيناي على أيادي صغارٍ تتشابك مع أيادي والديهم، كم كان دفء أحضانهم يشعرني بالبرد والخواء! وخفتُ أن تفضحني عيناي، فوجدت في الدّين وسيلةً للهروب من معاناتي؛ إذْ كان يعلّمنا الصبر والتأقلم مع واقعٍ مرير.

قاطعَها فارس وهو جالسٌ في مكانه:

- بل يُعَلّم أتباعه الاستسلامَ والخنوع.

أومأ الجميع برءوسِهم موافقة على مداخلة فارس، ثمّ أردفتْ مريم:

- وجاءت ثورة يناير، عشت حلمًا جديدًا، فالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية حقٌّ لكلّ المصريين، شعاراتٌ تستحق أن تُرفع، وأنْ نضحي من أجلها، وظننتُ أننا سننهضُ كبقية الأمم، واخترتُ الإخوان ليحكمونا، حتى نُحكم بشرع الله، ولكنّهم خذلونا، ولم يصمدْ شرعُ الله طويلًا، وساءت أحوالنا، وجاءتْ ثورة يونيو المضادة، ودعوتُ ربي مجدّدًا أن يصلح بها الأوضاع، ولكني اكتشفتُ حقيقة مُذهلة، ليس هناك مَن يسمع دعائي، فالله غائبٌ.. وكلّ ما تعلمناه منذ المهدِ باطل.

ارتعدتْ وتوقّفت عن الكلام، وسالت دموعُها زخّات وهي تستحضرُ تلك اللحظة التي شعرتْ فيها أنها قشّة في مهبّ الريح، ثمّ قالت بيأس:

– ومنذ ذلك الحين، عشتُ كما يحلو لي، ولكن لمْ أشعر يومًا بطعم السعادة.. فلِمَ نحيا؟ ولم نموت؟ ولماذا نتألّم؟ لا يوجد مبررٌ لما نحنُ فيه، وعندما أخذتُ أعبر عمّا ضاق به صدري، فقدتُ صديقاتي، لا أعرفُ ما دخل الإيمان بعلاقتي بهنّ، وما المشكلة في أن أقول صراحةً إنني فقدتُ إيماني! تعجّبت من هذا المجتمع المختلّ، بل ورفضته كما رفضني، ووجدتُ في الجروب ملاذًا وصحبة.

قال فارسُ بزهْو:

– ما عرفتِه في عمر، أدركتُه منذ صباي، كنت أسمعُ أبي يقول لي إنّنا دائمًا في أمسّ الحاجة إلى الله، ولكنْ ما احتجتُه يومًا، فأنا أوّل دفعتي منذ صغري، ولم أواجهْ مشكلة أو ورطة إلّا وأوجدت لها حلًّا مناسبًا دون دعاءٍ أو تضرّع أو صلاة، وأعمل حاليًّا في مجال البرمجة، أصمّم برامج في غاية التّعقيد وأتْقنها دونَ الحاجة إلى وحي يمْلي عليَّ أكوادًا من السّماء، استنكرت تلك الأساطير منذ زمن، أتذكّر عندما كنت في الصف الثاني الابتدائي في حصَّة الدين، وكان المدرس يحكي لنا عن قصّة الخلق، فقال: إنّ الشيطان قد وسوسَ لآدم وحواء ليأكلا من الشجرة ، فأكلا منها وعصيا أمرَ ربّهما. فسألته: كيف وسوس لهما الشيطانُ وقد طردَه الله من الجنة؟ أجابني: أوليسَ بمقدورك أن تتّصل بمَن يعيش خارج مصر؟ فقلتُ ضاحكًا: يبدو أنّ الشيطان وسوس إليهما عبرَ الهاتف. ضحك زملائي الصغار، ثمّ أردفتُ قائلًا: بالله عليك أستاذنا، أخبرني ما رقم هاتف الشيطان؟

علتْ ضحكات زملائي، وتعذّرعلى المعلّم التحكّم في الفصل لدقائق، فصاح قائلًا بصوتٍ جَهْوري: استغفرِ الله يا بني، قد يغضبُ الله مِن قولك هذا. وأسكت زملائي بصياحه، وهكذا فلتَ ابنُ الغبية من الموقف!

ضحكَ الجميع، وخاصةً علاء الذي أوقف تشغيل عدستِه مؤقتًا لاهتزازِها من ضحكِه ضحكًا هستيريًّا تردَّد في أركان الغرفة، ثمّ استطرد فارس بعدَ أن مسح لعابَه المتطاير مع آخر قهقهاتِه قائلًا:

– ومع الأيام، بدأت أقرأ وأطّلع وأكتشف ترّهات تلك الأديان التي غزتْ عقولنا آلاف السنين، ولذلك قرّرت عملَ الجروب، حتى يعبّر أمثالنا من أصحاب العقول المستنيرة عن أنفسهم بكلّ صراحة، ونفضحَ قصصهم المُفعمة بالدّجل والأساطير.

قاطعه عمرو العلايلي قائلًا بحماس:

– هذا ما دفعني لدعْوتكم إلى هذا المكان بالذّات، فبحفنة آلافٍ من الدولارات تتحقّقون بأنفسكم من كذبهم، يقولون إنّ الجنة تجري من تحتها الأنهار، بها أشجارٌ وفاكهة لا مَقطوعة ولا مَمنوعة. ولكن انْظروا حولكم، ألسْنا الآن في الجنة التي وصفوها لنا، وقالوا إنّ المتقين فقط هُمُ الذين سيحظون بها بعدَ موْتهم، أليست ها هنا على هذه الأرض؟! ولكنِ انتبهوا، فإنه لا يحظى بها إلّا المحظوظ والذكي، ولا مكانَ فيها للأغبياء أمثالهم، ونحنْ هنا في جنّتنا سنتحرّر من كلّ قيودهم.

قاطعتْه ناني قائلةً كقطّةٍ شرسة وهي تنهضُ من الشيزلونج بانفعال، وقد تطايرَ شعرها الذهبي الناعم على وجْهِها؛ فزادها جمالًا على الرغم من حدّتها:

– أحسنتَ يا عمرو، كم أنا متعطّشة لفكّ قيْد ذلك الدّين الذي طوّقني منذ طفولتي! كنتُ في مدرسة إسلاميّة، قيَّدني أبي بلبْس حجاب خانق لطفلة لم تتجاوز التاسعة آنذاك، فأخذ يزيدُ من لهيب حرّ الصيف، وعاقنِي أثناءَ اللّعب والجري. أتذكر أيضًا عندما صفعني علَى وجهي حين عرضتُ عليه بفرحةٍ أولَى لوحاتي، صارخًا في وجهي وهو يمزِّقها مائة قطعة، هذا كُفر! ستحرقين أنتِ وريشتك في نارِ جهنم لا محالة، وازدادَ أبي شراسةً وقسوة كلّما تقدّم بي العمر، وراح الخوف يعشّش في قلبي مع الأيام، حتى باتتْ مفاصلي ترتعدُ ، ونبضي يتوقّف؛ إذا سمعتُ صدى حمحمتِه في أركان البيت. وما زادَ من معاناتي، حرماني من كلّ ما تاقت إليه نفسي سواء في المدرسة أو في المنزل، فسماع الموسيقى حرام، الخروجُ من المنزل والاختلاط بأقاربنا حرام، زيارةُ صديقاتي حرام، مشاهدةُ الأفلام حرام، الرسمُ الذي كان يسري في دمي حرامٌ وحرامٌ وحرام. كرهتُ هذه الكلمة ككُرهي الموت؛ لأنّها كانت كالموت تسلبني الحياة، بتُّ أخفي لوحاتي تحت فراشي، أتذكّر حين رسمت وحشًا يلتهمُ أزهارًا وفراشاتٍ، وقصدتُ بالوحش أبي يأكل كلَّ لمسة جَمال، ولكنني أدركتُ بعد ذلك أنّ ذلك الوحش هو كلَّ مَن يتوغّل في هذا الدين؛ لأنّه يُرهب الناس، يحرمُهم الشعور بالأمان، بل وحقّ الحياة، كفرتُ بكلّ ما يروّجه مُعتنقوه، وأعلنتُ كفري بعد وفاة أبي، لم تستطعْ أمي أن تكبحَ لجامي، ووصلَ بها الحال إلى أنّها ظنّت أنه قد مسّني جنٌّ، أو شيء من هذا القبيل!

قال علاء بسخرية:

– هذه عادتُهم، يركَنون إلى خُزعبلات حين يواجِهون ما لا يستوعبونه.

سألتها مريمُ بفضول:

– كيف تعاملتِ معها بعد ذلك؟

– تركتُ لها البيت، ولكنْ تظاهرت بالتّراجع عن موقفي بعد مرضها، فرحت أضع حجابًا على رأسي كلّما همْتُ بزيارتها، وأتظاهرُ أحيانًا بالصلاة أمامَها؛ خوفًا على مشاعرها، فهي في النهاية أمي، وأخشى أن تتدهْور صحتُها.

شعر فارس بمشاعر متضاربة تجاه تلك الجميلة التي لاقت خوفًا ضاريًا ومعاناة لا تُحتمل، لم يكن يعلم تمامًا هل هي مشاعر عطفٍ لطفولتها المُعذَّبة، أم إعجاب لثباتها وتحطيم جدران ذلك السجن الذي نشأت فيه، أم انبهار لفنَّها الذي لم يُدفن في تلك الأجواء، بل نما ورصد مشاعرها بدقة وجمال على الرغم من أنف سجَّانها.. بدأ ينجذب إليها بقوة، ولم يرفع عينيه عنها حتى قالت فيفيان دونَ أن تبرحَ مكانها:

– يبدو أنّ القيد سمةُ كلّ دين، لقد تزوّجت رجلًا أكرهه، قالوا ستحبّينه بعد الزواج، وكذبوا كدأبِهم، ينتفضُ جسدي كلّما تقرب إليَّ وتودَّد، أبتعد فيتذلّل، فيزيدُ كرهي وبغضي له، وجدتُ نفسي وراء قضبانٍ أبديةٍ كريهة، لا سبيل لي إلّا الهروب منه أو الجنون.

سألتْها ناني:

– وماذا عن الجنين؟

قالت وهي تغمضُ عينيها:

- وأنا في رحلة بحثٍ عن خلاصي- وإنْ بدا لي مزعومًا- لا سبيل إلى التفكير في شيء، وإنْ كان جنينًا ينبضُ في أحشائي، وخاصة أنه جزءٌ ممّن كرهته، ووثاق آخرُ يقيدني.

لم تقتنعْ مريم بوجهةِ نظرها؛ إذْ إن الجنينَ، وإن يكن قيدًا، فلا ذنبَ له، فقاطعتْها قائلة:

- ولكنّ جنينَك بريء ممّا أنتِ فيه.

قبلَ أن تجيب، قال عمرو بنبرةِ أسى، وقد اختفتِ ابتسامةُ الازدراء مِن وجْهه:

- للأسف هذا حالُ الدنيا، فما الذي جناهُ الأعمى ليفقدَ بصرَه؟! وما الذي فعلَه المريضُ لينهكَه المرَض؟! وما الذي اقترفَه الفقيرُ حتى لا يملكَ قوتَ يومِه؟! فلا ذنبَ لهم فيما هُم فيه، فإنْ كان هناك إلهٌ رحيمٌ، كما يزعمُ المؤمنون، ما رأيْنا مشاهدَ البؤس والعذاب جرَّاء الطغيان والحروب والفقرحوْلنا.. فمنذُ طفولتي ونفسُ السؤال يداهِمني.. لماذا هناك منَعَّمون، وهناك بائسون؟!

خيّم الصمتُ على القاعة لدقائق، وكأنّ البؤس الذي تحدّث عنه عمرو طالَهُم جميعًا، حتى نهض عبد الوهاب من مرْقدِه قائلًا بتلك النظرةِ الساهمة:

- أنا طبيبٌ محترم.. أقصد أنني كنتُ كذلك، لم يكنْ للدين دورٌ في حياتي، بل لي فلسفةٌ خاصة، فلو كان هناك جنة ونار، في اعتقادي سأدخلُ الجنة لأنني لم أؤذِ أحدًا، وإذا كان هناك إله، فسيكون حكيمًا ورحيمًا بي، فلنْ يضيره

ألّا أقوم بشعائر ليس لها معنى، وخاصة أن كلّ همي هو عون الضعيف، فالإله- إنْ وجِد- لن يعذّبني..

سأله فارسٌ باهتمام:

- ولِم انضممتَ إلينا؟

- أتعبتني الحياة، وقد ذُلّلت لي يومًا، كنت ناجحًا، اكتظّت عيادتي بمريضاتٍ لا حصر لهنّ، وكنت أعطي البؤساء والمحرومين كلّما زاد دخلي، وكنت في عملي عونًا لكلّ امرأة ضعفت، وخاب أملها، أو كانت فريسة لمُغتصب ظالم، فكنت أجهضُ كلّ حمل غير شرعي، بل وكنت بارعًا في أنْ أعيد لها عذريّتها.

سأله حسين مُقاطعًا:

- ألا يعدُّ هذا إجهاضًا إجراميًّا، كما درستم في كليَّتكم الموقّرة؟

- لم يكن ذلك مقنعًا أبدًا بالنسبة لي منذ الدراسة، فإنّي أحمي مريضاتي من القتلِ أو التشريد، وأهبُ لهنَّ حياة جديدة، وأنقذ عائلاتٍ بأكملها من الفضيحة.

وأخذ نفسًا عميقًا، ثمّ استطرد:

- وفي يوم جاءتني مريضة، لتتخلّص من ورطتها، ولم أكنْ أعلم أنها ستتزوّج ثريًّا، له نفوذ وسلطة، وبعد زواجها، اكتشفَ زوجها السرَّ، لا أدري مَن أفشاه! وكيف حدث ذلك؛ فقُتلتِ المسكينة بعدها في حادثِ سيارة، وأنا أيضًا لم أسلم مِن انتقامه، فقد جاءت مَن حاولَت استدراجي، ولمّا أخفقَتْ في إيقاعي في شِباكها، فبْركَتْ لي صورًا ساخنة معها، وبعد أن تمّ نشرها،

اتّهمتني بإغوائها، ففضحتني فضيحةً مدوِّية لقيتُ بعدها ما لقيتُ من كربٍ وأذى.. هجرتني زوجتي وأطفالي، وفقدتُ وظيفتي، بل وتمَّ شطبُ اسمي من نقابة الأطباء! عشت حالةً من الاكتئاب واليأس، ولم يسعفني إلّا التفاعلُ معكم على الفيسبوك.

قال علاء بعدَ أن سلّم عدسته لفارس ليقوم بمهمّة التسجيل، وقد آثر الجلوسَ أثناء حديثه:

– كنت مهندسًا، أعملُ في شركة مقاولات، وكنت دائمَ التأمُّل والتفكّر في أحوالنا، وجدت أنّ الدين وحدَه هو المسئول عن تدهْورنا، فتمسّك أتباعه بتعاليمه دفعَهُم إلى الانغماس في تفاهاتٍ أعمت أعينَهم، أدخل الحمامَ بقدمي اليمنى أم اليسرى؟ وهل قدمُ المرأة عورة؟ وبهذا اللّغط تعطّلت العقول، وأصبحتْ لا تعمل، وصرْنا في ذيْل الأمم، بل ودفعتْ بعضنا إلى القتل والإرهاب، فوجدتُ مِن واجبي أن أنذرَ الناس، وأحذّرهم من هذا المرض الخبيث الذي جرى في عروقنا، وبات يهدّد وجودَنا. وبدأت أنصحُ كلّ مَن عرفت لأصوّب الأفكار، ولكن – ومع الأسف – أثارَ ذلك غضبَ عملائي، ورؤسائي وزملائي، وأهلي، وأصدقائي، وكلِّ مَن عرفتهم.. فهُم بحقّ عنصريّون، لا يقبلون مَن يختلف معهم، بل ويُعادونه، ولا يقبل أحدُهم أن يراجع نفسَه ولو للحظة، ولم تستقمْ الحياة لي بعدها. توقّفت عن العمل، أو بمعنى أصحّ، أوقفوني.

سأله عمرو:

– متى كان ذلك؟

– منذ شهرين تقريبًا.

ملأ تأييدهم سمع حسين، وراحت الأصواتُ تتّهم كلّ مَن يدين بدين، والتزمَ بتعاليمه بالرجعية والتزمُّت والعنصرية، بل منهم من جوَّد حديث علاء، وزايدَ عليه، ومنهم مَن غنى على ألحانه المواويل والآهات، وأصبح واضحًا لحسين أنّ علاء يملك كاريزما طاغيةً على الرغم من مظهره المتمرِّد وملامحه الحادَّة، فقد استطاع شحنَهم ببضع كلمات.. و قد أشارتْ عيناه الجاحظتان- كعيني وحشٍ يتوعّده- بكراهية لا حدَّ لها، وكأنّه اكتشف هويَّته واختلاف أيديولوجيّاته. شعر حسين بضرورةِ أن يشن هجومًا عليه؛ فصاح:

- من الصعبِ أنْ تتّهم كلّ مَن حولك مِن أصدقاء وأقارب وزملاء في عملٍ إلى آخره بالتشدُّد والعنصرية؛ فالأقربُ للذهن أن تكونَ علاقتك قد ساءت بهم لخطأ فيك أنت، وليس لعمومِ الخطأ في جميعِ مَن حولك.

قال علاء بغضبٍ واستنكار:

- لا يعجبني اتّهامك يا.. ما اسمك؟

قاطعه فارس، وعلى وجهه الأسمرِ ابتسامة:

- لا أعتقد أنّ حسين راشد قصدَ الحطَّ من قدرك، أو اتّهامك بشيء، ولكنه يدافع عن مجتمعٍ سقطَ من نظرنا منذُ زمن، ودفاعُه هذا يثيرُ دهشتي، فما هو تبريرُه؟ وما هو موقفه تحديدًا؟

اتّجهت الأنظارُ إلى حسين، فلم يبقَ إلّا هو ليتحدّث عن نفسه، ويفصح عمّا دفعه للانضمام إليهم. أخذ نفسًا عميقًا، ثمّ وقف قائلًا بثباتٍ عجيب:

- أنا أؤمن بالله، ملأ إيمانُه قلبي وفكري ووجْداني! فأنا أحيا به.

صاحَ فارس بتغيُّظ:

– وما دفعَك إذًن إلى الانضمام إلينا؟

قالت ناني بانْزعاج:

– لماذا خدعْتنا وأوهمْتَنا أنّك تسير على منهجنا؟

أمّا عمرو، فنهض مِن مكانه، واقتربَ منه، ودفع كتفه دفعةً خفيفة قائلًا:

– ما وراءك يا رجل؟ أفصح.

صاح علاء بغلٍّ وهو يشير إلى الباب:

– ليس لك وجودٌ بيننا، اخرجْ من هنا.

التزمَ حسين الصمتَ حتى هدأتْ عاصفةُ الغضب من حوله، ثمّ قال:

– عجبتُ لكم، لقد سخرتُم لتوّكم من المؤمنين الذين- في زعمكم- تحاملوا عليكم، وأخرجوكم من صحبتِهم، وعزلوكم، لمجرد أنّكم تبنَّيتم فكرًا آخر، ولكنِ انظروا إلى أنفسكم الآن، فإنّكم تقعون فيما وقعَ فيه غيرُكم، ووصفتموه بالرّجعية والتزمُّت وتحجُّر الفكر.

صاح عمرو:

– لا مجالَ للنقاش معك، ارحلْ فورًا، لقد جئنا لنبحث عن حلولٍ لا عن مشاكل.

اقتربَ حسين منه قائلًا:

– وأنا أيضًا جئت لنفسِ الهدف، أبحثُ معكم عن حلول، فهي مِهنتي التي أجيدها، ولي بابٌ أسبوعي في جريدة البيان الحرّ؛ لفكّ لغز، أو معضلةٍ لأحد قرّائي.

همّت مريمُ بالوقوف، ووضعتْ بلطف يدَها على كتفِ حسين قائلة بحماس:

– لا بدّ أنْ نحترمَ صراحة حسين وصدقَه، فإذا أخرجناه؛ أصبحنا مَوْصومين بكلّ ما حنقنا عليه وحاربْناه، وسوف نفقدُ تميّزنا عن معتنقي الأديان.

حلَّ عليهم صمتٌ، أزاحَه فارسُ بقوله:

– أقترحُ أن نقبل تحدّيه، ونبقيه معنا، ولكنْ بشرط.

تعجَّب الجميع من اقتراح فارس، وتعجَّله علاء قائلًا:

– ما هو ذلك الشرط؟

– كما تعلمون.. نحنُ هنا نحتكِم إلى رأي الأغلبية، ولذلك يجبُ أن يسري عليه ما نراهُ مناسبًا من حلول، وإن كان انتحارًا.

قاطعه حسين قائلًا:

– وأنا قبلتُ شرطك.

– الأمرُ لا يتعلق بك وحدَك، بل بكلّ الموجودين هنا، مَن وافق على اقتراحي هذا فليرفع يدَه، ومَن يرِد إخراجَ حسين من زُمْرتنا فليخفضها.

رفعتْ مريم يدَها، ثمّ تلاها عبدُ الوهاب، ثمّ رفع الآخرون أيديَهم، واحدًا تلو الآخر.. عدا علاء، وعندما شعر أنه شذّ عن الجميع؛ رفعها رفعةً خفيفة، ابتسمَ لها حسين، وقال فارس:

- إذًا، فهي موافقةٌ بالإجماع.

قال حسين بإيماءةِ رأس:

- تحيةً لكم مِن أعماق قلبي.

لم يكنْ يعلمُ هل أصاب حين قبلَ التحدِّي، فماذا لو قرّروا الانتحار، فهل تهون عليه نفسه؟! تذكّر بكاءَ أمّه وهي في حضنه وقتَ الوداع، تُرى هل أدركت بشفافيتها ونقائها الخطر الذي طوّق به نفسه؟! أخذ يلومُ نفسه ويُعنّفها ألفَ مرّة، على الرغم من يقينه أنه لم يكنْ أمامه خِيارٌ.

الفصلُ الثَّالث

جِدار

استيقظَ على صوتِ زقزقة العصافير وهو ممدّدٌ على أريكة مريحةٍ قرب النافذة الزجاجية في الركن الشّمالي من قاعةِ المعيشة، فتَح عينيه على منظرِ البحر وهو يباهي السماء بزُرقته، وموجه وهو يحاول عبثًا الوصولَ إلى السّحب، أخذ نفسًا عميقًا وهو يهمسُ.. سبحان الله، ثمّ سمعها تقول:

– صباحُ الخير يا حسين، تفضّل القهوة.

التفتَ إليها، وجدها تدْنو منه وفي يدِها فنجان، كانت أكثرَ إشراقًا وضياءً من الشّمس المعلّقة في السماء، اعتدلَ في جلسته، وابتسم قائلًا:

– أشكرُك يا مريم، هذا لطفٌ بالغ منكِ.

جلستْ على مقرُبة منه وهي تتأمّله، أمّا هو فرشف رشفةً من الفنجان، ثمّ قال:

– أشكرُك أيضًا على دعْمك لي بالأمس، فلوْلاه ما كنتُ بينكم اليوم.

قالت وهي تهزّ كتفيها:

– لا داعي للشكر، لقد فعلتُ ما أمْلاه عليَّ ضميري ومبادئي.

– هذا موقفٌ يُحسب لكِ، ويستحقّ الاحترام والتقدير، فكمْ مِن أناس يتغنَّون بشعاراتٍ دينية أو ليبرالية، أو إنسانية، أو أيًّا كانت، ولكنْ عندما

تتعارضُ مصالحُهم وأهواؤهم مع تلك الشعارات، وعند أول محكّ يتبرؤون منها، فيتحوّلون إلى ألسنةٍ تتحرك دونَ قلب أو عقل أو ضمير!

نظرتْ في عينيه، ثمّ خفضت عينيها وهي تقول في شيء من الارتباك:

– لا أحبّ أنْ أحظى بما لا أستحقّ، دعني أصرّح لك عن أمري، التزامي بمبادئي لم يكنِ الدّافعِ الوحيد وراءَ موقفي البارحة؛ هناك دافعٌ آخر لا أفهمه، ولكنّه تسلّل إليّ.

اختفتْ من أمامه فوْر مصارحتها له، أمّا هو فأخذ يقلّب جُملتها الأخيرة في ذهنه، حتى أفاقَ على صوتِ عبد الوهاب وهو يقولُ له:

– سأذهب إلى العلمين لشراءِ لوازم الإفطار، هل تفضّل نوعًا معينًا من الطعام؟

– لا، بل سوف آكل ممَّا تأكلون.

ثمّ أخرج حسين بعضَ النقود من محفظته، واستطرد قائلًا:

– خيرُ الناس أنفعُهم للناس يا عبدَ الوهاب، تفضَّل.

سأله باستنكار:

– ما هذا؟

– ثمنُ إفطاري.

قال عبدُ الوهاب وهو يدفع يدَه الممدودةَ بالنقود بعيدًا:

– عمرو العلايلي سيتكفّل بنا جميعًا في هذه الرّحلة من الألف إلى الياء، أعِد أموالك إلى جيبك.

نهضَ حسين بانزعاج قائلًا:

– لن أقبلَ هذا.

دخل غرفةَ النوم الرئيسية بعد أن أذنَ له بالدخول، فوجدَ عمرو العلايلي مستلقيًا على الفراش، وفي يده كأسٌ من النبيذ الأحمر، عندما وقعت عيناه على حسين قال بصوتٍ شبْه مخْمور:

– يقولون إنّ الخمرة تُسكر، ولكني لا أفيق إلّا بها.

قاطعه حسين قائلًا:

– عمرو، لا أريدُ أن أطيل عليك، ولكن لا بدّ أن أدفعَ ثمنَ إقامتي وطعامي.

– أنتم جميعًا في ضيافتي حتى نهاية الرّحلة، فهذا مبلغٌ تافهٌ بالنسبة لي، فأنا هنا ربّكم الذي يرزُقكم.

وضعَ حسين شيكًا بعشرةِ آلاف جنيهٍ على الكومود المجاور للفراش، وهو يقول:

– الرّزق ليس بيدك يا عمرو، وإن ملكتَ أموالَ العالم، وإنه ليشمل يا صديقي أشياءَ أخرى غير المأكل والمشرب، ولو تصوّرنا أن الرزقَ انحصرَ فيهما لأصبحنا كالبهائم.

***

في خلال ساعة، كان قد وضعَ ثيابه، وأخذ كتابًا ليقرأه تحتَ مظلّة الزهور المطلّة على الممشى الرئيسي أمامَ البحر، ثمّ رمى ببصرَه بعيدًا، فوجد ناني وقد

مالتْ على لوحتها على بُعد خطواتٍ منه، تجرُّ فرشاتها وهي تتأمّل المنظر البديع مِن حولها، ثمّ لاحظَ مريم وهي تخرج من الشاليه، تمنَّى لو تدنو منه، وتتحدَّث إليه، ثمّ تعجَّب من نفسه، ما سرُّ اهتمامه بها؟ هل لوعدِه لأمّها، أمْ لدعْمها إياه وهو في أمسِّ الحاجة إلى مساندة، أم أن هناك ما لا يدركه؟! تتبّعها بعينيه وهي تخطو برشاقةِ النعامة متجهة إلى ناني، وبعد لحظات صاحتْ تناديه:

– حسين، تعالَ ومتّع عينيك بإبداعات ناني.

نهضَ بحماس مِن مجلسه واتّجه إليهما، قالت مريم بابتسامةٍ وهي تشير إلى لوحة ناني:

– انظر، يبدو أنّ معنا فنانةً رائدة ونحن لا ندري.

ابتسمتْ ناني وهي تقول في تواضع:

– إنكِ تبالغين.

انبهرَ حسين عندما رأى رسْمها، لقد نقلت بإتقانٍ جَمال الطبيعة حوله، فقال:

– مريمُ على حقّ، ما أبدع رسمَك!

سألتها مريم بحماس:

– منذ متى وأنتِ ترسمينها؟

– منذ أكثر من ثلاث ساعات.

سألها حسين بابتسامةٍ صغيرة:

– مِن أين تعلّمتِ مزْج الألوان وتدريجها بهذه الطريقة الرائعة؟

قالت وهي تنظرُ إلى الأفق:

– انظر حولَك، سترى الجَمال يغلّف كلّ شيء، فقد تعلّمت من الطبيعة الأمّ.

قاطعها حسين بسؤاله:

– ومَن علّم الطبيعةَ الأمّ؟

قالت باستنكار وهي تحرّك فرشتها الصغيرة بطريقةٍ عصبيّة تفصح عن غضبها:

– ما هذا السؤالُ يا حسين؟! لا أحد بالطبع.

في هذه الأثناء، كان فارس يجوبُ الشاطئ يبحث عن أعضاء الجروب لإبلاغهم عن موعد الاجتماع التالي، وعندما وقعت عيناه عليهم؛ اقترب منهم وهو يقول:

– لا تنسوا اجتماعنا الليلةَ في نفس الموعد.

ثمّ صفَّر بإعجاب عندما رأى اللّوحة، وصاح مبهورًا:

– يا له من إتقان! أحسنتِ يا ناني.

قال حسين متهكّمًا:

– وما دخل ناني؟ لقد وجدنا اللّوحة وقد رسمَتْ نفسَها!

قالت ناني بضيق:

– ما هذا السُّخف؟!

نظر فارس إلى ناني بابتسامةٍ ساخرة قائلًا:

– سخفُ مؤمنٍ يظنّ أنه حادّ الذكاء!

انسحبَ بهدوء إثرَ ضحكاتِ ناني وفارس، أمّا مريم فقالت غاضبة وهي تنظر إلى حسين وقد أخذته قدماه بعيدًا:

– ألأنّنا لا ننسجم مع أفكاره نسخرُ منه؟

قال فارس:

– هو الذي بدأنا.

ثمّ التفت إلى ناني قائلًا بدفء:

– لِمَ لا ترسمينَني؟

قفز قلب ناني فرحة حينما شعرت باهتمامه من نبرة صوته وعينيه، وقد كانت مولعة بأفكاره الحرة وهي تتابع تدويناته على الجروب على مدار سنة كاملة، وازدادت إعجابًا به بعد أن التقته، ابتسمتْ قائلة:

– وجهكَ فوتوجُنيك، وملامحُك تشدّني لرسمها.

***

دقّت الساعة الثامنة، وأخذ كلٌّ منهم مجلسه في قاعة المعيشة بالدور الأرضي، وعدستُ علاء تنقل الأحداث كما كانت بالأمس، ثمّ نهضَ فارس

ليعلنَ عن بدْءِ اجتماعهم، وإذْ بجرس الباب الرئيسي للشاليه يدقّ. نَظروا جميعًا إلى البابِ في دهْشة، فمَن يكونُ الطارقُ والقريةُ خالية؟! وراح فارس يقولُ محاولًا فكّ اللّغز:

– تُرى.. هل لا يزالُ هناك مَن يريدُ الانضمامَ إلينا من أعضاءِ المجموعة؟

ذهبَ عبدُ الوهاب ليفتحَ الباب، فوجدَ رجلًا في الخمسين مِن عمره، باسِمَ الوجْه، قال له:

– مرحبًا، أنا وجيه عبد الدايم، جاركم.. لي شاليه في أوَّل الشارع.

ردَّ عبدُ الوهاب التحية، ثمّ أردفَ الرجلُ:

– ابْتهجتُ لرؤية إضاءة بشاليهكم، وسياراتٍ تقف بالخارج؛ فعرفتُ أنّ الدكتور محروس الجندي قدْ وصلَ من القاهرة. هل هو موجودٌ الآن؟

قال عبدُ الوهاب:

– لا يوجدُ بيننا مَن يحملُ هذا الاسم. على العموم تفضّل، أهلًا وسهلًا بك.

دخلَ وجيه في صحْبة عبد الوهاب، ثمّ صاحَ الأخيرُ بعد دخولِه قاعة المعيشة:

– أستاذ وجيه جارنا، يسألُ عن محروس الجندي.

قال عمرو دونَ أن يبرحَ مكانَه:

– محروس الجندي مالِك الشاليه، لقد استأجَرْته منه، وبالطّبع لم يأتِ إلى السّاحل.

نظرَ الجارُ إلى وجوهِ الحاضرين بتعجّب، وهو يتخذ مَجلسًا بينهم، ثمّ قال:

– يبدو لي أنّكم في رحلة، ولكنْ لماذا اخترتُم التنزّه في هذا الوقتِ من العام؟! فليست هناك خدماتٌ بالقرية، علاوةً على قسْوة البرْد!!

آثرَ فارس الصمتَ وقد تأجّج الغضبُ بداخله لقُدوم هذا الغريبِ مُقتحمًا وقتَ الاجتماع. قال عمرو بنبْرةٍ ساخرةٍ وهو يهزُّ كتفيْه:

– أراكَ مُندهشًا، وقد اخترْت أنتَ أيضًا أنْ تتنزّه في هذا الوقت!

ردَّ وجيه، وقدْ أزعجتْهُ نبرةُ عمرو السّاخرة:

– يا بني، لقد جئت مُضطرًّا لعملِ بعضِ إصْلاحاتٍ في داري، وسأعودُ غدًا إلى القاهرة إنْ شاء الله.

قال حسين بابْتسامة:

– صدقتَ، فما مِن شيء إلّا ويحتاجُ إلى صيانة، ولكن منّا مَن يتجاهلُ هذه الحقيقة، ظنًّا منه أنّ الأشياء تُبقي نفسَها بنفسِها على مرِّ السّنين.

التفتَ فارس إلى ناني هامسًا وهو يجزُّ على أسنانِه غيْظًا:

– ما زال شيخُنا يظنّ أنّه حادُّ الذّكاء.

ضحكتْ ناني ضحكةً قصيرة، أمّا جارُهم، فلمْ يفهَم إلامَ يرمي حسين مِن كلامِه، ولكنَّه ردَّ قائلًا:

– هذه سَذاجةٌ مُفْرطة، فداري، على سَبيل المِثال، ظلّت على حالِها لأعوام قَلائلَ ثمّ بدأتِ الأعطالُ تنخرُ في أحشائها، حتى لقد طالتْ كلّ شيء، مِنَ كهرباء إلى صرفٍ إلى دهان..

لم يعقّب أحدٌ على كلامِه، وخيَّم السكونُ على القاعةِ، فلم يشأ أحدٌ منهم إضاعةَ مزيدٍ من الوقتِ في ثرثرةٍ غير مُجْدية مع جارٍ لا يهتمّون كثيرًا بمعرفتِه، علاوةً على ذلك، كان الكلّ متطلّعين إلى الاجتماعِ.. لم يمرَّ مِن الوقت كثيرٌ حتى شعرَ الرجلُ بأنه غيرُ مرغوبٍ فيه، فاستأذن وانْصرف.

عادَ علاء وأمسكَ عدستَه، والتزمَ الجميعُ أماكنهم لاسْتئناف اجتماعِهم، وقال فارس بعدَ نهوضِه:

– أعتذرُ عن هذا التّأخير غير المَقصود.

وصمتَ برهةً ثمّ استطردَ:

– اجتماعُنا الليلة للبحث عن حلٍّ لشكوانا التي أسهبْنا في وصفها بالأمس، وقد يطولُ هذا الاجتماع، وقد يتكرَّر إذا لزم الأمر، مَن يبدأ؟

قال علاء بسخرية وهو يشيرُ إلى حسين:

– لا يُفتَى ومالكُ في المدينة، فمعنا حلّال العقد، فلننظر كيف يحلُّها.

نظرَ فارس إلى حسين قائلًا:

– أتريدُ أن تبدأ؟

توسَّطهم حسين بنشاطٍ ظنًّا منه أنّها فرصة، وقال مبتسمًا:

– ليس عندي مانع، فكما أشار علاء، هذا دوري الذي أتقنه.

التزمَ الصمت برهةً حتى هدأ الجميع، وعادَ فارس إلى مكانه، ثمّ أردفَ:

– أصدقائي، لحل أي مشكلة يجبُ البحثُ في أسبابها، ومن هذا المنطلق، وبعد سماعكم البارحة، أجد أسبابَ همومِكم كلّها تتمثل في شيء واحد، الإحساس بالغربة.

بدءوا ينصتون باهتمام، فاستطرد:

– وأبشعُ أنواع الغربة أن تكون غريبًا عن نفسك.

سألتْه مريم باهتمام:

– وكيف يكون المرءُ غريبًا عن نفسه؟

– عندما يجهل أو يتجاهل احتياجاتِها ومنبع حياتها.

سألتْه ناني:

– أفصحْ، ماذا تقصد؟

– التواصلُ مع الله تتوقُ إليه كلُّ نفس، شاءت أمْ أبَت.

أوقف علاء عدستَه، وصاح غاضبًا وهو يدنو منْه:

– لقد قلتُ لكم، هذا الشيخ الأحمق سيفسدُ علينا ما جئنا مِن أجله.

اقتربَ منه عمرو وهو يقول بغلٍّ:

– يضيّع وقتنا في أشياء ليس لها مكان إلّا في مخيّلته، فعَنْ أي إلهٍ يتكلَّم؟!

مدَّ حسين ذراعيه ليبعدَهما قليلًا عنه قائلًا باستياء:

– ما هذا؟! أتصفون أنفسَكم بالتقدُّم؟! انظروا إلى ردودِ أفعالكم إذا ما سمعتم ما لا يحلو لكم!

وقفتْ ناني، ورفعت يدَها محتجَّة وهي تقول:

– كفى، لا نريد سماعَ المزيد.

التفتَ إليها فارس بعد أن اتَّكأ على مسندِ كرسيه قائلًا بهدوء:

– بل ليُكمل حديثه، أكملْ يا حسين.

قالت ناني بغضبٍ وهي تهزّ كتفيها:

– لستُ مضطرّة إلى سماعه!

تركتِ الشاليه واتَّبعها علاء، واتَّبعتها نظراتُ فارس الحائرة، حتى قال حسين:

– أشكرُك يا فارس.

أشار إليه فارس قائلًا:

– هيَّا، أكملْ ما بدأت.

– لقد أنكرْتم الله؛ فخلَتْ حياتُكم من كلّ معنى وغاية، فضاقتْ بكم، تبحثون عن حلولٍ لأوجاعكم، ولن تجدوا، واللهِ، حلًّا إلّا في القرب منه. انظروا إلى أنفسكم، لقد أنكرتُموه لأسبابٍ عدَّة، فمنكم مَن كفر لظلم قد حلَّ به من آخرين، ومنكم مَن كفر طغيانًا وغرورًا.

نظرَ إلى مريم، ثمّ استطرد قائلًا:

– لقد أنكرتِه يا مريم لأنّه في ظنّك لم يسمع دعاءك، تصوَّرتِ أنكِ تعيشين في هذا الكون وحدَكِ، ويجب أن يسيرَ وفق هواكِ، جنونُ أبيكِ وشرودُه وتخلّيه عن مسئولياته تجاهكما، وانشغالُ أمّك وعدم تقبّلها شطوطه لها ثمنٌ لا بدَّ أن يُدفع، الله يسمعك ولن يخِلّ ميزانه لدعائك، فلن ينجح تلميذٌ أهملَ، وإن دعا ربَّه، ولن تثمر ثورةٌ قام بها شعبٌ يجهل قيمةَ ما انتفض لأجله، وإنْ سألوا ربّهم التوفيق، فكلُّ تعثّر حاقَ بنا أمرٌ طبيعي لجهلنا، وضروريٌّ لنضوجنا.

قاطعتْه مريم والدّموعُ في عينيها:

– ألم يقلْ في قرآنكم "فإنّي قريبٌ أجيبُ دعوة الداع إذا دعاني"؟

– أجل. فهو يجيب.. ويحقق دعاءك، لو كانَ فيه إنصافٌ وخير، ففي المنعِ إجابةٌ يا مريم، لو تعْلمين.

ضحكَ فارس ساخرًا وهو يقول:

– في المنع إجابة، حجّة البليد..

– هذه قناعتُك أنت، والإنسان قلّما يستمع لغير قناعاته، فهذا جزءٌ من غروره وزهْوه بنفسه، ولكن إذا تواضعْنا ونظرنا في مجريات الأحداث بعمق؛ سنجدُ حكمة الله في منعِه وعطائه.

اندهشتْ مريمُ من يقينِ حسين وثباتِه، وأثار سلوكُه في نفسها تساؤلًا.. أيُّهما أفضل، أنْ يعيش المرءُ في واقعٍ مرير، أمْ في روعةِ خيالٍ زائف؟ وبعدَ

لحظات، دخلتْ ناني مرةً أخرى القاعةَ بابتسامةٍ باهتة، ومعها علاء، وبعد أنْ عادا إلى مكانيْهما؛ أكمل حسين قائلًا وهو ينظرُ إليها:

– أمّا ناني، فكرهتِ القيود التي طوَّقتها منذ صغرها، ولها ألفُ عذر، فكلُّ مَن حولها مع الأسف كبَّلها بمُحرّمات ما أنزلَ الله بها من سُلطان، فالجَمال النقي بكلّ صوره لم يُحرَّم يومًا، وكيف يحرّم وهو آيةٌ من آيات الله، تذكُره ألسنتُنا كلّما وقعت أعينُنا على كلّ ما هو بديعٌ في كونه. الله.. إذا نظرت إلى زهرةٍ تتفتّح، الله.. إذا مدَدت بصرَك في الأفق وشعرت بتمدّد صدرك باتّساعه، الله.. إذا سمعت تغريدةَ عصفور يحلّق فوقَ رأسك، الله.. إذا عانقتْ يدُ صغيرك أصبعَك في ضعف وحنوّ، وعشقتَ بهذه اللمسة أطفالَ العالم أجمع، يا لَه من جَمال غابَ عن عيني ناني لطغيان أهْلها، فحنقتْ على الله الذي وهبَ لها فنَّها ونفسَها التي تهفو إليه! وبسطَ لها في الكون جَمالًا في أزهاره وأشجاره وفراشه، وبحاره، وأسماكه؛ فحرّك به ريشتَها، وكان ردُّ فعلها تجاه الظلمِ الذي حاقَ بها ظلمًا آخر، فظلمتْ نفسها.

تصاعَدَ نفور ناني تجاهَه، ورأتْ – في ظنها – أنّ كلامَه يدينُ إلهَه؛ إذْ خلق – على حدّ قوله– الجَمال، ثمّ خلق مَن يطيحُ ويفتكُ به، أمثال أبيها! ولم تُفقْ مِن أفكارها إلّا على صوتِ علاء وهو يقولُ باسْتنكار:

– ناني ظالمةٌ في عُرفِك، أمّا الإرهابيّون الذين يقتلون ويَحْرقون مِن أجل الله ورسوله فعادلون!

– ما دخلُ الإرهاب بالله ورسوله؟! فالقربُ من الله واتِّباع ما جاء به رسولُه سلامٌ مع النفس والغير.. لا تردِّد عباراتٍ ردّدتْها كياناتٌ مشبوهة،

ورَوَّجتْها حكوماتٌ غربية لتحقيق مصالح سياسية، ساقنا جهلنا إلى اعتناقها.

ثمّ نظرَ إلى فيفيان، وقال:

– وأنتِ أيضًا فيفيان، وقعتِ في نفس اللَّبْس الذي وقعتْ فيه ناني، فالدينُ بريء من زواجك شريكًا تُبغضينه، هذا الجرمُ لم ينبعْ منَ الدين، بل نبعَ مِن أتباعه الذين فرضوه عليك فرضًا، والدّين يتبرّأ من الزّواج القهري.. في كلِّ الأدْيان الزَّواجُ مودَّة ورحمةٌ ورباطٌ مقدّس، وما كان ردُّ فعلك تجاه الظلم الذي وقع عليك إلّا أنْ ظلمتِ نفسَك وفلذة كبدك، وقد تكونين ظلمتِ زوجَك!

تعجّبتْ فيفيان مِن مَنطق حسين الفاسد، وجعْله – بادعائه الظالمَ مظلومًا، والمظلومَ ظالمًا، وتنفّست الصعداءَ حين أنهَى كلامَه عنها، ثمّ نظر إلى عبد الوهاب، وقال:

– أمّا عبد الوهاب، فضَلَّ بفلسفته ضلالًا بعيدًا، فتجاهل الدينَ وشرعه، وجعل معايير الخير والشّر تسيرُ وفقًا لهواه، فقَتَلَ الأجنّة، وخَدَعَ الناس، وأعانَ البعض على الهروب من مسئوليّتهم، وعدم تحمّل عبء خطاياهم، ولأنّ كلّ هذا الشرّ خيرٌ في عُرْفِه، لم يتوقّع حصادَ عمله، ولو كان مؤمنًا بالله متمسّكًا بتعاليم دينه ما وقعَ في هذا اللّبْس!

قاطعَه عمرو:

– حديثُك يرتكنُ إلى كائنٍ يعيش فقط في عقلك وعقلِ غيرك مِن معتنقي الخُرافات، فما الفرق بين الإيمان بإلهٍ خالق كلّ شيء لا صَانع أو خالق له، والتصديق بأنّ الكون خالقُ كلّ شيء ولا شيء قبله، ولا صانع له؟

قال حسين بهدوء:

– الفرقُ جوهريٌّ يا عمرو، فبديهي أنْ أؤمن بإلهٍ لا صانع له، لأنّه لو كان مصنوعًا ما كان إلهًا، فالمقصودُ بكلمة إله أنْ يَخلق ولا يُخلق، أمّا أنْ يوجد الكون مِن تلقاء نفسه دون حِكمة توجدُه فهذا مُنتهى السخف، فغيرُ مقبولٍ أن ينكر امرؤ ما في كوْننا من تصميم وجَمال وقوانين دقيقة تحكمُه، إلّا إذا منعته كبرياؤه، كحالك وحالِ فارس، ففارسُ أنعم الله عليه بذكاءٍ حادٍّ، وبدلًا من أنْ يصل إلى الله من خلاله، ظنّ أنّه ليس بحاجة إليه، وكأنّه أحاط بكلّ شيء علمًا، وأمِنَ شر غده، وأنت ظننتَ بأموالك أنّك الرزّاق، كالطفل الذي لم ينتبه إلى مصدر الضوء الذي خلفه، فاعتقدَ أنه أنشأ خياله.

همسَ عمرو وهو يديرُ وجهَه عنْ حسين بابتسامةٍ سخرية:

– حماقة!

أمّا علاء، فقال وحاجباه يتراقَصان على إيقاع كلامِه:

– ما هذا الغرور؟ تتحدّث وكأنك العالمُ ببواطن الأمور، وتحلّل وتفلسِف، ومرجعُك كتابٌ عمرُه أكثر من أربعة عشَر قرنًا من الزمان.

قال حسين وهو يشير إليه:

– أمّا أنت يا علاء، فقد انشرحَ صدرُك للاعتقاد بأنّ المؤمنين متخلّفون لتمسّكهم بكتبٍ عتيقة بالية، في حين أنكم أنتم، ذَوو عقول حرّة مُستنيرة، لا تؤمنون إلّا بالحقائق وما يقرّه العلم، هذا ما تودّ تصديقه، ونسيتَ أن كلامَ الله حقٌّ ثابت في كلّ زمان، وأن فيه من الآيات ما...

قاطعَه عمرو قائلًا باستياء:

– سئمْنا جدالًا طالَ ساعات، وهو في حقيقة الأمر عقيمٌ غيرُ مثْمر، بالله عليك يا فارس.. أنْهِ النقاش.

قال فارس بحزم:

– مَن يُرد أنْ ينهي نقاش حسين راشد يرفع يدَه.

رفعَها علاء وعمرو، ثمّ اتَّبعتهما ناني، ثمّ فارس وفيفيان، نظر عبدُ الوهاب إليهم، ثمّ رفعها بتردّد، أمّا مريم فنظرتْ في عيني حسين، فرأتْ فيهما خيبةَ أمل وانكسارًا تعذَّبت بهما، ولكنّها عشقت عذابَها.

***

جلس على شاطئ البحر بعد أن أخلدَ الجميعُ إلى النوم، لم يبالِ الظلمة وبردَ ليلةٍ من ليالي ديسمبر، أخذَ يراقب زبدَ البحر وهو يطفو ثمّ يذوبُ على الشاطئ بلا أثرٍ تمامًا كنقاشِه الليلة، رفع وجهَه إلى السماء وترقرقتْ عيناه بالدّمع، وأخذ يردّد: إلهي، اغفرْ ضعفي، وقلة حيلتي، فما كنت جديرًا بالدفاع عمّا عرفته من حقّ، يبدو أنني لا أستحقّ أن أنول هذا الشرف. ترى أين كانت نقطةُ ضعفي؟ أهذا الحدّ لم أكنْ مُقنعًا؟ هل أفقدُ الأمل؟ هل ألملمُ مَتاعي وأعودُ أدراجي؟ وهل سيرحُمني ضميري إذا تركتُ هؤلاء الشَّباب يزهقون أرواحَهم بأيديهم؟ وماذا عن تلك الأمّ التي وضعتْ ثقتَها في؟ ماذا أقول لها إذا لاقتِ ابنتُها حتفها؟ وفجأة سمعَ صوتًا وراءه، فاستدارَ فوجدها

تدنو منه، وشعرُها يتطاير بجنونٍ مع رياح تلك الليلة، مسحَ دمعه حتى يُخفيه عنها، أمّا هي فأخذت مجلسَها منه وهي تقول بحنان:

– لا تحزنْ يا حسين.

قال مُبتسمًا:

– أشكرُك على شعورك الطيِّب.

قالتْ بحماس:

– كنتَ رائعًا في حديثك، ولكنّك تدركُ صعوبةَ تغيير قناعات الناس، هذا لا يقلّل من شأن أحد.

نظر إليها فغرقَ في بريق عينيها، وتعجَّب لإحساسه الجارف نحوها، واخْتراقها وجدانَه بهذه السرعة، فقال لها على عجَل:

– دعْيكِ مني، وادْخلي، أخشى عليكِ برْد الشتاء.

رقصتْ الابتسامة على شفتيها، وهي تقول:

– أتخشى عليَّ حقًّا؟

ابتسمَ وهو ينهض قائلًا:

– هيّا بنا إلى الشاليه، لقد تأخَّر الوقت، وزمهريرُ الشتاء ينفذ إلى العظام، و..

قاطعتْه قائلة:

– لا أبالي، ما دمتُ معك.

نظرَ في عينيها، فرأى توسلاتٍ في مقلتيها يصعبُ مقاومتها، ومع ذلك قرّر ألّا يجعل لها طريقًا إليه، فخطا أولَى خطواته نحو الشاليه قائلًا:

- بل يجبُ أن نعود.

انطلقا معًا، وظلّت ساكنة وهي تسير إلى جواره، أمّا هو فسأل نفسه.. هل مَجيئها إليه رسالةٌ من الله ليثبّته، أمْ هي خطوةٌ من خطوات الشيطان؟

الفصلُ الرّابع

تأشيرةُ دُخول

ظلّ مُستيقظًا على الأريكة التي اتّخذها فراشًا له في صالةِ المعيشة، قلقًا حزينًا بعد إخفاقه في أوّل جولة له معهم، فلم يكنْ يتخيّل أن تتهاوى سبلُ إقناعه بهذه السرعة والسهولة، ولمْ يغشَه نومٌ عميق إلّا بعد انْبلاج الفجر. وفي وقتٍ باكر، مرَّت ناني وفارس بزيّهما الرياضي على مقربةٍ منه، متّجهين خارج الشاليه، وكانا يتناجيان ويتعاتبان، إذْ قالت ناني وهي تنظرُ إلى حسين وهو غارقٌ في سُباته:

– لم أكنْ أتوقّع أن تتحدّاني بالأمس من أجلِ ذلك الشَّيخ الأهطل.

وضع يدَه على كتفها وهو يقول:

– ناني، كنت أتوقّع أن تكوني أفطنَ من ذلك، لو أنني أوقفْته عن الحديث كما شئتِ لظنّ أنّنا أسكتناه خوفًا منه، وتفاديًا لحُجَجه، ولكن انظري ماذا حدث، لقد جعلته يخنقُ نفسَه بنفسِه، فتهاوت حججُه الهشّة، وفشلَ في إثبات ما جاء مِن أجله، وأصبح وجودُه بيننا لا معنى له.

قاطعتْه قائلة:

– هذا أيضًا رأي علاء، أفضى إليَّ به حين تتبّعني وأقنعني بالرجوع.

وسكتَتْ برهةً ثمّ قالت:

– وجودُ حسين يحيّرني، لا أعلمُ ما دسّه بيننا، كلوْن باهتٍ في لوحة زاهيةِ الألوان.

وضع يدَه على خصرها، وقال وهو يجذبُها نحوه:

– هل سنضيّع وقتنا في الحديث عنْ حسين راشد؟!

قالت برقة:

– معك حقّ؛ فوقتُنا أغلى مِن ذلك.

***

ظلّ مُستسلمًا لنوم عميق حتى قُرْب الساعة الثانية عشرة ظهرًا، استيقظ وصورةُ الشيخ محمودً قد ملأت عينيْه، أخرج محمولَه على الفور، واتّصل به، فمجرد سماعه صوتِه يشعره بالسكينةِ والراحة.

صاحَ الشيخ– فوْر سماع صوته– بشوقٍ وابتهاج:

– حسين راشد، أين أنتَ يا رجل؟!

قال حسين بعَجَل:

– شيخ محمود، أريدُ منك استشارةً عاجلة، أقضي وقتي الآنَ مع شباب كفَروا بالله، قلتُ فيهم قولًا بليغًا بالأمس، ولكنْ للأسف لم يسْمعوا قولي، هل عندكَ نصيحة لإحياء قلوبِهم؟

– اسمع يا حسين، وطّد علاقتك بهم، واحرصْ على امتلاك رصيدٍ إنسانيٍّ عالٍ عندهم، هذا الرصيدُ سيمدّك بتأشيرةِ دخول إلى قلوبهم العنيدة.

قال متردّدًا:

– أخشى على نفسي مِن أنْ تتسلّل إليَّ بعضُ أفكارهم، على الرغم مِن يقيني بخوائها.

قاطعَه الشيخ محمود قائلًا:

– خُلق الإنسانُ ضعيفًا، فلا حولَ ولا قوّة إلا بالله، أدعو الله أن يثبّتك، ويهديهم، ولله آياتٌ يهدي بها من يشاء.

أذّن لصلاة الظهر، فقال الشيخ محمود:

– حيَّ على الصلاة، أستأذنك يا أخي، ولا تنسَ أنْ تلتقي معهم فيما يجمعُكم؛ فالعلاقات الإنسانية تُذيب الحجر.

لم يكنْ قول الشيخ محمود غريبًا عن حسين، فهو يقدّر قيمةَ العلاقات الإنسانية وأهمّيتها، بل إنه كان ينصح أصحابَ المِحن والمَصائب بإثرائها وإحيائها لدرْء نزغ الشيطان بين الناس، ولكنْ أحيانًا ما تغيبُ عن ذهن المرءِ معلومةٌ بديهية وهو في أمسّ الحاجة إليها؛ لكثرة ما ألَمَّ به، وهو ما حدث لحسين، فجاء دور صديقِه يذكّره ويرشده.

اتّجه إلى المطبخ المكشوف، وأعدَّ قهوته وأخذَ يقلّب كلام الشيخ محمود في ذهنِه كتقليبِه القهوة، حتى سمعَ عبد الوهاب يقول له:

– هل لك طلبات؟ فإني ذاهبٌ للتسوُّق.

قال حسين، واضعًا كلامَ الشيخ محمود نصبَ عيْنيه:

– هل لديكَ مانع في أنْ أصحبك في مشوارك هذا؟

قال عبدُ الوهاب مُرحبًّا:

– لا مانعَ عندي.

ركبَ معه سيارته الفولكس القديمة، وهُما في طريق الساحل الشمالي، قال عبد الوهاب:

– لدينا قائمة طلباتٍ عريضة اليوم، منها شراءُ لوازم الإفطار، كم أتوقُ إلى أكلِ الفطير المشلتت.

قال حسين ضاحكًا:

– لقد ظننت أنَّ الحامل هي ففيان.

فهِمَ عبد الوهاب مزاحَه بعد برهةٍ وجيزة، فضحكَ قائلًا:

– صدقت، فأنا حاملٌ بالفعل، ولكني أحملُ همومًا جاوزتُ بها شهري التاسع بعد العشر.

ظلّا يضحكان ويتبادَلان النّكات حتى وصلا إلى السّوق، أوقف عبدالوهاب سيارته، ثمّ مشيا على الأقدام متّجهين إلى محلّ الفطائر، سأله حسين وهما يسيران:

– لماذا تصرُّ على أن تحضر طلباتِ المجموعة يوميًّا؟

– سعادتي في خدمةِ رفاقي، ألمْ تقل لي إنّ خيرَ الناس أنفعهم للناس؟

– هذا كلامُ حبيبنا رسول الله.

ابتسمَ عبد الوهاب قائلًا:

– كان حكيمًا.

– كان خاتمَ الأنبياء ورحمةً للعالمين.

تردّد عبد الوهاب في طرح سؤال، ولكنّه قرّر عدمَ البوح به حتى لا يخوض جدالًا غير مُجْدٍ، أحسَّ حسين بسؤالِه الحائر؛ فقال:

– أرى سؤالًا في عينيك، فما هو؟

أخذَ نفسًا عميقًا، ثمّ قال:

– حسين، كيف يكون رسولُكم رحمةً للعالمين، وقد بدأ إرهابُ الفكر منذ عهده؟ العصر الذي سبق الإسلامَ لم يكن عصرًا جاهليًّا كما روَّجتم، وإنّما تمتعت فيه قبائلُ شبه الجزيرة بقدرٍ كبير من السلام وقبول الآخر على الرغم من تعدّد معتقداتهم، بل وآلهتهم، ولكنْ عصر الجاهلية جاء مع رسولكم حين فتكَ بآلهتهم وهدمَ أصنامهم بعد فتح مكة، فأرسى قانونَ التعصب للدّين الواحد، والإله الواحد، وعدم تقبّل الآخر.

قاطعه قائلا:

– (لا إكراهَ في الدين)، (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً..)، (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا)، هذا كلام الله لنبيِّه، فهل يوحي بأيّ تعصُّب؟

هزَّ عبد الوهاب كتفيه، ولوى شفتيه غير مبالٍ، فهو لا يهتمّ كثيرًا بإجابة السؤال، أو حتى التفكير فيه، فقال حسين:

– على كلٍّ، لا جدوى من الخوض في نقاش عن دين أنتَ كافرٌ به، ولكنّ ادعاءَك بأنّ الجاهلية جاءت مع الإسلام، وأنَّ العصر الذي سبقه كان أكثرَ تحضُّرًا وتقبُّلًا للآخر؛ لا يستندُ على دليل أو منطق، فإذا كان الأمر كذلك؛ فلِمَ عادَى أولئك المتحضّرون الإسلامَ، وعذّبوا أتباعه أشدّ العذاب؟! ثمّ كيف تعتبر عصرَ وأدِ البنات على أيدِي آبائهن، وحروبًا طائلة دقّت طبولها قبائل بدائية ثأرًا أو سطوًا أو عصبية قبليَّة، إلى آخره من دوافع؛ أقوم مِن عصر ميلادِ دين حوَّل تلك القبائل المتفرّقة المتناحرة إلى صنَّاع حضارة أنارتْ للعالم كلّه؟!

نظرَ إليه ينتظرُ جوابًا، فوجدَه شاردًا، وأحسّ برغبته في إنْهاء الحديث عندَ هذا الحدّ، فلم يُعَقِّب حتّى وصلا إلى محلّ الفطائر، ثمّ طلبَ عبدُ الوهاب ما يتوافقُ مع رغبةِ كلّ فردٍ مِن المجموعة. وبعدَ بُرهة، سأله حسين وهُما في انتظارِ طلباتِهم:

– قل لي.. مَن أحبُّ الناس إليك؟

ملأت صورةُ زوجته عينيه وهو يقول:

– زوجتي مها، أفتقدُها بشدَّة.

قال حسين بحَماس:

– ولِمَ لا ترسل إليها هذا الكلامَ في رسالة؟

– لا جدوى، لقد فقدتُها إلى الأبد؛ بعدَ فَضيحتي.

– أكانت تحبّك؟

قال بعدَ أن أخرج نفسًا عميقًا:

– بل عشقتني.

ثمّ أخرج محموله من جيبه، وفتح ملفّ الصور، وأخذ يقلّب في الذكريات ويقول:

– انظرْ يا حسين إلى تلك الصورة، التقطناها في عيدِ زواجنا الأوّل، انظر فرحتَها وهي بين أحضاني.. أمّا هذه الصورة، فكانت بعدَ ولادة ابنِنا نور بيوميْن، كانت السعادة تظلّل علينا.

توقّف عن الكلام، ثمّ أجهش بالبكاء، قائلًا بكلمات مُتقطّعة، أدركها حسين بصعوبة:

– ولكنّها ضاعت مني حين صدَّقتْ تلفيقاتِ تلك الغانية وخوَّنتني، لقد هُدم البيتُ فوق رأسي ورأس المسكينة.

وضعَ حسين يدَه على كتفيه قائلًا:

– إذا كانت قد عشقتْكَ فستتفهّم حتمًا، فلا تيْئس، واكتبْ لها كلّ يوم رسالة، ولا تملّ من الدفاع عن نفسِك باستماتة، وسترُدُّ يومًا.

– هل حقًّا تظنُّ ذلك؟

أومأ برأسه مؤكّدًا، فمسحَ عبد الوهاب دمعَه، وارتسمت بسمةً صغيرة على شفتيْه وهو يرسلُ لزوجته رسالة تحتوي على مكْنون قلبه، ثمّ التفت إلى حسين قائلًا:

– وأنتَ يا حسين؟ هل لك زوجةٌ أو حبيبة؟

– بل خالٍ، والحمدُ لله.

قال مُبتسمًا:

– أظنّ أنّك لن تظلّ هكذا طويلًا، يبدو لي أنّ هناك استلطافًا بينك وبين مريم، نظراتُكما نمَّت عليْكما. ثم إنها اختارتْك أنت رغمَ اهتمامِ علاء بها.

انزعجَ مِن قوله، وكَسَا ملامحَ وجهه الانفعالُ والاضطراب، فمعركتُه لم تكنْ أبدًا على امرأة، وإنْ كانت مريم، وصبَّ حنقّه على لغةِ الأعين، بل لعَنَها، فكيف تكشف سرًّا أخفاه حتى عن نفسِه دون إذنٍ أو مشورة؟ هل حقًّا أحبَّها؟ وهل يمكن أن يعشقَ بهذه السرعة؟ كيف استطاعت عيناها أنْ توقظا قلبه، وقد ظلّ في سباته أعوامًا طوالًا على الرغم من اختلاطه الدّائم بكثيرات من النساء على اختلاف أعمارهنّ وأشكالهنّ وأنْماطهن!؟ فإحساسُه بمريم فاقَ كلّ حدّ وتصوّر. نظر إلى السماء يناجي ربَّه ويسأله.. يا مالكَ القلوب، كيف أهوى مَن أنكرتْك؟ وقلبي لا يدقّ إلّا بك؟!

أردفَ عبد الوهاب قائلًا:

– آسف يا حسين، يبدو أنّني قد أزعجتُك دونَ قصد، فلا تغضبْ مني.

ربتَ على كتفِه قائلًا:

- لا عليك.

***

جلستْ فيفيان بالقربِ مِن حمّام السباحة تستمتعُ بدفء شمْسِ الشتاء وجَمال الطبيعة، وكان في يدِها كتابٌ عن الحمْل والرّضاعة، لا تدري ما الذي حَمَلها على اقتنائه! فهي غير مُكترثة بقراءتِه؛ لأنّ جنينها غيرُ مرحّبٍ به، تمامًا مثل أمّه؛ فهي ابنةٌ لرجلٍ تلخّصت أغلى أمانيه في أنْ يكون له ولدٌ، فجاءتْ فيفيان الابنةُ الخامسة بعد أنْ أنْجبت له أمُّها أربعَ بنات، ولأنّها كانت أُقلّهن جَمالًا وحُضورًا؛ لمْ يهتمّ بها أحدٌ مِن أفراد العائلة أو المعارف، واشتدّت غربتُها بعد وفاة أمّها، فلم يُعينها عليها سوى مَن شعَرَ بوحْدتها، فانفردَ لسنوات بمنْحِها السعادة بمجرّد رؤيته وسماع صوتِه.

مدَّتْ بصرَها إلى الشاطئ، فلمحتْ عشقًا آخرَ يولَد، إذْ رأت فارس وناني يجريان بهمّةٍ ونشاط، تسبقُهُما ضحكاتُهما وكأنّهما مَلَكا الدنيا.. أخذا يعْدُوان حتى اخْتفيَا عنْ نظرها.

وقدْ حرص فارس على ألّا تأخذه خطواتُه بعيدًا عن ناني، فَجَرَيا جنبًا إلى جنبٍ يغنّيان تارةً ويتجاذبان أطرافَ الحديث تارةً أخرى.. وفجأة، هربتْ ضحكاتُ ناني مِن حلقها فوْرَ رؤية طائرٍ هالكٍ على الشاطئ، وذرفتْ دموعًا عزيزةً تُذَكّرها بيوم وفاةِ مخلوقٍ عزيز لديها.. تعلّقت به بشدّة، على الرّغم مِن كوْنه مِن الكلاب الضّالة التي تتردّد على شارعها، تذكّرته وهو ينبحُ ويهزّ

ذيله فرحةً لحظةَ وصولها من المدرسة كلّ يوم. وكانتْ تحنو عليه وتُعطيه من حقيبتها ما تبقّى من شطائر، جالَ بخَلدها كيف أحسّ بمعاناتها، فكانَ يقفُ أمام شُرفتها حينما كان يسمعُ صياحَ أبيها، ولا يبرحُ مكانَه حتى تخرجَ إلى الشرفة، ويتأكّد أنّها سكتتْ عن البكاء. وفي يوم عادت من المدرسة ولم تجدْه ينتظرُها كعادته، وعندما سألت عنْه حارسَ العقار؛ أخبرَها بأنّه قد أبعدَه مرارًا عن الشارع؛ بناءً على رغبةِ أبيها، ولكنّه كان يعود، فتمّ تصفيتُه كما طلبَ منه؛ لأنّه نجس، وينقضُ وضوءَه كلّما همَّ ليصلي في المسجد!

صاحتْ ناني بعدَ استحضارها بعضَ معاناة ماضيها وهي تنظرُ إلى الطّائر بذُعْر:

– لماذا يموتُ كلّ شيء جميل؟

قال فارس وقدْ تأثّر بدموعِها وملامحِها الواجمة:

– كلّنا نهلكُ يا ناني، فهذا أمرٌ طبيعي، ولذلك أبذلُ قصارى جهْدي كي تُخلّد أفكارُنا بعدَ هلاكنا حتّى تشرقَ شمسُ الحقّ والحرية على سماءِ أجيالٍ قادمة.

ابتسمتْ بينَ دموعِها، فأشعلتْ في قلب فارس شوقًا جارفًا إليها، فقبّل خدَّها! تغيَّرت ملامحُ ناني فجأة، ووضعتْ كفّها على خدّها تسأله:

– ماذا فعلتَ؟!!

– أجفّف دمعَك بشفتيَّ!

قالتْ باستنكار:

- ومَن أعطى لكَ هذا الحقّ؟!

- قلبي.

ودّت لو تنهَره، بل لو تصفَعُه على وجهِه كأيّ فتاة ذاتِ خلقٍ تجاوزَ غريبٌ حدودَه معها.. ولكنّها لم تفعل، بل فرحتْ بقُبْلته وترجّته، في قلبِها، لو يكرّرُها، وهي في دهشةٍ مِن أمْر نفسها.

***

توسّط حسين وعبد الوهاب جموعًا غفيرة في السّوق أمامَ محلّ المخبوزات والفطائر في انتظارِ إحضار طلباتِ المجموعة، وكان عبدُ الوهاب بين حينٍ وآخر يحدّثه عن زوجتِه وأبنائه، حتى لاحظَ رجلًا يُحاصر فتاةً في وسط الحشد، كادتْ عيناه تلتَهِمها، وهي تقفُ كنعْجَة مُرتجفة أمام صائدِها، وكلّما همَّت بالفرار يمينًا أو يسارًا لاحقَها وضيَّق عليها الحصار؛ فلا تستطيعُ الحِراك.. وأخيرًا، مدّ يدَه ليضعَها على جسدِها في وقاحةٍ فجّة، فأمسك عبدُالوهاب يدَه وهو يصيح:

- كفّ يدَك عنها يا رجل، وارْحلْ عنْ هنا.

استدارَ حسين بعينيْن مُتسائلتين، فقالَ عبد الوهاب ليعطيَه تفسيرًا لتصرّفاتِه صوبَ الغريب:

- لقدْ وجدتُه يتحرّش بتلك المسكينةِ يا حسين.

قال حسين للرّجلِ باستنكار:

– هلْ تحبّ أن يتحرّش غريبٌ بأخْتك؟

انتهزتِ الفتاةُ فرصةَ تدخّل حسين وعبد الوهاب، ولاذتْ بالفرار، أمّا الرّجلُ المتحرِّشُ فقال بتبَلّد:

– ليس لي إخوةٌ بنات.

– وهل سلوكُك يرضي ربَّك؟

– وهل ملابسُها تُرْضيه؟

صاحَ عبد الوهاب:

– وما شأْنُك بملابسِها؟!

أمّا حسين، فقال وهو يحرّك رأسَه باستنكار:

– يا أخي، لا تعلّق أخطاءك على أخطاءِ غيرك، فلا تزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى.

صاحَ الرّجلُ وهو يقبضُ بيديه على ذراع حسين وعبد الوهاب:

– يبدو مِن كلامِكما أنّكما مِن الإخوان.. أو إرهابيّان مِن داعش.

التفَّ حولَهما الحشدُ الغاضب، وبدأ كلٌّ منهم يُنَفِّس عن سخطِه مِن قسوةِ ظروفه المعيشيّة بالانقضاضِ عليْهما، فصاحَ عبد الوهاب ظنًّا منه أنّه يزيحُ التّهمة عنهما:

– لا يمكنُ أن نكونَ مِن الإخوان أو داعش، فاهدءوا واطمئنّوا، فأنا كافرٌ بالله!

فعَلَتِ اللّعناتُ والسّباب، ولم يخلّصْهما مِن بطش الناس إلّا صاحبُ محلّ الفطائر ومساعدوه، الذين شهِدوا أصل النزاع الذي نشب، مما دفعهم إلى الدفاع عنهما بجسارة وفضَّ الاشتباك.

وأثناء عودتهما، قال عبدُ الوهاب بحماس وهو يصلِحُ مِن مظهرِه بعدَ المُشاجرة:

– لن تصدّق أنّه لم يسؤني تصرّفُ العامّة الغوغاء بقدْرِ ما ساءني تصرّفُ ذلك الهمجيّ تجاه البنتِ المِسكينة.

أومأ حسين برأسِه، فاستطردَ عبدُ الوهاب:

– أرأيتَ يا حسين ما فعلَه الدينُ بأصحابِه؟! لقد تصوّر هذا المجرمُ أنْ لا غضاضةَ في التّحرّش بفتاةٍ ما دامتْ في زيّ غير إسلامي! فالدينُ يعطي ذريعةً لأتْباعه لاقترافِ كلّ ألوان الآثام والجرائم.

– هذا ليس عيبًا في الدين، ولكن في أتباع الدين.

رفعَ عبد الوهاب كفّه معترضًا وهو يقول:

– معذرةً حسين، ولكن ما تقوله متناقضٌ، فمِن المفترض أنّ أتْباع دينٍ بعينه يتبَعون دينَهم، وإلّا ما أطلقنا عليهم أتْباع ذلك الدين!

– كما ذكرتَ، اتِّباعهم لدينِهم مُفترض، ولكنّه مُغاير للحقيقة، رسالاتُ الله واحدة، تعاليمُها تتّسم بالخيْر والسَّماحة والرّحمة، ولكنّها النفسُ الأمَّارة

بالسوء، تلك التي تطوّع وتغيّر وتفسّر تعاليم الدين وفقًا لهواها، وقد تصلُ إلى حدّ إشْعال نارَ الفتنِ والحروب مِن أجل تعصُّب، أو هوًى أو مصالحَ خاصَّة.

قال عبدُ الوهاب ساخرًا:

– يبدو أنّ النفسَ الأمّارة بالسوء هذه هي التي دفعتْ مَن في السّوق ليصبّوا لعناتِهم علينا!

قال حسين ضاحكًا، وهو يكزُه وكزَةً خفيفة:

– بلْ لاقيْنا ما لقيْناه لبلاهةِ لِسانك. بالله عليك.. هل هناكَ عاقلٌ يقرّ أنّه كافرٌ بالله في وسطِ زحام سوقٍ شعْبي؟! فإذا بُليتم فاسْتَتروا.

***

امتثالًا لنصيحة الشيخ محمود، لم يكتفِ حسين بالخروج مع عبدِ الوهاب لشراء لوازم الإفطار للمجموعة ، بل قرّر الذهاب إلى الإسكندرية لشراء بعضِ الأغرَاض والهدايا لهم، وعندَ عودته إلى الساحل وجدَهم مُجتمعين في قاعةِ المعيشة الرئيسية يتابعون فيلمًا يُعرض في التلفاز، وكأنّهم على موعدٍ معه، فوضعَ حقائب المشتريات على أقربِ أريكة قائلًا بحماسِ الأطفال:

– انْظروا ماذا أحضرتُ لكم.

قالت مريم بفرحة، وهي تنظرُ إلى الحقائب:

– أحقًّا أحضرتَ لنا شيئًا معك؟

أومأ برأسه وهو يخرجُ إليها طاقةً من أجمل الورود قائلًا:

– لم أجدْ أجملَ من هذه لأقدّمها لكِ.

كادتْ تخطو على السّحب وهي تأخذها منه، ثمّ أخرجَ لوحة ألوان، وأهداها إلى ناني قائلًا:

– هذه لكِ.

قالتْ بفتور وهي تهزّ كتفيها باستنكار:

– ولكنَّه ليس عيدَ ميلادي.

ثمّ عادت تنظرُ إلى شاشة التلفاز، لم يأبَه بردّ فعلها الفاتر، بل أخرجَ كتابًا صغيرًا وأهداه إلى عبد الوهاب قائلًا بصوتٍ خفيض:

– وجدتُه مناسبًا لك، مُفعَم برسائل رومانسية، تستطيع أنْ تقتبس منها ما شئت.

أخذه شاكرًا، ثمّ أخرجَ لعلاء كتابًا آخر، واقترب منه قائلًا:

– جئتك بكتاب بعنوان "طغاةٌ غيَّروا وجه التاريخ"؛ لتتعرّف على مجازر العلمانيّين أمثال ستالين ولينين وهتلر وغيرهم، وتدرك أنّ هناك طغاة اقترفوا مجازرَ باسم نصرة الوطن أو إعلاء قيمة أو مبدأ؛ كتعلّل إرهابيي اليوم بالدين؛ فالأديان فِي جوهرها بريئةٌ من كلّ ما يعادي الإنسانية كبراءةِ الوطنِ والقيَم الراقية.

أخذَه علاء وألقاه على المائدة الموضوعة أمامه دونَ اكتراث، فلم ينظرْ إليه حسين، وأخرج طقمًا لحديثي الولادة، وقال وهو يقدّمه إلى فيفيان:

– هذا لكِ، فعندما تضَعينه على رضيعِك تذكّري جمعَنا هذا.

تلقَّته فيفيان بفرحةٍ مَمزوجة بدهشة، ثمّ أخرجَ حسين وشاحًا وقدَّمه إلى فارس قائلًا:

– أتمنَّى أن يروقَك.

وضعَه فارس على كتفيه، وقال:

– مقبولٌ منك، مع أني لا أرى داعيًا لذلك.

أخرجَ كتابًا وقدّمه إلى عمرو قائلًا:

– هذا كتابٌ عن إدارة الأموال؛ قدْ يفيدك.

رسم عمرو ابتسامةً باهتة على شفتيه قائلًا:

– لا أحبّ القراءة!

– ماذا تحبّ إذًا حتى أصيبَ المرة القادمة؟

قال عمرو ضاحكًا:

– لنْ يروقك ما أحبّ يا شيخ، فأنا أحبّ الأفلامَ الساخنة!

تفجَّرت من صدور كلٍّ مِن علاء ونانى وفارس ضحكاتٌ حادَّة الرنين، فحاول حسين يائسًا كظْمَ غيظه قائلًا بهدوء:

– تستطيع أنْ تشاهدَ الأفلام الساخنة تلك مجانًا إذا راقبتَ عنْ كثب كلابَ الشارع..

علتْ ضحكاتُهم جميعًا، فقاطعهم علاء بغلٍّ بعد أن نهض واقترب من حسين:

– نكتةٌ سخيفة من شيخٍ أخرق، ولا أرى داعيًا لهذا الدّور الذي يلعبه.

سأله حسين ببراءة:

– أيّ دور؟!

– دورُ الأب الذي يحنو على أولاده، ويغمرُهم بهداياه..

وضعَ حسين يدَه على كتفِ علاء قائلًا:

– ولِمَ لا تقول إنّه دورُ صديق يتودَّد إلى أصدقائه الجدد؟

أنزلَ علاء يدَ حسين بحدّة وهو يقول:

– لا شيء يجمعنا حتى نكون مِن أصدقائك، وإني لأرى وجودَك بيننا مثيرًا للريبة!

وقفتْ مريم أمامَ علاء وقد وضعت يدَها على خصرها وهي تقول بتحدٍّ وغضب:

– ما يثير حقًّا اشمئزازي وغثياني كرهُك غيرُ المبرَّر لحسين!

رمقَها علاء بنظرةِ عتابٍ ودهشة، ثمّ سألها بغلٍّ:

– دعمُك لهذا الشيخ غيرُ مفهوم، فماذا وراءَه؟

قالتْ ولمْ تبرح عينيها تلكَ النظرةُ الغاضبة:

– تقديرُ الناس وشكرُهم على هداياهم بدلًا من السخرية منهم، في اعتقادي، تصرُّف راقٍ، فلست مسئولة عمّا يَرِد في خاطرك مِن استنتاجات.

ثمّ مدّت ذراعيها لتأخذَ طاقة الورد، وضمّتها إليها وهي تقول:

– شكرًا يا حسين، لفتةٌ في غاية الرقّة منك.

شعرتْ فيفيان بالحرج، فشكرتْه، ثمّ تابعها عبدُ الوهاب، ولم يجدِ الآخرون بدًّا مِن أن يشكروه، وإن تفاوت تعبيرهم عن الامتنان.

***

ذهب إلى الشاطئ ليلقي همومَه إلى البحر كعادته منذ الوصول، فقد جثمَ على صدره من جديد شعورُه بضآلته وعجزه عن إتمام ما جاء من أجله، وعاوده فكرُه في التقهقر والرّحيل، فقلوبهم مغلقة بأقفال حديدية على كفْرهم، ولا معنى لبقائه، ثمّ تذكّر موقفها الشجاع، وقلبَها لموازين ردودِ أفعالهم، قد تكون ملاكًا أرسلها الله له ليدعمَه، ولكنْ هل يمكن لملاكٍ أن ينكرَ ربّه؟! مَن تكون إذًا؟ لم يفقْ إلّا على لمسة يدِها على كتفِه فاستدار، فوجدَها زهرةً تحملُ أزهارها، قالت:

– حسين، أردتُ أنْ أطمئنَّ عليك.

– أنا بخير يا مريم، اطمئنّي.

جلستْ بجانبه، فأردف قائلًا:

– أشكرُكِ على..

قاطعتْه وهي تضع يدَها على فمه:

– لا شكر بيننا.

خفقَ قلبُه وهو ينظرُ في عينيها، ولم يتخلّل الهدوء الذي حاوطهما سوى أنفاسهما المشتاقة، وصوت البحر، حتى قالت وهي تنظرُ إلى طاقة الوردِ التي حملتها:

– لماذا خصصْتني بالورد؟

ماذا عساه أنْ يقول؟ أيقول لأنّ الجَمال عنوانُها كالورود، أمْ لأنّ شذى عطرها ملأ كيانَه كعبير الأزهار في الرّبيع، أو لأنّه وجد نفسَه مدفوعًا إلى ذلك دون تعقّل أو تدبير؟ لم يجدْ ردًّا مناسبًا؛ فلاذَ بالصّمت، فأردفتْ قائلة بفضولٍ شديد:

– أكانَ جاهزًا بهذا التّنسيق الرائع؟

– بل أنا الذي اخترت كلّ زهرة في الطاقة، وقمتُ بتنسيقها بنفسي.

دَمعتْ عيناها وهي تقول:

– ما أروعَك!

همسَ قائلًا:

– يتجلّى الجَمال إذا كان مَقصودًا..

– ماذا تعني؟

– لقد تأثرتِ لطاقة منْ ورد أعددتُها خصيصًا لكِ، فما بالك بهذه الطبيعةِ الساحرة التي أعدَّها الخالق مِن أجلنا!؟

أخرجتْ زفيرًا عميقًا وهي تقول:

– أحسدُك على يقينك، كم أتمنَّى أن أكونَ مثلك.

قال بحماس:

- ادعيه يا مريم.

قالت بيأسٍ وهي تهمّ بالرحيل:

- ولكنه لا يسمعُ دعائي.

هرولَت من أمامِه باكية، واشتعلت معركةٌ أخرى خاضها مع نفسِه، لا بدّ أن يوقف زحفَ هواها إلى قلبه، فلا سبيل لحبيبةٍ أنكرتْ خالقها. تركته وحيدًا يصارعُ يأسه في ظلام، هل مات كلّ بصيصِ أملٍ لهداهم؟

الفصلُ الخامِس

جدالٌ يشتدّ

سَرعان ما بدّد شروق يوم جديد قنوطًا سكنَ قلبَه كما بدّد ظلام ليله، فقرّر أن يعاود معهم الكَرّة، ولا يبتئس، وتعجّب من أملِه المتجدّد، مِن أين يتدفّق؟ وكيف لا ينضبُ على الرغم من هزائمِه المتكرِّرة؟ وقفَ في الصباح الباكر يراقبُ علاء وفارس وهُما يلعبان ضدّ عبد الوهاب وعمرو العلايلي لعبةَ الكُرة الطائرةِ على الشاطئ، وكانت كلٌّ مِن مريم وناني وفيفيان يجلسنَ على الرمال الذهبية، يراقبنَ اللّعب باهْتمام، وكان علاء أقلّهم استحواذًا على الكُرة، وكلّما أضاعها؛ افترشَ الأرض متعللًا بسقوطه، ممّا أثارَ ضحكات الفتيات، فقال مغيظًا وهو ينظرُ إلى حسين حتى يغيِّر مسارَ ضحكاتهنّ:

– أفْتنا يا شيخ في هذه اللّعبة، أحلالٌ هي أمْ حرام؟

صاحَ حسين:

– اللعبة حلال.

ثم أردف ضاحكًا:

– ولكن لعبُك بهذه الطريقةِ حرام.

ضحكَ الجميع، ثمّ استطردَ حسين قائلًا وهو يشير بيديْه إلى علاء لينْسحب:

– اخرجْ وسألقّنك كيف يكونُ اللعب.

قال فارس برجاء:

– اخرجْ يا علاء، حتى لا تضيّعنا.

كادتْ تنقطع أنفاسُه من التعب وهو يلقي جسدَه على الأرض بعد أنْ خرج من اللّعبة، وبعد أن هدأت أنفاسُه جذب عدستَه، وبدأ كعادته يلتقط لهم صورًا، أمّا حسين فأخذ الكرةَ برشاقة وغيَّر دفّة اللّعب لصالح فريقه، كانت ناني تراقبُ اللعبة وقد بدا عليها قلقٌ حاولت ألّا تبْديه، فقد ساءها أن ترى حسين يشقّ طريقه إلى قلوبِ أصحابها، وهي لم تطمئنّ إليه بعد، فقالت بصوتٍ ظنّت أنه غيرُ مسموع:

– ما وراءكَ أيها الشيخ؟!

فسألتْها مريم عندما أحسَّت بنفورها نحْوه:

– لماذا تكرَهينه يا ناني؟ إنه لم يؤذِك في شيء.

– تقصدين حسين؟ إنّه يثير ارْتيابي وقلقي، ما الذي زجَّه بيننا؟ بعدتْ أفكارُنا وأفكارُه بُعد ما بين المشرق والمغرب، فمَن دسّه بيننا؟ ولمصلحة مَن؟

قالتْ مريم بهدوء:

– لِمَ كلّ هذا الانزعاج والخوف؟ لو أنه تمّ زجّه بيننا كما تظنّين، لما كشفَ لنا عنَ هويّته بهذه الصّراحة. فهو لم يخفِ عنّا شيئًا، فقد صرّح لنا باسْمه واسْم جريدته ومقالاته، ولقد تتبّعت قلمه على محمولي، فوجدتُه في غاية الحِكمَة والمروءة والرّزانة في ردودِه على قرّائه.

أخذتْ ناني تقلّب دفاع مريم- الذي بدا لها منطقيًّا- في ذهنها، واسْتراحت عندما أخذت تقرأ على محْمولها بعضَ رسائل قرّائه وردّه عليهم، لم تكن تتوقّع سلاستَه وبُعدَ نظره وفكرَه الحُرَّ في تناول كثير من القضايا، فهو أبعدُ ما يكون عن ذلك القالَب الديني المتحجّر الذي عانتْ منه أيامها الأولى. وبعد برهةٍ من الزمن، قالتْ لمريم:

- يبدو أنّ معك حقًّا، فهو يبدو نزيهًا، ولكنْ أنعطيه الأمانَ كليّة في وجودِ هذا الاختلاف بيننا؟

ردَّت مريمُ بحماس:

- ولِمَ لا! فأنا لم أرَ أصيلًا مثلَه في حياتي.

قاطعتْها ناني بدهشةٍ قائلة:

- تتحدّثين كأنّك حفيّة به، ما كلّ هذا الحماس الذي تتكلمين به عنْه يا مريم؟!

- ليس مجرّد حماسٍ يا ناني، فلا أعرف اسمًا لما أنا فيه، ولا أدري سرَّ انْجذابي إليه.

احترمتْ ناني صراحةَ مريم وقدَّرتها، فهي أيضًا عشقتْ على حين غرّة، ولكنها عشقتْ مَن يتواءم معها في الفكْر والأسلوب، أمّا مريم المسكينة، فتستحقّ الشفقة لسوء اخْتيارها، ولم تفقْ من أفكارها إلّا على صياح حبيبها يسألها الانضمامَ إليهم في اللّعبة، جرَّت معها مريم، وظلّ الجميع ساعاتٍ وساعات على الشاطئ يلعبون ويضْحكون حتى جنَّ الليل.

***

وفي المساء، جلس حسين تحتَ مظلّة الزهور يسبّح الله في أوركسترا بديع يتكوّن فنّانوه من الطبيعة، ولكن لم تستمرّ طويلًا تلك السّكينة؛ فبدَّدها صوتٌ موسيقى (الهارد روك) القادم من الشاليه، واخترقت سمعَه فأزْعجته، وكان يتخلّلها ضحكاتُ الفتيات بين حينٍ وآخر، فأخبرته باجتماعهنّ في حجرة المعيشة الرئيسية بالدّور الأرضي. وفجأة، تبدّلت ضحكاتُهن بصياح، دخل مسرعًا على إثْره، فإذا بفيفيان تجري خلفه، وناني ومريم تقفزان نحْوه وتتشبّثان بذراعيه في ذعرٍ شديد. صرختْ ناني:

– فأر.. اقْتله يا حسين.

قال بدهْشة:

– ظننْته ديناصورًا من ردّ فعلكنّ.

دخل علاء مِن الحديقة الخلفية ومعه فأسٌ كبيرة، وأخذ يطاردُ الفأر باستخفافٍ وهو يقول:

– اتركوه لي..

أمّا حسين، فحرَّر ذراعيْه منهما، وأخذ يحلّق على الفأر بمكنسةٍ أحضرها مِن المطبخ المكشوف حتى قتلَه، ثم دخل كل من عمرو وفارس وعبدالوهاب إلى القاعة على إثْر سماع صياح الفتيات. جلسَ الجميع في القاعةِ الرئيسية، بعد أن تنفّسوا الصعداء، ثمّ قالت ناني:

– لا أدري لِمَ تعيشُ تلك الكائنات البشِعَة على الأرض!

قاطعَها فارس قائلًا بحماس:

– نظرية دارون أعطتْ لنا سببًا وجيهًا لوجودها، بعكس نظريةِ وجود الإله التي أخفقتْ في تبرير خلقها!

قالتْ ناني، وقد شعرت أنها وضعت يدها على الحجة التي تدمغ عقيدة حسين وأمثاله:

– صدقت، فإذا كان الله إلهَ خير، فلِمَ يخلق هذه الجرْذان؟

قال علاء وهو يومئ برأسِه مشيرًا إلى حسين:

– لتقفز الجميلاتُ في حضنِ المؤمنين.

ردَّ حسين مُبتسمًا لينقلبَ السِّحر على الساحر:

– يبدو أنّك مَن أحضرت الفأر لغرضٍ في نفسك، أتمنّى لك حظًّا سعيدًا في المرَّة القادمة!

لم يتصوّر أحدٌ تعليقَه، فعلَتِ الضحكاتُ حتى البكاء، وعندما هدءوا استطردَ:

– مبدئيًّا، كوْنُنا مُتوازن، فكلّ شيء خلقه اللهُ له دورٌ وإنْ أغفَلناه.

قالتْ ناني باشْمئزاز:

– وما دورُ الفأرَ والبؤس، والشقاء، والمرض، والفقر؟!

وسأل عمرو بحدّة:

– ولماذا يفرّق إلهُك بيْن مخلوقاته، فنجدُ مَن ينعمُ بثروةٍ وصحّة وسُلطة، ومَن يعاني مِن فقرٍ وعجزٍ ومرض؟ فغيابُ العدل دليلٌ على غيابِ الله.

قال حسين بحماس:

– إذا كان الله غائبًا كما تدّعي، فمَن بثّ فيك توْقَكَ للعدْل؟

نظرَ إليه عمرو نظرةً ماكرةً قائلًا:

– تراوغُنَا يا حسين، ولم تجبْ عن سؤالِنا.

زفرَ حسين نفسًا عميقًا، ثمّ قال بحماس:

– حسنًا، وُجدت المحنُ لتُخرج معادنَ الناس، ولتذَكّرنا بأنّنا لسْنا في الجنّة كما أردتها حينَ اخترتَ لنا ذلك الشّاليه الرائع لنسكنَ فيه، فالدّنيا، جُملةً وتفصيلًا، دارُ ابْتلاء.

سأل عبدُ الوهاب بأسًى:

– ولِمَ الابتلاء؟ لماذا لم يخلقْنا الله في الجنة؟

– ربّما لأنه أرادَ تكريمنا بدخولنا الجنة بأعمالنا، وعلى كلٍّ.. هذه إرادة الله.

قال فارس بضيق وسخرية:

– إرادة الله.. كلّما عجزتم عن تفسيرِ شيء، أرجعتموه إلى الله وإرادته.

– لِمَ لا نعترفُ بمحدوديّتنا وقصورنا؟ وعلى كلٍّ، فإرادةُ الله جليّة واضحةٌ فيما نفسّره، وفيما نعجزُ عن تفسيره.

صاحَ علاء وهو يهمّ بالوقوف:

– نحنُ لسنا بحاجة إلى إلهِك، والحديث عنه.

نهضَ حسين قائلًا بانفعال:

– بل تحتاجُ إلى الله كلّ لحظة، وإن ظننت غيرَ ذلك.

قالَ فارس معترضًا دونَ أن يبرحَ مكانه:

– مَن أعطاك الحقّ في أن تفترض ما يفتقرُ إليه علاء، وما يظنّه؟ وما حجّتُك التي بنيت عليها ادعاءَك؟ ألا تَرى يا حسين أنّك تعدَّيت محدوديَّتك التي حدثتنا عنها منذُ قليل؟ فهو غيْرك، منفصلٌ عنك، فلا يسعك اختراقَه لتعرف ظنَّه واحتياجه إلّا إذا باحَ لك بهما.

التزم الصمْت، فلم يعدْ يعرف هل آثرَ السكوتَ ليأسِه من جدالهم، أو لإرهاقِه آخرَ اليوم، أو لعجزه عن تقديم حجّة تدمَغُ قول فارس، وتثبتُ احتياجهم إلى الواحدِ القهار كلّ لحظة. صاح علاء وهو ينظرُ بتحدٍّ إلى حسين:

– أراكَ لا تجدُ إجابة مناسبة، دليلٌ آخر على سذاجةِ عقيدتك، ولو أن إلهَك موجودٌ حقًّا لأمدَّك بردٍّ قاطع، ولكنّه تركَك كما ترك العالم.

وكعادةِ علاء، كان تأثيرُه عليهم جليًّا في نبرةِ صوته، ومفرداته، ولغة جسدِه التي تنبعثُ مع حركاته، إذْ تركَه الباقون واحدًا تلو الآخر، حتى مريم تبعَت فيفيان وناني، وصعدتْ معهما إلى الطابق العلوي بقلبٍ خافق، أمّا هو فلم يستطعْ حبسَ دمعة احتجّت على جحودِهم وهزيمتِه، قائلًا في نفسه: "وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيء جدلا". صدق الله العظيم.

كان عبد الوهاب قد افترشَ الأرض تأهّبًا للنوم حين لاحظَ اغروراق عينيه فقال:

- أتبكي؟!

التفتَ إليه، وقال وهو يجفّف دمعَه:

- لا أبكي منْكم، ولكنْ أبكي عليكم.

ربتَ عليه عبد الوهاب قائلًا:

- هوّن عليك يا حسين، فلا أحد منّا يملك الحقيقة.

***

استيقظتْ فيفيان باكرًا، فقدْ عانت مِن عُسْر هضم وبعضِ تقلّصاتٍ خفيفة في رحِمِها طوالَ الليل. وكعادتها، لم تُشعِرْ أحدًا بمعاناتها. وضعتْ عليها وشاحًا ثقيلًا، ونزلتْ إلى الطابقِ الأرضيّ لتَتَناول كوبًا مِن اللّبن الدافئ كما اعْتادتْ كلَّ صباح مُنذ بداية حَمْلها. كان الشاليهُ ساكنًا، فكلُّ أعضاءِ (كفَرْنا بالعْيشة) في سُباتهم نائمون، مشتْ على المَمْشى المغطّى بالأزهار حتّى وصلتْ إلى الشاطئ، ونظرتْ إلى أمواج البحرِ المُتَتابعة، وجَالَ بخاطرها فكرةٌ عجيبة، فلماذا لا تُلقي بنفْسِها بيْنَ الأمْواج، وتنهي عذابًا لم يفارقْها منذُ مَوْلدها؟! تذكّرتْ أنّه قد جالَ بخاطرها الهاجسُ نفسُه منذُ سنين في احتفالِ عيدِ مِيلاد جارةٍ لها، وكانتْ في شُرفتها بالدّور الثلاثين بأبراجٍ شاهقةٍ بالمعادي، حدّثتْها نفسُها بأنّها ستكون مجرّد قفزة، يصاحبُها

شهقَةٌ، وينتهي كلُّ شيء، ولنْ يكون هناك مَن يَحزنُ عليها أو يُبالي بموْتِها، ولكنّها تردّدت حين نظرتْ إلى أسْفل، وأشفقَتْ على نفسِها مِن السّقوط مِن هذا الارْتفاع الهائل.. وأثناءَ نُشوبِ هذا النّزاع في نفسِها، سمعتْ صوتَ ابنِ جارتها قادمًا مِن ورائها.. كانت تشعرُ بسكينةٍ في وجوده؛ لعطْفِه عليها منذُ صِغرها، ولكنْ في هذا اليوم، تبدّلت السّكينةُ وحلّ محلّها اضطرابٌ وقلقٌ جرَّاء عشقٍ رائع وُلِدَ حينَ قال لها بأجْملِ ابتسامة:

– لماذا تصرّين على الاخْتلاء بنفسِك يا فيفيان، فتحْرمينَا وجودَك معنا؟ إننا نفْتقدُك بشدّة، هيّا انضمّي إلى مجلسنا.

قالتْ فيفيان في دهْشة:

– هل حقًّا أن هناك مَن يفتقدُ وجودي؟

قال وما زالتِ ابتسامتُه تضيء وجهَه:

– بالطّبع، وأنا أوّلُهم.

سكنَ ريمون قلبَها، ولم يبْرَحه منذُ ذلك الحين، فكلّما شاهدتْ فيلمًا رومانسيًّا، أو قرأتْ قصّةَ حبّ، تصوّرته بطلَ الرّواية بكلّ ما فيه مِن رجولةٍ وجاذبيّةٍ وجَمال. شعرتْ بيدِ مريم في ذلك الوقتِ على كتفِها؛ لتعيدها إلى واقعها في لحظة وهي تقول:

– فيفيان، لقد أثرْتِ قلقي عليكِ حين وجدتُكِ وقد برحتِ فراشَك باكرًا، هل أنتِ بخير؟

شعرتْ فيفيان بامْتنانٍ لاهْتمامها بها، فتلكَ الرقيقةُ الحانية تُشعرُها منذُ أنْ وطأت قدماها هذا المكان بأنّ الشرّ وإنْ بدا كاسحًا؛ فالخيرُ يطفو فوقَ سطحِه أحيانًا. ابتسمتْ بوداعةٍ وهي تقول:

– لا تقلقي يا مريم، لقدْ جفاني النومُ لمتاعب الحمل وأنا في شهري السابع، ففضَّلْت المكثَ أمامَ الشاطئ.

في هذه الأثناء، سمعتِ الفتاتان صراخَ ناني، وعندما وجَّهتا رأسَيهما لمصدَرِ الصّوت، وجدتا "فارس" يحملُ ناني، ويجري بها سريعًا إلى الشاطئ، حتّى دخلَ بها بين الأمواج، ظلّت تدفعُه، وهي تحرّك قدميْها وذراعيْها بسرعة؛ لتحاولَ الفِكاكَ منْه دونَ جدْوى، ثمّ تحوَّل صراخُها إلى ضحكٍ مُجَلجلٍ.. أخذتِ الفتاتانِ تراقبانِهما في ذُهول، حتّى قالتْ فيفيان باسْتنكار:

– إنّه مُتهوّر أخْرق، يخطفُها فجأةً بهذه الجُرأة في هذا البَرد، وبملابسَ غير ملابسِ البحر؟!

همستْ مريم مع خروجِ زفيرٍ عميق مِن بيْن ضلوعِها:

– ولكنّها تبدو سعيدةً يا فيفيان.

استكانتْ ناني بينَ ذراعِ فارس في وسطِ البحر، رغمَ الصّقيع الذي حاطَهما، ثمّ قالت:

– لم أكنْ أعلمُ أنّك مجنون.

– أنا مجنونٌ بكِ حبيبتي، فلا تلوميني، ولومي عينيْكِ.

هكذا اسْتطاعَ فارس أن يقدّم لها عذرًا دامغًا عن فِعْله الطائش، ولكنّه لم يستطعْ أنْ يقلّل مِن حدّة البرد، فقالت:

– لا اقوى على البَرْد يا فارس، أرجوك، هيّا نخْرُج.

جذبَها إليه وهو يقول:

– ستتغلّبينَ على البردِ في حضنِ حبيبك.

لم يتغلّبا عليه كما ادّعى فارس، ولمْ يلبثا حتّى شعَرَا بعضّةِ الصّقيع تأكلُ أطرافَهما، فهمَّا بالخروج، وجرتْ مريم لتُناولُهما منْشَفتيْن، يتَّقيان بها لسْعةَ الرياح أثناءَ الخروج.

ولمْ يمضِ وقتٌ طويل حتّى عادوا إلى الشاطئ، بعد أنْ غيّر فارس وناني ملابسهما، فوجَدوا بقيّة المجموعةِ وقدِ اسْتيقظوا، وأخذَ كلٌّ واحدٍ منهم مجلسَه. كانوا جميعًا في دهشَةٍ مِن أمر فارس الذي قرّر فجأةً في هذا الصّقيع أن يسبحَ بحبيبتِه رغمًا عنها، قال عمرو مازحًا:

– استيقظتُ على صياح ناني المسكينة وهي تستجير من فارس، فهرعتُ أشاهد ما يحدث من نافذتي، وجدته يسبح بهمَّة ويسحبها معه إلى الأعمق، دون أن يبالي الصقيع وعلو الموج، ولو استمر في السباحة لدقائق أخرى لخرجتْ منه زعانف وخياشيم كالسمك.

ردَّ فارس ضاحكًا وفي يدِه كوبٌ مِن الشاي السّاخن:

– أتأقلم على أي بيئة، فالبقاء للأصلح.

قال علاء متظاهرًا بتعاطفه مع حسين:

– لا داعي لذكر نظرية التطور ولو على سبيل المزاح، فهذا الأمر قد يؤذي حسين.

سأل حسين بدهشة:

– ولِمَ يؤذيني؟!

رد بلؤم:

– لأن النظرية تدحض عقيدتك.

ردَّ حسين بهدوء:

– نظرية داروين إنْ صحَّت لا تعارض وجودَ إله.

قال فارس مستنكرًا:

– إن صحت؟!

– نعم لأنه حتى الآن لم يتفق عليها العلماء.

تبدّلت ملامحُ فارس، وقطّب جبينَه، وجحظتْ عيناه من شدّة الغيظ قائلًا وهو يضعُ كوبَ الشّاي بانفعالٍ فوقَ طاولةٍ صغيرة بجانبه:

– نظرية دارون صحيحة، لأنها نظريةٌ علمية، وفي الأيام القادمة، سيكشف لنا العلمُ مزيدًا من براهينَ تؤكّد صحة النظريةِ وثبوتها.

قاطعه قائلا:

– وقد يدحض العلم النظرية مستقبلا، فهناكَ نظرياتٌ علمية بدتْ صائبة لقرون، ثمّ سقطت مثل نظريةِ دوران الكواكب حول الأرض.

قال فارس، وقد علتْ نبرةُ صوته قليلًا، ولم تسكتْ عنه حالةُ الغضب، فالهجوم في بعض الأحيان خيرُ وسيلةٍ للدفاع:

– ما أغبى عقيدتك!! تجادلنا في وجودِ إله وملائكة وجنّ وشياطين، وتُنكر النظريات العلمية!

تساءل حسين في نفسه، لماذا يغضب فارس كل هذا الغضب وهما يتناقشان حول مصداقية نظرية علمية؟ ولكنه واصَلَ جداله بهدوء:

– أي العقيدتيْن أرشد؟! الإيمانُ بأن الحياة وُجدت بتفاعلٍ كيميائي أعمَى منذُ ملايين السنين، وأنّ جسد الحي لا يسكنه نفسٌ فيتساوى بالميت، وأنّ الحب والجَمال خُلقا دونَ عمدٍ، أم الإيمانُ بوجود إله حكيمٍ أوْجَدنا، وأخبرنا بغيبٍ لا نستطيع إدراكَه لمحدوديَّة عقولِنا وحواسنا؟

لم يجب عليه أحد ، فقد سئموا جداله، وبدءوا ينْسَحبون مِن حوله، ما عدا مريم، التي أخذت تفكر مليًّا في كيفية التخفيف عنه، فقد ساءها رؤية ملامح الإحباط على وجهه، وقد شعر حسين أنْ لا فائدةَ من أيّ جدالٍ معهم مهْما اشتدّ وطال؛ فكلُّ فريقٍ منهما لا يسمعُ الآخر، وكأنّهم مجموعةٌ مِن الصّمّ يتحدّثون، وبدا له أنّ مهمتَه في غايةِ الصعوبة، بل كادتْ مُسْتحيلة في ظلّ سقوط أهمّ سلاح لديه.. سلاح المَنْطق، قالتْ مريم بابتسامةٍ هادئة:

– إلى أينَ أخذتْكَ أفكارُك؟

يا لَها مِن فتاةٍ في غايةِ الرّوعة! هذا ما قالَه في نفسه، فعلى الرّغْم من اختلافِ أيديولوجيّاتِهما، فموقفُها ثابتٌ تجاهَه، فهي تؤازرُه تحتَ أيّ ضغوط، وهي ملاذُهُ الآمنُ إذا ما اشتدّ عليه الهجوم، قالَ بامْتِنان:

- تدْعمينني وكأنّكِ مائة رجل.

قالتْ باستنكار:

- رجل؟!!

- أقصدُ في مُساندتِك لي.

نظرتْ في عينيه، وهي تستجْديهِ- في نفسِها- أنْ يثني على أنوثتِها بدلًا مِن رُجولتها.. شعرَ باختراقها إيّاه، وكلّ يوم يزدادُ ضعفًا وحنينًا إليها، إلى أينَ هو ذاهب؟ وإلى أيّ مُنعطفٍ تأخذُه؟! لم يعدْ يقوَى على الابتعاد عنها، فلم يبرحْ مكانَه، وظلّ ساكنًا، وتركَ عينيْه تتحدّثان إلى عينيْها، حتى سمعا صوتَ عبد الوهاب يناديه ليذهبَ معه إلى السّوق.

***

توالتْ أيامٌ لم تخلُ مِن نقاشٍ غير مثمر، ولكنّها اتسمت أيضًا باللّعب والمرح والضحك، فقد أرادَ بها فارس أن يتقاربَ أفرادُ مجموعتِه كأسرة واحدة؛ ليقرُّوا على اتّفاق يرضونه جميعًا مهما بلغَ من صعوبة، أو شقَّ على الأنفس تنفيذُه.

***

وفي مساءِ ذات ليلة، بزغ القمرُ ليلقي بنوره لونًا فضيًّا على سطح البحر، فشجَّع حسين على التريّض على شاطئه، بعد أنْ وضع سمَّاعتي جهاز (الإم بي ثري) على أذنيْه، كان منتشيًا بمشهدٍ بديع ملأ منه عينيه، وموسيقى رومانسية حالمة أيقظتْ سمعَه، وكان لتقرّبه من أعضاءِ جروب (كفرْنا بالعيشة)، أثناءَ اللّعب طول اليوم، بالغُ الأثر في نفسِه، رمَى بصره بعيدًا، فوجدَ خيالَها يقترب، وقد هفهَفَ عليها فستانُها وشعرُها الناعم، وكأنها جاءت ليكتملَ بها الجَمال في عينيه، وبعد قليلٍ بدأت تنفذُ إلى أنفه رائحة طعامٍ زكية، وإذْ بها تحمل صحنًا به شطيرتان، قالَت عند وصولها إليه:

– لقد أحضرَ عبد الوهاب بعضَ الشطائر الطازجة، خشيت أن ينقضُّوا عليها كالجراد، ولا تجد نصيبًا، فأحضرت لك بعضًا منها.

أخذَ منها الصحن، وقد لفتَ انتباهه تعبيرُ الجراد الذي قالته، فضحكَ وهو يسأل:

– كالجراد؟!

بهتتْ لِما صدر منها عفويًّا، فهي لم تكنْ ترغب في التقليل من شأن أصدقائها، ولكن قصدتْ وصفَ حالة، فقالتْ بارتباك:

– لم أقصد..

هل تعلمينَ أنّكِ تملكين أجملَ عينين في الوجود؟ قالها في سرِّه في هذه اللحظة، وودَّ لو ينطق بها، ولكنَّه أمسك لسانَه وكأنّه يمسك لجامَ فرسٍ عنيد يريدُ أن يجمحَ بعيدًا، وقال بعد أنْ تنحنح ليفسحَ الطريق لكلماته:

– أشكرك على اهتمامك.

رمقتْه بنظرةِ عتابٍ قائلة:

– هل نسيت ألّا شكر بيننا؟!

نظرَ في عينيها العميقتيْن، وأرادَ أن يسألها: إذًا.. أخبريني، ما الذي بيننا؟ شعرَ بارتباكها حين حاطَها بنظراته، فأدارَ وجهه عنها كي يمنحها السكينة، وقدَّم لها إحدى الشطيرتيْن، قائلًا:

– لنْ آكل وحدي.

– لقد أكلت، وشبعت.

كانت تكذب، ولكنّها لم تردْ أن تزاحمه وهي تعلم مدى جوعِه بعدَ مرور يومٍ طويل دونَ أكل، قال بحنان:

– ألا تريدينَ أن تقاسميني نصيبي؟

ابتسمت، فأخذت منه الشطيرةَ ، وبعد لحظات تنبَّهت إلى السماعتين اللتين في أذنيه، فقالتْ بفضول:

– ماذا تسمع؟

أخرجَ إحدى السماعتين من أذنه وأعطاها إيّاها وهو يقول:

– اسمعي.

وضعتْها على أذنها، وغابتْ مع نغماتِ أغنية (أعزّ الناس)، هل يمكن أن يحلمَ المرءُ في يقظته؟ فهي وهو، وجَمال الكون، وأغنية العندليب، لحظة لم تتصوّرها حتى في منامها، ولم يكن في وسعها إلّا أن تهمسَ سائلة:

– مَن هُم أعزّ الناس لديك؟

أنتِ.. كم تمنّى- هذه اللحظة- أن يعلنها عاليًا وبوضوح، ولكنّه أمسك لجامَ فرسه مرة أخرى، وقال بابتسامةٍ صغيرة:

- كلّ الناس.

قالتْ بانفعال، وهي تنزع من أذنها سماعتَه:

- سأعودُ لألحق بهم.

ناداها بعد أنْ خطتْ خطواتِها الأولى:

- مريم..

التفتَتْ إليه قائلةً بلهفة:

- نعم.

ابقي معي.. ودّ لو يقولها، ولكنّه تراجع قائلًا:

- لا شيء.

مشتْ خطوات وهي تدبّ على الأرض بقدميها في حنق شديد، ثمّ صاحتْ بعد أن ابتعدتْ عنه قليلًا، وكأنها تنفثُ عن غضبِها:

- يقولون إنك تظنّ أنك الأفضل، وكنت أعارضُهم بشدة، ولكنْ يبدو أن ظنّهم في محلّه.

تعجّب من اتهامِها المفاجئ ، فصاحَ مدافعًا:

- أنا مخلوق ممّن خلقهم الله، فمَن أكون كي أزكّي نفسي عليه؟!

توقّفت عن المشي، ثمّ صاحت:

- لا أفهمك.

– أقصدُ أنا لستُ حكمًا على العباد، فكيف جالَ بخاطركم أنني ظننتُ أنّني أفضلُ منكم؟

– لا عليك مِن كلامي.

ثمّ قالت في نفسها: إنه مجرّد رغبةِ فتاةٍ في التعبير عن سخطها وهي تحترق غيظًا.. عادتْ قدماها تأخذانها بعيدًا عنه، فناداها في نفسه: مريم.. مُشتاق إليكِ وأنتِ ماثلة أمامي، فما بالك بالبعد؟ رفقًا بي، لا ترحلي.. لم تمرّ بضع دقائق حتى قرّر اللّحاق بها.

كانت قد اقتربتْ من الشاليه، حين اعترض طريقَها علاء تحت مظلّة الزهور، قائلًا:

– نصيحة مني، لا تهْدري وقتَك معَ هذا الشيخ.

رمقتْه بنظرةٍ غاضبة، ثمّ قالتْ وهي تدفعُه بيدها بعيدًا:

– ابعدْ عني.

تابعَها قائلًا بحماس:

– لا تغضبي هكذا، إنّما جئت لأخلصَ لك النصيحة، لن يشعرَ بكِ، ولو بعد مائةِ عام، فهو لا يفقَه كيف تكون المشاعرُ والأحاسيس الرقيقة. وإذا تزوّج، تزوّج أربعة وراح يستعبدَهن، ومَن يدري، فربما يكونُ على ذمّته ثلاث، ويبحثُ شهوةً عن الرابعة.

عندَ وصول حسين إلى الشاليه، لاحظَ امتعاضَ مريم على وجهها، وهي تبتعدُ عن علاء وتدخلُ القاعة الرئيسية، اقتربَ منه علاء حين وقعَ نظرُه عليه، وقال:

– مرحبًا بك يا.. هل أناديك يا شيخ، أمْ روميو أفضل وصفٍ لحالك؟

لم يكن اختلافُ أيديولوجيّة وعقيدة كلّ منهما السبب في نفورِ علاء كما ظنّ، إذْ بدا لحسين أنّ الغيرة التي تأكلُ قلبه سببٌ أدْعى لكراهيته. ومع ذلك لم يفقدِ الأمل في إقامة جسرٍ للودّ بينهما، ثمّ جال بخاطرِه ملامح مريم الساخطةُ وهي تبتعدُ عنه، فخشيَ أن يكون قد آذاها بتلميحاته السّخيفة، فدخل مسرعًا وراءها مُتجاهلًا علاء إلى القاعة الرئيسية، فوجد فارس وفيفيان وعمرو وعبد الوهاب يجلسون حول مائدةٍ مستديرة وفي أيديهم كروت (الكوتشينة)، وكانت مريمُ بالمطبخ المفتوح تغسلُ الصحون، وكأنّما تحول غِلّها إلى طاقة إيجابيّة، صاح عبد الوهاب عند رؤيته قائلًا:

– هلَّ حسين، واكتملَ العدد، هيّا نبدأ اللعب.

نظرتْ إليه مريم، ثمّ عادت لتكملَ ما بدأت وهي تحاول أنْ تخفي اهتمامَها بقدومه، وكانت ناني مُستلقية على الشيزلونج المفضّل لديها، فأشارت بيدِها وهي تقول بالإنجليزية:

– أنا خارج اللّعبة.

صاحتْ مريم:

– وأنا أيضًا.

دخل علاء بعد لحظات، وأخذ مجلسَه بينهم وهو يقول:

– لا يجوز اللّعبُ بدوني.

انهمكوا في اللّعب لما يزيدُ على نصفِ الساعة حتى علا صوتُ علاء فجأة وهو ينظر ضاحكًا إلى حسين:

– يا لكَ مِن محظوظ ! تكسبُ (الديمز) حتى في الكوتشينة!

تركتْ مريم ما بيدِها من صحون، واتّجهت إليه متحفّزة وهي تقول:

– ماذا تقصدُ بقولك إنه يكسبُ البنات حتّى في اللعب؟

ردّ قائلًا، وفي وجهه كلُّ علاماتِ البراءة:

– إنّها نكتة، ولم أوجّهها إليكِ.

صاحَ عمرو مُستنكرًا:

– ما شأنُك يا مريم؟ ولماذا كلُّ هذا الانفعال؟! إنه مجرّد مزاح أثناءَ اللعب.

ارتبكتْ مريم قليلًا، وقد شعرت أنها حمَّلت الموقفَ فوق ما يستحقّ، حتى قال حسين بحزمٍ ليدفعَ عنها الحرج:

– مريمُ على حقّ، فقد أزعجني مزاحُه.

أحسّ فارس بمسئوليّته تجاه المجموعة، ولم يرغبْ في تصعيد الموقف، وخاصة عندما رأى الشّررَ يطلّ من عيني علاء بعد ما قاله حسين، فقال لتهدئةِ الأمر، وهو يلمّ الكروت مِن على المائدة:

– يبدو أنّنا جميعًا أرهقْنا اليوم، هيّا بنا نخلدُ إلى النوم، ولنكمل اللّعب غدًا.

صاحَ عبد الوهاب مُعترضًا، وقد همَّ الجميعُ بالانصراف:

– ولكنْ الوقت لم يتأخّر.

ثمّ اعتدلَ في جلسته قائلًا لحسين:

– على كلٍّ، تشاركني النومَ في القاعة الرئيسية، ولن تنامَ الليلةَ حتى تقصّ عليَّ كلّ المشاكل التي عُرضتْ عليك من مراسليك.

هزّ حسين كتفَيه قائلًا:

– إذًن، لن ننام لمدّة ثلاثِ ليال كاملة.

عادتْ ناني إلى مكانها، ولمعتْ عيناها وهي تقول:

– صحيح، أودُّ أنْ أسألك عن أكثرِ الأسباب شيوعًا لمصائبِ الناس.

جذبَ سؤالُها الجميع، فعادت فيفيان وجلستْ بالقرب من حسين، كما عاد عمرو وتربَّع بينهما، ووقف فارس على الدرج الأوّل ينتظر الإجابة، وانتبهتْ مريم، حتّى علاء ألقى بجسده على المقعد مِن جديد، فقال حسين عندما لاحظَ اهتمامهم بشكلٍ كبير:

– الظلم.. الظلمُ يا ناني سببُ البلاء والمصائب والخراب.

قال علاء باسْتهزاء:

– هذا تبسيطٌ مخلٌّ يا حلالَ العقد، وماذا عن المشاكل الناجمةِ عن الكذب والخيانة والجُبن، و..؟

قاطعَه حسين قائلًا:

– كلُّها خارجة من بوتقةِ الظلم، فإذا كذبتَ فإنّك ظلمت بمواراتِكَ الحقيقة، وإذا خُنتَ فإنك ظلمتَ مَن ائْتمنك، وإذا تراجعتَ عن جُبن فإنك ظلمتَ مَن احتمى بك، ودوافعُ الظلم عديدة، منها الخوف، والغرور، والجهل، وسوءُ الظن، والكراهية والتعصب اللّذان يدفعان المرء منّا إلى الكيل بمكياليْن.

قال فارس بعدَ قليلٍ من التدبّر:

– صدقتَ.

لأوّل مرة يتّفق فارس معه في حديث، فالتفتَ إليه مبتهجًا وهو واقفٌ على الدرج يستطرد:

– كلّ صور المشاكل تبدأ بظلم، فتمرُّد المرء على والديه ظلم، تفضيلُه ابنًا عن ابن ظلم، إنكارُه لحقّ حبيبتِه عليه ظلم، أَنْ يجور على مَن هُم مسئولون منه ظلم، أنْ ينكره أهلُه وجيرانه وأصدقاؤه لاختلافِه عنهم ظلمٌ، وظلمٌ، وظلم..

قاطعَه حسين قائلًا وهو ينغضّ رأسَه:

– حتى نفسك التي بين جنبيْك يمكن أن تظلمها، وهذا أبشعُ أنواع الظلم.

سألتْه فيفيان باستنكار:

– وكيف يظلمُ المرء نفسَه؟

قاطعتْها مريم قائلةً وهي تنظر إلى حسين:

– قد يكون عندما تعشق فتاةٌ مَن لا يشعر بها. فبهذه الطريقة تكونُ قد ظلمت نفسها.. أليسَ كذلك؟

ابتسمَ حسين قائلًا وهو ينظر إليها بحنانٍ بالغ:

– وقد تكون تلك الفتاةُ ظلمتْ حبيبها، إذا كانت تسري في دمائه دونَ أن تدري.

شعرَ علاء أنَّ حسين سيتقدَّم لخطبتها، إذا استمرا في هذا الحديث؛ فقرّر أن ينهيه قائلًا:

– هذا يكفي، لقد أجْهِدنا اليوم– كما ذكر فارس منذ قليل– ولا بدّ أن نُخلدَ إلى الراحة.

***

تنفّس مع إشراقةِ شمسه أمل جديد في صدره، ووقف يتأمّل الموج وهو يطفر ذهابًا وإيابًا؛ ليبعثَ مع حركته راحةً على قلبه، وراحَ يُقيِّم ما جاءَ من أجله، فقبْل وصوله إلى الساحل، ظنّ أنه سيلتقي شبابًا سطحيًّا جاحدًا جاهلًا، بلا مشاعر أو هويَّة، ولكن– على عكس ظنّه– لم يكنْ شبابُ (كفرْنا بالعيشة) قالبًا واحدًا، تذكر نصيحةَ الطبيب النفسي له، حين قال إنّ الدنيا لا تقتصرُ على اللّونين الأبيض والأسود، والآن فقط راح يستوعبُ وهو يتأمَّل هؤلاء كلامًا استعصى عليه فهمُه من قبل. فكلٌّ له شخصيتُه المستقلة، ودوافعُه التي شكّلته، وحججُه التي ساقته إلى هنا، ففيهم مَن تحلّى بنوايا طيبة وخلق حسن ، وقيمٍ ومبادئ نادى بها الدّين الذي أغفلَه، تُرى هل لضلالتِهم

نهاية؟ بالأمس كان يرجو هدايتَهم انتصارًا للحق، ولكنه اليوم أصبحَ أشدّ رجاءً، إذْ إنهم في خضمّ محاولاته لكسبِ تأشيرة دخول إلى قلوبهم، تسلّلوا جميعًا إلى قلبه، ممّا عزَّز رغبته في هدايتهم.

ثمّ جالَ بخاطره عيناها، كم يودّ لو يراها! ولكنه عَلِمَ أنها ذهبت في صحبة عبد الوهاب وفيفيان وناني إلى السوق، فتعجّل وصولهم، ثمّ تعجّب من لهفته عليها، وافتقادِه إياها، كيف؟ ومتى؟ ولم نمتْ هذه المشاعر؟ وإلى أينَ تجرفُه دنياها؟ فما عاد يعلم إلّا أنه يهواها. أخَذ يتصفّح شاشة محموله، ويردّ على رسائله، عسى أن يوقفَ حنينه إليها، ثمّ جالَ ببصره ناحية الشاليه، لعلّها تكون قد وصلت بين لحظةٍ وأخرى، فوجد فارس وعلاء يسيران على حذا حمّام السباحة متّجهين إلى مظلّة الزهور، وبدا له أنّهما منشغلان في الحديث، رفع فارس يدَه تحية عندما وقع بصرُه عليه، فردَّها حسين بإيماءة رأس وابتسامة، ولم يلتفتْ إليه علاء كعادته، وظلّا هكذا لبضع الساعة، ثمّ اتّجهَ فارس إلى الشاليه، أمّا علاء فاتّجه كالقذيفة إليه، واتخذَ مجلسًا بجانبه على شاطئ البحر، ثمّ قال دونَ مقدّمات أو حتى إلقاء تحيّة:

– ما الذي زجَّك بيننا؟ لا تقلْ لي إنَّك جئتنا لإيجادِ حلول، فهذا السببُ لا يَخيل حتّى على السذَّج.

على الرغم من علمِه بنفور علاء، فما توقّع أن يواجهَه بطريقة حادَّة كهذه، ومع ذلك وجدَها فرصةً قد يزيح بها ما وقر في قلبه من كره إزاءه، فقال بهدوء:

– علاء اسْمعني مليًّا، إنني والحمدُ لله ناجحٌ في عملي، سعيدٌ مع أهلي، لا ينقصني شيء، وتستطيع أن تتحقّق من نجاحاتي بنفسِك على شبكة

الإنترنت، فلا يوجد سببٌ آخر يدفعني إلى أنْ أكون بينكم إلَّا رغبتي الشديدة في مساعدتِكم.

قاطعَه علاء قائلًا بغلّ:

– بل هناك سببٌ آخر.

قال حسين وهو لا يزال يحتفظُ بهدوئه:

– ليتكَ تُطلعني عليه.

قال ونظراتُ حقدٍ تنطلق من عينيه كالرّصاص:

– إنك أيّها الكاتب النابغة وجدتَ في محنَتنا سبقًا صحفيًّا مُدهشًا، يا لَه من مانْشيت: المؤمنُ الذي حاول جاهدًا إزالةَ الغشاوة عن شباب كَفَرة منحلّين! أو ما رأيُك في مانشيت أكثر إثارة، حسين راشد، ومناهضتُه الإلحاد.. ؟

قال حسين، وما نفدَ أملُه في إصلاحِ ما بينهما:

– يعلمُ الله أنني لم آتِ إلّا لمساعدتكم، أو بمعنى أدقّ إنقاذكم من أفكارٍ قد تفتكُ بكم.

– وهل أنا من البلاهةِ بحيث أصدقك؟ فإنّكم أيها المؤمنون أكثرُ الناس نفاقًا وكذبًا.

قاطعَه قائلًا:

– وما دليلُك؟

– كلّ شيء تقومون به رياء، انظر، مثلًا، إلى تظاهرك بالورع وأنتَ تصلي، فكيف تؤثّر فيك عبارات تردّدها في اليوم عددًا كبيرًا من المرّاتَ، وكلانا يعلم

أنّ الكلام يفقد معناه إذا تكرّر ترديدُه، ثمّ إنكم تقومون بحركاتٍ كالقرود، مجرد شكليَّات ومظاهر تثيرُ اشمئزازي وغثياني.

نفدَ صبرُ حسين، فقال وقد بدا عليه الغضب:

– عادة يظنّ المرء أنّ مَن حوله يشتركون معه في فكره، فيرميهم بعِلَّاته، والإناءُ ينضحُ بما فيه، فكلامُ الله لا تدركه قلوبٌ غافلة أمثالُك مهما ردَّدوه، وسوف يقومون– لو صلّوا– بحركاتٍ كالقرود، دونَ أدنى تدبّر أو خشوع أو فائدة، ولكنّ كلامَ الله متجددٌ وحيّ في قلوب المؤمنين، وصلاتهم تنهاهم عن الفحشاء والمنكر؛ لأنّ كلّ كلمة يتفوّهون بها لها معنى عميقٌ يخترق وجدانهم، وإنْ كرّروها مائة مرة.

قاطعَه علاء قائلًا باشمئزاز:

– يبدو لي أنّك أكبرُ مثال لنفاقِ المؤمنين، فإنْ كانت صلاتك، كما تقول، تنهاكَ عن الفحشاء والمنكر، فلماذا تعبثُ بقلب مريم المسكينة دونَ اكتراث؟!

ثمّ أردفَ قائلًا بانفعال وهو ينهض من مجلسِه ويبتعد:

– على كلٍّ، ليس هذا مِن شأني. ولكني أذكّرك أنّك قد عاهدتنا بسَرَيان قرارنا عليك وإنْ كان انتحارًا، فلو أردتَ نصحي، لمِلم أمتعتَك وغادرِ المكان قبل اتّخاذ قرارنا، فحياتُك هي التي تقامر عليها!

كادَ علاء بحديثه يدفْع حسين إلى الرحيل، لا لتهديدِه، ولكن لانتقائه– كعادته– كلامًا لاذعًا تضيق به الصّدور، فساق حسين إلى صراعٍ مرير مع

نفسِه- وهو يمشي بخطواتٍ زاحفة نحو الشاليه، هل هو حقًّا يعبثُ بقلب مريم؟ إن المشاعرُ أسمى ما في الإنسان، فكيف يتهاونُ فيها؟ ويعبثُ بقلب مَن!! بقلبِ مريم، حبيبتِه التي لم يعدْ يرى سواها؟ فما يرضيه أن يجرحَ مشاعرها ولو بكلمة، لا بدّ أن يلملم أمتعته- كما طلبَ منه علاء- ويختفي، ولكنه قطعَ كلّ هذه المسافة لأجلها، ولإغاثة المجموعةِ بأكملها بما فيهم علاء، أليسَ كذلك؟

لم يعدْ واثقًا في نواياه بعدَ أن زلزلته اتهاماتُ علاء السافرة، وحاصرته بأسئلة دغدغتْ ما في ضميره، لعلَّه جاء أملًا في تلميع اسمه أو لاهثًا وراء شهرة أو مجدٍ أو سبقٍ صحفيّ كما أشار، أو لعل وجوده ليس إلّا انتصارًا لذاته.. ولو أن الأمرَ كذلك، فليرحل إذن في الحال؛ لأنّ الهدف لا يساوي على الإطلاق ما يدفعه كلّ يوم من وقتِه وماله وصبره، وقد يصل الأمرُ به إلى أن يدفعَ حياته كلّها في سبيله. خشي على نفسه من نفسِه، فرفع عينيْه إلى السماء يستجيرُ بربه ويدعوه أن يثبّته، ويعجلَ بهداهم، ولكن هلْ هناك أملٌ في هدايتهم؟ وجدَ الإجابة حين وقع نظرُه على عمرو العلايلي أمام بابِ مدخل الشرفة الشمالية للشاليه، وهو يسقي قطة لبنًا بحنوّ بالغ، فتجدَّد أمله، فهذا الإنسانُ الذي ساقه غرورُه وزهوه بثروتِه إلى أن يظنَّ أنه إلهٌ يرزُق، تنبضُ بقلبه رحمة قد ينفذُ من خلالها نورُ الإيمان، عزمَ على تجاهل حديث علاء برُمَّته، وألّا يجعل له منفذًا لقلبه، وقد آن له أن يعدّ عدّته حتى يكونَ تأثيرُه الأقوى.

اقتربَ من عمرو، فقال له:

- ما أطيبَ هذه المخلوقات! فلا يمكن أن تخدعَك، أو أن تغرّر بك.

ابتسمَ له حسين وهو يربتُ على القطة، ثمّ دخل الشاليه وسلوكُ عمرو حيٌّ بداخله، وجلس على الشيزلونج في القاعة الرئيسية، وبعد برهةٍ بلغ سمعه أصواتُ الفتيات تعلو تدريجيًّا حتى دخلنَ الشاليه مع عبد الوهاب، محمّلين بحاجاتِهم من السوق، فرحَ لعودتها أشدّ الفرح، قال له عبدالوهاب فوْر دخولهم:

– لقد أدركت قدرَك اليوم يا حسين، فالتسوُّق مع الفتيات أمرٌ شاق جدًّا.

قالتْ ناني بحزم:

– عبد الوهاب، هذا آخرُ يوم نذهبُ معك فيه إلى السوق، لقد كنت مصدرًا كبيرًا للإزعاج لنا.

قال عبد الوهاب بحسرة:

– خيرًا تعمل شرًّا تلقى.

ساعدَ حسين عبدَ الوهاب في نقل المشتريات إلى المطبخ المكشوف، ووضعتها مريم في أماكنها المخصَّصة، أثناءَ صعود فيفيان وناني إلى الطابق العلوي، ثمّ التفتتْ مريم إليهما قائلةً برجاء:

– لقد صعدتْ ناني وفيفيان، وأنا وحدي، فمَن منكما سيساعدني في الطّهي اليوم؟

غمزَ عبد الوهاب لحسين وهو يقول:

– معذرةً سأنسحب، فأنا لا أجيدُ أعمال المطبخ.

تركَهما بهدوء، أمّا حسين فقال مبتسمًا:

– مِن دواعي سروري أن أكونَ مساعدَ الشيف اليوم.

يقولون إنّ أفضل الطعام مذاقًا هو الذي يُطهى بيدي عاشقيْن، ولكنْ ليس كلّ ما يقال حقًا. رمقتْه بنظرةٍ نافذة وهي تقولُ في نفسها نافثة زفيرًا خفيفًا: هذا هو الرجل الذي تمنّيته دومًا، فهو لي لا محالة. ثمّ قالت برِقّة، وهي تخرجُ مَضربًا من خزانة المطبخ:

– حسين، هل يمكن أن تخرج ست بيضات وتخفقَها بهذا المضرب؟

نظرَ إليها بحنان، قائلًا في نفسه وقد تسارعتْ أنفاسه: كفاكِ عبثًا بقلبي الواهِله، ثمّ قال:

– في دقائق.

ولم تمضِ لحظاتٌ حتى سمعتْ صوتَ خَفق البيض واحدةً تلو الأخرى، إذْ أوقعها جميعًا على الأرض في لحظةٍ أسكرته فيها عيناها!

استدارتْ إثرَ وقوع البيض، فرنّت ضحكتها بحيويّة لتزيدَه نشوة، وهي تنظر إلى البيض المكسور، ثمّ قالت:

– يبدو أنك كصاحبِك عبد الوهاب، لا تتقنُ أعمالَ المطبخ، مسكينةٌ زوجتك.

ثمّ نظرتْ في عينيه وهي تسأله:

– أليستْ لك زوجة؟

هزَّ رأسه بالنفي بعد أن أشرقتِ ابتسامةٌ على وجهه، فأردفت قائلةً بلهفة:

– ولا حبيبة تنتظرُك بالقاهرة؟

قال بدفء:

– ظننتُ أنكِ تعلمينَ الإجابة عن سؤالك!

هل ردّه يعني أنه يبادلُها شعورها؟ فعيناه تؤكّدان عشقَه، وإن كان الأمر كذلك، فلِمَ لا يصرّح به؟ لِمَ لا يُطمئنُ قلبَها الملهوف بمجرّد تألق كلمةٍ من بين شفتيه من أربع حروف؟ أسئلة حاصرتْها وحيَّرتها، ولكنْ ما أجملَ غموضَه!

***

خطا خطواتٍ واسعةً على الممشى الخارجي حتى وصلَ إلى الرمال الذهبية، وأخذ يتأمّل الأمواج وهي تتكسّر على الشاطئ الفضّي، ثمّ مدّ بصرَه إلى الأفق، فهو عاشقٌ للشروق، فرأى الشمس وكأنها تستجمعُ خيوطها بين أمواج البحر، لتملأ الدنيا ضياءً ونورًا وتطرح أملًا في القلوب. أخذَ يتأمّل عيشته معهم، ويتعجّلُ النتيجة، كم افتقدَ أمّه وأخته وابنها وزوجها! تُرى هل لهذا الفراق ثَمن؟ هل سيتوّج بهدايتهم، ولكنْ سرعان ما وضعَ لأمله الجامحِ لجامًا، خاصّة وقد استرجعَ مناقشات العقيدة تلك التي دارت بينه وبينهم، ثمّ عاد أمله وجمحَ من جديد حين استعرض أيامه معهم، فلمسَ نجاح أولى خطواتِه للتقرّب من بعضهم، وظلّ هكذا يتأرجَح بين يأسٍ ورجاء دون أن

يشعرَ بمَن تراقبه من شرفةِ الطابق العلوي، كانت هي أيضًا تتنقلُ بين يأس ورجاء ولكنْ من نوع آخر، أحبّته بكلِّ كيانها، لم تكن تتصوّر أن تهواه إلى حدّ الجنون، تتسارع أنفاسُها كلما اقترب منها أو ابتعد. كلّ حركة له كانت ترصدُها، ويتبعها مائة سؤال بلا جواب، أيحبّها؟ أيعشقها؟ كم تودُّ أن تخرج مكنونَ قلبه وتسأله! ولكن تعاندُها كبرياؤها التي بدأ سلطانُها عليها يزول، فقد خفّت صوتها وضاعَ صداه في محراب العشق، وأخذت تستسلمُ لحبٍّ جارف لم تعرفْ له مثيلًا، ولم يكن لها فيه اختيار، شعرتْ بغيرة من أمواج البحر وهي تداعبُ قدميه أثناءَ وقوفه على الشاطئ، بل وحنقتْ من ذلك الحصى الذي التقطَه من بين الرمال، كم تمنّت أن يضمَّها هي أيضًا بكفّه، ولو ألقاها بقوة لتسقطَ في أعماق البحر كما فعل بالحصى، ولم تفقْ إلّا على صوتِ ناني من ورائها وهي تقول:

– إلى متى تتعذَّبين بحبِّه؟

سقطتْ دمعةٌ من عينيها وهي تقول:

– لا أدري يا ناني، أتجرّع عذابًا يفوقُ احتمالي، ولكني عشقتُ عذابه.

– كيف؟

– أعشق بأس كلّ ما يصدرُ عنهُ، هويتُ صمتَه رغم افتقاري لحديثه، وحديثَه رغم خوائه من كلماتِ للعشق نطقت بها عيناه، عشقتُ نظراته رغم استئثارها بحبّه، فلمْ تبدِه بقية جوارحه، وهويتُ سكونَه رغم شوقي لحركاته، وذبْتُ في حركاته رغم خلوّها من لمسةِ يدٍ قد تحيي جسدًا ماتَ في هواه.

قالتْ ناني بحماس:

– إنكِ تحبّين شيخًا، يُحرم كلّ ملذّات الحياة، هل تعتقدين أنّك ستهنئين يومًا بذلك الاختيار؟ انظري إليَّ، وافْعلي مثلي، لقدْ أحببت مَن يفهمني، ولذلك أستمتع كلّ لحظة.

تنهّدت لتخرج مع زفيرها ما حملتْه من شوقٍ إليه وهي تقول:

– آه يا ناني، وهل بيدِنا اختيار؟

– كم أنتِ مسكينة! لم أكن أعرفُ أنّ حبّه قد توغّل فيكِ إلى هذا الحدّ.

ونظرتْ في عينيها الدامعتيْن، فعلمت ما تتكتمه من عذاب، فقالتْ، وهي تربتُ على كتفها:

– هوّني علي نفسك، فهو وإنْ كان شيخًا فهو رجل، وسيضعفُ حتمًا ويستسلمُ أمامَ مفاتن امرأةٍ جميلة وجذّابة مثلك.. وأظنّه قد بدأ يضعفُ بالفعل.

قاطعتْهما فيفيان بصوتٍ شبْه نائم من داخل حجرةِ النوم :

– كفاكُما ثرثرة، لقد جفاني النومُ لكثرةِ كلامكما.

قالتْ ناني:

– نامي قريرةَ العين، فإنكِ لم تتجرعي ما ذقناه من حبّ.

همستْ فيفيان بصوتٍ سمعته وحدَها، وهي تتقلّب على فراشها تترجّي النوم.

– بل عرفتُه، ويا ليتني ما عرفت.

الفصلُ السّادس

عشقٌ مَمْنوع

قادته قدماه حتى وصلَ إلى الشاطئ كعادته في مثل هذا الوقت من اليوم، وقد كانت لحديثِه مع البحر بقيةٌ، ولكنه لم ينفرد به كما ظنّ؛ إذْ وجدها مُستلقية على القارب الصغير المربوط أمام الشاليه، كانت متلفّحة بوشاح أزرق يضيء إطلالتها، ويقيَها بردَ صباح باكر في يوم من أيام الشتاء، وأحسَّ وكأنها جزءٌ من الطبيعة، ودار صراعٌ غير متكافئ بينه وبين نفسه بعد أنْ لملمت مقاومتُه أشياءها وولّت أدبارها، وتركته أعزلَ أمام جَمال عينيها، فاتّجه إليها، ثمّ سألها:

– صباحُ الخير يا مريم، ما جاء بك باكرًا؟

اعتدلتْ في جلستها، وقالت بابتسامةٍ ساحرة :

– أتظنّ أنك وحدَك عاشق للبحر؟

صعدَ على المركب بخفّة، وهو في دهشةٍ من أمره قائلًا:

– ما دُمنا عاشقين له، فما رأيك في نزهةٍ فيه؟

أومأت برأسِها وقد بدأت بالفعل إبحارَها في عينيه، وأخذ يجدّف بالمجدافين ويدفع القاربَ بعيدًا في حضن البحر، فجذبها في بحرِ هواه إلى الأعمق، وأخذَ النسيم يداعب خصلاتِ شعرها الناعم فيزيدها في عينيْه جاذبية، وأفضى البحرُ بسحره إلى الهوى، ألم يكنْ ملجأ وحصنًا لأهله؟ هذا

ما نقلتْه عيناه إليها، ولكنْ إلى متى؟ وإلى أين؟ صرختْ عيناها الحائرتان، فلماذا لا يُعلن لها عن حبّه؟ ويضمها إلى أحضانه كما يفعل العشّاق؟ ثمّ شعرت بالتفرد، فحبيبها ليس كأي عاشق، وهواها المجنون متميّز، جدير بأنْ تباهي به العشاق، والحبّ كالمولد والموت لا خيارَ فيه، يدقّ قلوب المُصطفين، فيستسلمون له دونَ مقاومة أو نضال، أمّا هو.. فكان سؤاله ثائرًا وعنيدًا، كيف اخترقت سهامُها قلبَه على الرغم من جدارِ حصنٍ منيع أقامه ليقيَه عذابَ حبٍّ جديد؟! أخفقت كثيرات من قبلها في اقتحامه، فظنّ بذلك أنه قادرٌ على درْء أي هجوم، ولم يكن يتخيّل أن يستسلم ويعلن هزيمتَه أمام تينك العينين اللتيْن سحبتاه إلى مجهول، فلم يعدْ قادرًا على تذكّر أمسه، ولا تصوّر غده، وبات في حاضره أسيرَ حبيبة مثَّلت في عينيه كلّ امرأة في الوجود، وتوغّلت فيه على نحو غير مسبوق، فعشقها عشقًا اختلفَ مذاقه عمّا عرفَه من سنين، وابتعث في نفسه نشوة وغموضًا، أيصارحُها بحبّه؟ وهل هي حِلٌّ لاقترانها به؟ لا داعي لردٍّ، أو دخول في مجادلاتٍ مع نفسه لن تفيد، لا ضرورة لإفسادِ تلك اللحظة، فما جاء إلى هنا بحثًا عن هوى، أو كان له مع الغرام موعدٌ، ولكنه شاء وشاءتِ الأقدار، وقدرُ الله كله خير.

قال لها:

– حدّثيني عن نفسك.

ماذا تقول؟ وكيف تجيب؟ فقد اختلط عليها أمرُ نفسها، فلو أنها همّت بالحديث عنها، لتحدّثت عن نفسه، فاكتفتْ بالبوح عن سعادتها بقربِه قائلة:

– أنا أسعد امرأةٍ في الوجود.

ابتسم ابتسامةً سحرتْها وهو يقول:

– هذا ما تستحقّينه كلّ لحظة سيدتي الجميلة.

حاولتْ حبسَ سؤال فرَّ من حلقها:

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟ أقصد.. ما جذبك للانضمام إلينا؟

– جئت لنلتقي، فكلُّ شيء بميعاد.

ودّت لو تخلّت الساعة عن دقاتها، فيظلّ جالسًا أمامها مفتولَ العضلات يجدّف بهمّة بين الأمواج إلى أبد الآبدين، ويشعل بمجدافيْه لهيبَ حبٍّ اجتاح قلبها شوقًا وحنينًا، فما أوسمه وهو يحاوطها بعينيه، فتخترقها نظراته لتهزّ كيانها، وتعبثُ بمشاعرها دونَ قيد أو غايةٍ أو دليل، لقد عشقت هواه، وعشقت أن تضيع فيه. تحيّرت لحالها الذي عجزَتْ عن وصفه أغانٍ تغنّى بها العاشقون بجميع لغات العالم، فكلّ ذرّة كوّنتها تصفُ هواه، وتنطقُ باسمه، مدّت يدَها إلى المياه الجارية، تكتب قصيدةَ عشقها على سطح البحر، واستجدتِ الموجَ أن يكتم سِرَّه.

وانقضى الوقتُ في لمح البصر، وتسرَّب النهار من بين أيديهما، وحان وقتُ مغيب الشمس لتعلن بغروبها وداعَ أجمل لحظات العمر، وما أقصرَها مهما طالت! فلا بدّ أن يعودا أدراجهما، جدّف إلى اتجاه الشاطئ في صمتٍ حائر، وعادا بعد أن انْتشَيا بلحظات قربٍ ووصال، عَبَرَت ولكنها بقيت حيّة في قلب كلّ منهما، باركتْه هي، أمّا هو فقذفته في قلب دوَّامة ارتباكٍ سحيقة لا تنتهي.

صعدتْ إلى الطابق العلوي هائمةً في حبّه شاردة، وما سئمت سلوكَ حبيبها، وقد استوت في عشقها صراحتُه وغموضه، وهامتْ في صمته المسموع، وحديثٍ من عينيه عن حبّه المسجور، أقرّته أمواج البحر، وأخبرتها به نسماتُه، ونصحتها بألّا تيئس، فسوف يأتي يومٌ يفكّ قيده ويضمّها إليه، وتعيش في جنّة لا يعرفها إلّا مَن ذاق جحيم اللّوعة ولهيب الشوق.

أمّا هو، فدخل القاعة الرئيسية للشاليه في حيرةٍ من أمر قلبه، فلم يعدْ يفهم ما يريد، وبدأ يتساءل في ظلّ أنفاس لا تهدأ، إنْ كان قد فقدَ رشده، أو شطَّ عن غايته، أو بدأ يحيد، فاستعان بكتابٍ لوقف سلسلة من تساؤلات ليس لها عنده ردود، وظلّ مُنهمكًا في قراءته، ولم يشعرْ بنزول فيفيان من الطابق العلوي وجلوسها على مَقربةٍ منه، حتى سألته:

– ماذا تقرأ؟

وضع كتابه قائلًا بابتسامة:

– معذرة، كنت مشغولًا بالقراءة، فلم أشعرْ بمجيئك، إنه كتاب فلسفي.

أحسّ بضرورة انتهاز تلك الفرصة، فربّما يستطيع أن يمدّ لها يدَ العون في محْنتها، فأردفَ:

– هلْ لي أن أسألك سؤالًا شخصيًّا؟

قالت بدهشة:

– تفضَّل.

– ما سببُ كراهيتك لزوجك؟

نظرتْ إليه وشعرت بغضبٍ لتدخّله المفاجئ، وارته بابتسامة، وآثرتِ الصمتَ فقال:

– إذا كنتِ تُبغضينَه لصفةٍ فيه، فهذا من حقّك، ولنْ ألومك، ولكن حذارِ أنْ يكون سبب كراهيتك له وجودَ آخر في قلبك.

ارتعدتْ، ولاحظَ الفزع الذي ارتسم على وجْهها، فأردف قائلًا:

– بالطبع لا أحبّ أن أتدخّل في خصوصياتك، ولكنْ دعيني أقصّ عليك تجربتي، قد تفيدُ ولن تضرّ.

بدأ يستحضرُ ماضيًا وأدَهُ منذ زمن، وكره الخوضَ فيه، ولكنّه استدعى ذكره كدواءٍ يقاسمها آثاره، فالعلاجُ لها، والمرَارةُ لحلْقِه، لملمَ أطراف شجاعته قائلًا:

– كانت جارتي، وكان ذلك مِن سنين، وكنتُ صغيرًا، فافتقرت إلى خبرة تمكنني مِن أنْ أعرف أنّ حبي لها كان مِن طرفي فقط، لن أنسى فرحة أمي وأختي يومَ أن أفضتُ إليهما بمشاعري، فشجعتاني، وطلبتُ يدها، فرحَ أبوها غاية الفرح، وتزوّجنا في غضون شهورٍ قليلة، سافرنا إلى شرم الشيخ لقضاء شهرِ العسل، عزمتُ أن أتوِّجها أميرة، وأنْ أبذل قصارى جهدي لإسعادها، ثَمّ...

هربتْ منه الحروفُ حتى عثرَ عليها فقال:

– حاصرتني بصمْتها طولَ سفرنا إلى شرم الشيخ على غير عادتها معي، ولم تفلحْ محاولاتي اليائسة لفضّ الحصار حتى دخلنا غرفةَ نوْمنا في الفندق

الفخم، وعندما أخذتُها بين أحضاني ابتعدت عني، وأخذتْ تبكي بحرقة، ظننتُ في بادئ الأمر أنّه ذعرُ فتاةٍ بكر من قضائها أول ليلةٍ مع رجلها، حاولتُ أن أهدّئ من رَوْعها دون جدوى، فتركت لها الغرفة حتى الصباح..

قالتْ بذهول:

– ولكنْ يا حسين لا أتخيَّل فتاة تمتنعُ عن زوج بوسامتك ورجولتك، إلّا لو كان لديها نقصٌ في عقلها...

قاطعها قائلًا:

– أو رجلا آخر في قلبها، هذا ما صرّحت به في اليوم التالي، ولم أجدْ مفرًّا من الفراق، فابتعدت عنها، ولكنْ ظللنا على ارتباطنا أمامَ الناس لشهور؛ لأصونَ كرامتها وصورتها في أعينهم، شعرتُ بامْتنانها لمَوْقفي معها، ولكن شتّان بين الامتنان والحبّ.

قالتْ وقد زوت ما بين عينيها:

– تجربةٌ قاسية.

– نعم، لكنها مع مرور الوقت تحوّلت إلى ذكرى، عرفتُ بعدها أنّ حبيبها خذلها، وما أسعفتها فطنتُها في اختيار مَن يستحقّ حبّها وكان جادًّا في ارتباطه بها، حاولتْ هي وأهلها بعد ذلك الرجوعَ بشتى الطرق، ولكنْ بعد فوات الأوان.

رمقتْه بنظرةٍ حائرة، فَهِمَ منها أنه قد وصل إليها فحْوى كلامه، انسحبَ بهدوء وتركَها تسبحُ في ماضيها.. جال بخاطرها يومَ ذهابها إلى ريمون جارِها ليخلّصَها مِن تلك الزّيجة الكريهة، تذكّرت رجفةَ يدِها وهي تدقّ

بابَه، ودخولَها داره بدموعٍ تسبقُها، واستجداءَها له بعدَ أنْ جلست بين يديْه وهي تقول:

– ريمون، أغثْني.. يمارسونَ عليَّ ضغوطًا هائلةً حتّى أتزوّج شادي، وأنا لا أطيقُه.

– لا تخضَعي إلّا لرغباتِك أنتِ يا فيفيان، ولا تسْتَسلِمي.

– أحتاج وجودَك بجانبي لتدْعَمني، وإنِ اسْتدعى الأمرُ أنْ تكلّم أبي، فأنا لا أتصوّر العيشَ بدونك.

لنْ تنسى تلكَ النظرةَ الحائرة التي أطلّت مِن عينيْه وهو يقول:

– فيفيان، لقد أسأتِ فهْمي، فليس لكِ وجودٌ بحياتي كما تظنّين، ما بينَنا لا يتعدّى كوْنكِ أختًا أحملُ لها كلّ معَزَّة واحترام وتقديرٍ في نفسي.

هكذا دارَ آخرُ حديثٍ بينها وبيْنه، فلم تفهمْ أبدًا السرَّ وراءَ تعاطفِه معها، ودعمِه لها منذُ أنْ عرفته، ثمّ انسحابه مِن حياتها بهذِه الطريقة، وتساءلتْ في نفسِها.. هل نظراتُه التي كانت تلاحقُها أثناءَ مُرورها في الحيّ أو في الكنيسة مجرّد تصوّر في مُخيّلتها؟ هل كلّ ما دارَ بيْنه وبيْنها كان مجرّد عطفٍ وشفقةٍ عليها، أو أنّه كان يحبّها ولكن هناك ما منعَه مِن أنْ يستمرّ معها؟ ربّما ليتّقي الخوضَ في معاركَ مع آخر، أو لسبب آخر تجْهَله؟ الاحتمالُ الأخيرُ كان الأقربَ لقلبها، فكلّما اقتربَ منها شادي تصوّرتْه ريمون للحظاتٍ لتحتملَ قربَه، ثمّ عادت إلى عذابها عندما تصطدمُ بواقعها، ولكنّ ألْمٍ يحن لها أن تواجهَ الحقيقةَ المُرّة، فريمون لم يحبّها يومًا.. ما أفزعَ الفكرةَ، وما أشدَّ قسوتَها!

***

كان صباحًا كثُرتْ في سمائِه السّحب؛ ليضفي ظِلًّا رومانسيًّا على قلبِ كلّ عاشق هامَ في عيني حبيبه. جلس عبد الوهاب ممدّدًا على الرّمال الذّهبية، مسندًا ظهرَه إلى صخرةٍ مُلقاة على الشاطئ، وأخرجَ محمولَه عسى أن يكتبَ رسالةً يحرّك بها فؤادَ حبيبته. راح يحرّك أصابعَه على مفاتيح محمولِه: مُهجتي، حياتي بدونِك فقدَتْ رونقَها، وأصبحتْ بلا معنى، ثمّ مسحَ- بضيق- ما كتبَه، وشعرَ بعجزه عنْ وصْف ما يُعانيه مِن إحباطٍ وكآبة في بُعْدها، مدَّ بصرَه يبحثُ عن حسين عسَى أن يمدّه برأي أو بكلمة، فرأى الرّجال مُجْتمعين حولَ حمّام السّباحة. ذهبَ إليهم، فوجدَهم يتحدّثون عن النّساء، فأخذَ مجلسَه بينهم، لعلّهم يمدّونه بما يفتقرُ إليه. وكان عمرو- لكوْنِه أكبرهم خبرةً- يتزعّم الحديثَ قائلًا:

- لقد زرتُ بلادًا بعددِ شعْر رأسي، ولي في كلّ بلدٍ حكاية مع إحْداهنّ، ولكنْ صدّقوني في القول، بأن مفتاح المرأة أيًّا كانت نشأتُها وظروفُها وجنسيّتُها؛ هو المال، ولكنْ يختلفُ قدرَ المبلغِ المَطلوب على حسب درجةِ جَمالها ومدى مُرونتِها.

قال علاء ساخرًا عندما رأى نظراتِ الامْتعاض مُطلّة مِن عيني حسين:

- هذا الحديثُ للكبار فقط، فالأفضلُ لك أنْ تنضمّ إلينا بعدَ أنْ تبلغ سنَّ الرشد.

قال حسين بأسى:

- والله لا أرى رُشدًا في كلامِكم هذا.

لم يُعِرْ علاء اهتمامًا كبيرًا لكلامِه، بل أرادَ أنْ يكملَ عمرو حديثَه الذي بدا له شيقًا:

– هيّا، أكمل يا عمرو.

– أتذكّر امرأةً كانت آية في الجَمال ، رأيتُها تقف بجوار رجلٍ على كاونتر الاسْتقبال في أحد الفنادق، تدَّعي أنّه زوجها، ولكنْ علمتُ بفِراستي أنّه لم يكن كذلك، ثمّ لمحتُ رقمَ غرفتهما أثناءَ استلامهما المفاتيح.

وسعَتْ عينا فارس وهو يسألُه:

– وما فائدةُ معرفتك رقمَ غرفتِها وهي في صحبةِ آخر؟

صاح علاء بحماس:

– دعْهُ يُخبرنا بنفسه.

أردف عمرو:

– رفعتُ سمّاعة الهاتف، واتّصلت برقم غرفتها، وتظاهرتُ بأنّني قصدتُ الاتصالَ بخدْمة الغُرف، وأنه اختلط عليَّ الأمرُ واتّصلت برقمِها عن طريق الخطأ، واعتذرتُ بشدّة لَمَا سبّبتُه لها من إزعاج، ثمّ عرَّفتها بنفسي من خلال حديثٍ طويل دارَ بيْننا، ولم أغفلْ أنْ أشيرَ إلى قدر ما أمتلكُه من ثروة. وعلى الفوْر، أخذتُ منْها موعدًا في المساء.. هل تعرفونَ أينَ كان الموْعد؟

قال علاء بعينيْن واسعتيْن وابتسامةٍ عريضة:

– خارجَ الفندق بالطّبع، حتى لا يراكُما صاحبُها.

– بل كان الموعدُ في حجْرته!

قال عبد الوهاب بدهشَة:

– يا لكَ مِن وغد!

رمقَهُ حسين بنظرةٍ شفقة، وتساءل في نفسِه.. كيف يمكنُ لمخلوقٍ أن يعيشَ في هذا الضّلال، فيسيء إلى نفسه ويهدْرها إلى حدّ أنّه يتباهى بما يغضِبُ الله؟!

قال علاء وهو يدفعُ كتفَ فارس دفعةً خفيفة:

– ألا تخبرُنا يا رجلُ كيف ملكتَ قلبَ ناني؟

قال عمرو ضاحكًا:

– هديةٌ ثمينة بالطّبع.

اكْفهرّ وجهُ فارس قائلًا بحزم:

– ناني تختلفُ كلّ الاختلافِ عنِ النّساء اللاتي حدّثتنا عنهنّ.

قال عمرو وهو ينغض رأسَه:

– كلُّهنّ سواء.

أضافَ علاء بخُبث:

– ثمّ إنّ سرعة تجاوبِها معك تدلّ على أنّها مُحترفة!

لمْ يشعرْ فارس بنفسِه إلّا وهو قابضٌ على ذراعِ علاء، صارخًا في وجْهِه:

– أحذّرك.. إلّا ناني!

ثمّ ترك مجلسَهم، ومضَى غاضبًا.. فقال حسين وهو ينظرُ إلى عمرو وعلاء:

– لا يليقُ أن نتحدّث عنْ عِرضِ فتاةٍ بهذا الأسلوب المُخِلّ.

نهضَ علاء، واقتربَ منْه قائلًا بابتسامةٍ لزِجَة:

– وما شأنُك؟ هل بينَكَ وبينها أنتَ أيضًا علاقةٌ تُخفيها عنَّا أيّها الشيخ؟!

قال حسين باشْمئزازٍ وهو ينهضُ مِن مكانِه:

– كلامُك أحقرُ مِن أنْ يُرَدّ عليه.

صاح عبد الوهاب وهو يمسكُ ذراعَه:

– لا تغضبْ يا حسين؛ علاء يمزَح، ولا يقصِدُ ما قالَه.

حرّر ذراعَه مِن قبضة عبد الوهاب، وخطا خطواتٍ واسعةً نحو الشاليه، وبدأ عبد الوهاب يلومُ علاء، فنشَبَ نزاعٌ آخر بينهما. نظرَ إليهما عمرو بضيق، ثمّ جالَ ببصره إلى حسين وهو يَبتعد، وأخذَ يتساءلُ في نفسه.. هل هناكَ امرأةٌ تستحقّ أنَ يتنازعَ عليها الرّجال؟! وهل أخطأ في حقّ نانِي عندما شكّك في إخلاصِها لكوْنها امرأة؟ هزّ كتفيْه بلا إجابة، فهو لمْ يعرفْ في حياته إلّا نوعًا واحدًا مِن النساء، وللأسف لم يستثني أمّه منهُنّ، فقدْ علمَ أنّها تخلّت عنْ أبيه منذُ زمن؛ تركتْه وسافرتْ إلى بلدتها بعدَ أن كتبَ لها جزءًا كبيرًا مِن ثروته، وحصلتْ على غايتِها منه. تذكّر حينما كانت تزورُ مصر بينَ حين وآخر بعدَ أنِ افْترقتْ عن والده؛ لتراه أيّامًا معدوداتٍ ثمّ تعودُ مِن حيثُ أتَت، وأخذتِ الفتراتُ بينَ الزياراتِ تتباعد حتّى ذهبت يومًا ولم تعدْ. جالَتْ بخاطره معاناةُ أبيه، فلمْ تستطعْ ثروتُه أنْ ترْتقَ جرحَه، ولم يجدْ عن

زوجته بديلًا، وعلى الرغم مِن قوّته وحِدّته التي قد تصلُ إلى حدّ القسوة أحيانًا؛ لم يستطعْ أن يتغلّب على فراقِ مَن أحبّ، حتى الخمر لم تنْسِه إيّاها، وصرخ بداخلِه.. كيف يكونُ العالمُ غيرَ مُنصفٍ إلى هذا الحدّ؟ فالزوجةُ التي باعتْ حتى فلذة كبدِها، رحلتْ ولم تدفع الثّمن، والزوجُ الذي قدَّم قلبَه لحبيبتِه على طبقٍ مِن ذهب، ماتَ بحسْرة الفراق. الكلُّ خائنٌ والكلُّ يبيع، والخاسرُ هو مَن يسقطُ في الحبّ.

***

لأوّل مرّةٍ، يجولُ طيفُ شادي- زوجُ فيفيان- في ذهنِها، أثناء جلوسِها في صالة المعيشة بالدّور العلوي، تُرى ماذا يفعلُ الآنَ في غيابها!؟ ولأوّل مرّة تشعرُ بذنب لما سبّبتْه له مِن حيرةٍ وألمٍ لتركها إيّاه، ولكنّها سرعان ما تراجعتْ وهي تتساءل.. ما الدّاعي لعذابِ الضمير؟ فزوجُها يستحقّ أن ينالَ كلّ عقابٍ لاقتحامه حياتَها رغمًا عنها! فدفع بمهره المُغري، وهداياه السخية أباها لِلضغط عليها حتى تقبل زواجه، تذكرت يومًا وهي تبكي، تحاول باستماته إقناع أبيها بأن يقلع عن قراره، فيصيحُ غاضبًا:

- أجننتِ؟! بدلا من أن تسعدي بعريس كهذا ترفضينه؟! انظري في مرآتك، وقارني نفسك بإخوتك، واشكري الرب على إرساله رجلًا لخطبتك لا يعنيه الجمال!

مسحت دمعها حين سمعتْ صوتَ مريم وهي تصعدُ مِن الطابق الأرضي، وفي يدِها كوبٌ من الحليب الدافئ، وتقول:

- فيفيان، لقد أحضرتُ كوبًا من الحليب بالعسل، ذا فائدةٍ كبيرة لكِ.

تناولتْه منها قائلة:

– مريم، أنتِ أحنّ عليَّ من إخواتي.

جلستْ بجانبها وهي تسألُها باهْتمام:

– ألكِ أخْوات؟

– نعم، كلّهنّ خرّيجاتُ كليّات مَرْموقة، ويتمتّعْن بقدر كبيرٍ من الجَمال.. فأنا بينهنّ البطّةُ السّوداء.

قالتْ مريم، بشيء من اللوم، وهي تضعُ يدَها على كتفها برفْق:

– لا تظلمي نفسَك بكلامِك هذا يا فيفيان؛ فجَمالُ روحك طاغٍ، والعيبُ كلّ العيب فيمَن يعجزُ عنْ إدراكِ ذلك الجَمال.

دمعَتْ فيفيان.. فمريم يفوحُ منها عبيرُ حبّ ظنّت أنْ لا مكانَ له في دنياها.. وقدْ قيل لها إنّ الله محبة، ولكنْ غيابُ ذلك الحبّ في قلوب مَن كانوا حولَها أفْقدَها الإيمانَ به! نظرتْ إلى مريم بامْتنان، وقرّرت– إنْ بقيَت على قيْدِ الحياة حتّى يوم الوضع– أنْ تسمّي رضيعَها (مريم) إنْ كانت بنتًا، أو (ملاك) إذا كان ولدًا؛ حتّى يذكّرها بها في الحالتيْن. ولم تفقْ مِن أفكارها إلّا على صوتِ مريم وهي تقول:

– ما رأيُك في أنْ تأتي معي لنقرأ معًا تحتَ مظلّة الزّهور، ونستأنسُ بصُحبة بقيّة المجموعة؟

– معذرةً يا مريم، دَعيني أخْتَلي بنفسي اليوم.

ربتتْ على شَعْرها بحنان، ثمّ أخذت كتابًا وقالت وهي تهمّ بالنّزول:

– كيْفما تشائين يا فيفيان.

***

كانتْ ترسم تقاطيعَ وجهِه، كما وعَدَته، ولاحظتْ عليه عبوسًا لم تعهَدْه مِن قبْل، فسألته:

– فارس، كيف يمكنُني أنْ أرسمَ وجهَك وأنتَ مُتجهّم هكذا؟!

لم يردّ، وظلّ شاردًا، فاسْتطردت:

– ما بكَ يا حبيبي؟

– لا شيء.

ولكنّه لم يستطعْ حبسَ توجّسه الذي أشعلَه علاء في صدْره منذُ الصّباح، ففاجأها بسؤاله:

– ناني، هل عرفتِ رجلًا قبْلي؟

وضعتْ فُرشاتَها، واقتربتْ منْه، وقالت بصوتٍ خافتٍ وهي تضع يدَها على كتفِه برقّة:

– وما الدّاعي لذكْر ماضٍ انقضَى؟

قال بحزم:

– أريدُ أنْ أعرفَ كلّ شيء عنكِ، فلا تخفي عنّي شيئًا.

عادتْ إلى لوحتِها، وقالت بهدوء:

– كان أخًا لصديقتي، وكنتُ أراه حينما كان يصطحبُها من المدرسة. وعلمتُ من نظراتِه أنّه يُحبّني.. أمّا أنا فأردتُ بعلاقتي به أنْ أتمرّد على القيودِ التي فُرِضَت عليَّ، فكنت أتلذّذ بخروجي معه خِلسة لشعوري بأنّني أتحدّى به أبي وغلظتَه.. ومع مُرور الوقت، أدركتُ أنّني لم أحبّه يومًا؛ فتركتُه.

نظرَ فارسُ في عينيها يسألها، وكأنّه وكيلُ نيابةٍ يستجْوِب متّهمًا في جريمةٍ مُروّعة:

– إلى أي مدًى وصلتْ علاقتُك به؟

قالتْ بدهشة:

– ماذا تقصِد؟!

هزّ كتفيْه مُشيرًا إلى أنّه لا يملكُ ردًّا على سؤالها، وإذْ بصمتِه يُعلن عنِ اتّهامٍ لم يكنْ في حُسْبانها؛ فقالتْ غاضبةً ودموعُها تسيل:

– ماذا أكونُ في عينيْك؟ هلْ تعتقدُ أنّني سهلةُ المَنال إلى هذه الدّرجة!؟

قال ساخرًا:

– على الإطلاق. وأنا شاهدٌ على ذلك.

صاحتْ بانْزعاجٍ وحَسْرة:

– هل هذا جزائي لأنّني وضعتُ قلبي بيديْك؟!

ذبحَها بصمْتِه مجدّدًا، فقالتْ بحدّة:

– وماذا عنكَ؟ وماذا عنْ ماضيك؟ يا لَكَ من منافق، تتكلّم ليلَ نهار عنِ الحريّة والمُساواة، وتخفي بداخلِكَ فكرًا مُتطرّفًا أخرقَ!

ركلَتْ لوحتَها بانفعال، ولاذَتْ بخطواتٍ واسعة لتختفي مِن أمامه، ولم تكنْ تدركُ أنّ كلامها قد نفذَ إلى قلبه، فأخذَ يوبّخ نفسَه ويؤنّبها، وهو يتتبّعها حتى أمسكَ ذراعَها ليستوقفَها، وبدا على صوتِه النّدم، وهو يقول:

– ناني، سامحيني، دَعيني أعترفُ لكِ أنّني أحبّك بجنون، فلم يسبقْ لي أنْ أحببتُ بهذه الطريقة، وأغارُ عليكِ حتّى مِن ماضيكِ!

جذبها في أحضانِه، فأخذتْ تبكي بحرقةٍ بين ذراعيه، وهي لا تدري كيفَ غفرتْ له إهانتَه بهذه السّهولة، وما سرّ استسلامِها للمَساتِه، ولمْ يمرّ وقتٌ طويل حتّى هدأت، وعادت تمسكُ فرشاتِها بحماس لترسمَه وهو يجلسُ بوداعةٍ بيْن يديها، سابحًا في عالمِها مِن جديد.

***

كان عبدُ الوهاب ينظر من خلال النافذة الزجاجية وقتَ غروب الشمس، كم تمنّى أن تكون معه زوجته "مها" ليلحق معها بركاب العشاق! فقد أثلجَ صدره رؤيةُ فارس، ذلك النشط الذي يشعُّ حيوية وشبابًا، وهو يجلس على الشاطئ مستكينًا بلا حراك، تملأ ناني منه عينيها، ثمّ تسقي منه بفرشاتها لوحتها وترسمُ تقاطيع وجهه بمنتهى الدّقة والإبداع، كان بين حينٍ وآخر يطلب إليها أن تريَه ما رسمت، فتنصحُه بالتحلّي بالصبر حتى تنتهي من اللّوحة، فيعود كتلميذٍ ينصاع لأمر معلّمته.

اقتربَ منه حسين، فرآه مشدوهًا أمام النافذة، فقال مبتسمًا:

– ما أروعَ منظر ذوبان الشمس في البحر وقتَ الغروب!

التفت إليه عبد الوهاب قائلًا:

– حقًّا إنه منظرٌ بديع، ولكني أتابع ذوبانَ فارس في عيني ناني، وهي ترسمه.

رمى بصرَه بعيدًا إلى الناحية الأخرى، ثمّ وكزَ حسين بمرفقه وكزةً خفيفة في صدره، واستطرد قائلًا:

– وهناك أيضًا مَن تقرأ كتابًا بانْهماك تحت مظلّة الزهور.. ألا تريد أن تنضمّ إليها حتى تؤنس وحدتها؟

نظر حسين نحو المظلّة، فوجدها تسدلُ شعرَها على كتابها بين أغصان الزّهور البديعة، تقرأ بهدوء، فهمَّ ليلحق بها، فجذبه عبد الوهاب مِن ذراعه قائلًا:

– خذْ في يدك كتابًا تتعلّل به، أمْ ستجلس صامتًا بجانبها كالتمثال؟!

ربتَ حسين مبتسمًا على كتفِه، ثمّ جذب عبد الوهاب كتابًا موضوعًا على طاولة جانبية، ووضعه بين يديه، أخذه حسين واتّجه مسرعًا إليها، وعندما وصلَ إلى مظلة الزهور شدّ كرسيًّا وقال وهو يجلس:

– هل أزعجُك إذا قرأتُ بجانبك؟

ابتسمتِ ابتسامةً أنارت العالم بها، وقالت:

– بالطبع لا يا حسين، هذا يسعدني.

بل ستحقّق حلمي بالقربِ منك، ولو لبعض الوقت، وأرجو أنْ يطول.، هذا ما أرادت أن تضيفه، ولكنها كتمتْه في نفسها، وعادت إلى القراءة في صمْت، أو هكذا ظنّت، فقد تاهتْ في عينيه اللتين كانتا تطلّان عليها من كلّ سطرٍ تقرؤه، فلم تعدْ تفقه الكلمات ولا السطور، أمّا هو فلم يستطعْ أن يحولَ بصره عنها رغم محاولاته، وعلتْ دقات قلبه، تثورُ عليه، لماذا لا يهزم الجمود، ويصفُ لها حاله؟ لماذا لا يصرّح لها بأنه أحبّها أكثر من نفسِه التي بين جنبيه؟ ولكنّه كان يعلم ما لجم لسانه، إنّه الخوف.. خوفه الشديد مِن أن يتركها معلَّقة بهواه إذا استحال ارتباطُه بها، الخوفُ من أن يكره نفسَه إذا تأوّهت آهةَ عذاب لفراقه. سألها ليسكت صوتَ أفكاره ولو مؤقّتًا:

– يقولون إنكَ يمكنُ أن تعرف جانبًا من شخصية أي إنسان إذا عرفت ماذا يقرأ.

وضعتْ كتابَها على المائدة، وقالت برقّة:

– أقرأ عن سيْكلوجية الأطفال؛ لأعرف المزيدَ عن حالتهم النفسية، وكيفية التعامل معهم.

شعرَ أنها ليست بحاجةٍ لمعرفة أغوار الأطفال، فهي لا تزال تتمتّع بقدرٍ كبير من طفولتها بكلّ براءتها وجَمالها اللذيْن يميّزانها، فسأل سؤاله بصيغةٍ مغايرة:

– وما الذي يثير اهتمامَك بهذا الموضوع؟

أخذتْ نفسًا عميقًا، ثمّ قالت:

– الإلمام بنفسيّة الصغار من صَميم عملي، فأنا مُعلمة حضانة في مدرسةٍ خاصة، بالإضافة إلى ذلك، عانيت كثيرًا في طفولتي، وأعلمُ أنّ الأطفال أيضًا لهم مشاكلُهم التي لا يشعر بها الكبار، فأردت أن أخفّف بعض معاناتهم باكتسابِ بعض الخبرات المميّزة والمذكورة في الكتاب.

أعجبَها إنصاتُه إليها باهتمام، فأردفت قائلة:

– يعني مثلًا إذا رغب طفلٌ في اقتراف خطأ ما، فلنقل مثلًا إنه يريد أن يرسم على الحائط، فلا تمنعه إلّا بعد أنْ تكون قد أوجدت له بديلًا، ككراسةِ ألوان وأقلامٍ ليشبع بهما رغبته.

قال وقدِ ازدادَ إعجابه بها:

– يبدو لي أنّ مهمتك أصعبُ من مهمتي.

رمقتْه بنظرةِ لومٍ وهي تقول:

– لا تقلّل من شأن عملك، فأنت تدرك جيدًا قدرَه ومدى صعوبته.

سكتتْ قليلًا، ثمّ أردفت:

– ما الذي عرفتَه عني بعد معرفتك بقراءاتي؟

– الحكمة والإتقان، والحنان والبراءة، ولكن كلّ هذه الصفات أدركتها فيكِ من قبل.

رمقَها بنظرة عميقة أربكتْها، ثمّ نظرت إلى الكتاب الذي بين يديه، وقالت:

– دعكَ مني، فقد جاءَ دوري لمعرفة جانبٍ جديدٍ من شخصيتك..

وبعدَ أن قرأت عنوانَه، صاحت بدهشة:

– كتاب عن الحمل والرضاعة!! إنه جانبٌ غريب جدًّا من شخصيتك، لا أستطيع تفسيرَه.

ارتبكَ حسين، بل وكادَ يدعو على عبد الوهاب الذي دسَّ الكتاب بين يديه، فقد بدا له أنّ الكتاب يخصّ فيفيان.. فقال بكلماتٍ متقطّعة، ولأوّل مرة يحاول الكذبُ أن يجد طريقًا للسانه:

– إنّها... إنها إحدى مراسلاتي على وشْك الوضع.. فأردتُ أن... أن..

سقط الكتابُ من يده من شدّة انفعاله، فوقع بينهما، وانحنى ليلتقطَه من على الأرض، وفي نفس الوقت انحنتْ هي لتأخذه، فكادَ وجهها يلامس وجهَه، احمرّت وجنتاها، وارتجفت شفتاها المتعطّشتان وهي تنظرُ إليه، واهتزّ هو، وتسارعتْ أنفاسه، وودَّ لو يقيّد ذراعيه بقيْد من حديدٍ حتى لا يأخذها في أحضانه، ويضمّها بين ذراعيه بقوّة حتى يذوبَ فيها، فانتفض فجأة، ونهض من مجلسه وابتعد.. اتّبعته وهي تريدُ أن تصرخ فيه؛ لماذا ضنَّ عليها بقُبلة الحياة؟ فهمست مِن ورائه قائلة:

– حسين، هل الحبّ حرامٌ في نظرك؟

استدارَ إليها، وقال بحماس:

– الحبّ الطاهر بين الرجل وامرأته آيةٌ من آيات الله، فكيف يكون حرامًا؟!

يا ليتَها تنتصر على شيطانها، وتعود إلى الله! هذا أقصى ما يتمنّاه الآن، فهو يتوقُ إلى أنْ ترسوَ بعد رحلة ضياعٍ في أحضانه، فقال وهو لا يزال يسير إلى جانبها وقد ازدادَ حماسًا:

– مريم، انظري إلى آثارِ الله فينا، هل يمكن أن يكون توْقنا إلى الرحمة والعدل والجَمال صدفةً دونَ هدفٍ أو غاية؟ هل يولد الحبّ في قلوبنا ليُدفن في التراب؟

نظرتْ في عينيه، إنها تحبّه.. ولكنها ترى غيرَ ما يراه، فقالت وقد وصلا إلى الممشى المطلّ على حمّام السباحة:

– الحبّ.. ما هو إلّا رغبةُ البشر في استمرار النوع.

توقّف، وسألها في حسرةٍ وقد قارب بين حاجبيه وهو ينظرُ في عينيها:

– ياه! ألهذا الحدّ انكمش الحبّ في نظرك، وانحسر في الغريزة؟

نظرتْ في عينيه في ذهولٍ من قوله، وصاحتْ تدافع عن نفسها:

– بالطبع لا، ولكن أصل الحبّ هو الغريزة، والغريزة دالةٌ عليه.

– وهل اعتداءُ رجلٍ على امرأة دليلٌ على حبّه لها، أمْ دليل على تلبيته لشهوته ورغبات جسده؟

لم تكنْ تتوقّع أن يتطرّق الحديث معه إلى هذا الحدّ، فصمتَتْ وقد احمرَّت وجنتاها خجلًا منه، فاستطردَ قائلًا بحنان:

– أمّا الحبّ يا مريم فعكسُ ذلك، فالرجلُ يفني نفسَه مِن أجل مَن أحبّها، قد يضحي برغباتِ جسده لإسعادها، فيضحّي بلقمة عيشٍ على الرغم من جوعه ليضعَها في فمها، وقد يصل الأمرُ إلى أن يموت فداءً لها.

أشفقَ عليها عندما تعذّر عليها النظر في وجهه من شدّة الخجل، فتوقّف عن الكلام، ولو أكمل حديثَه لقال لها ما أروع قُبلة يعبّر بها الرجل عمّا يجيش في صدره من حبٍّ طاهر خالص لامرأته! فاشتياقُه للمساتها لا يوصف، وينتظرُ بفارغ الصبر يومًا تصلُ فيه أميرته إلى قصره.. أمّا هي فأخذت تتأمّل تعريفه للحب، فقد وصف بدقّة حالَها معه، ثمّ تنبَّهت إلى عدم تطرّقه في تعريفه إلى ما اشتاقتْ إليه نفسها من حرارة القرب، فهل خلتْ علاقتها معه من تلك التعبيرات السّاحرة من قُبلات وأحضانٍ لتقديسه للحبّ الأفلاطوني، أمْ لعدم إحساسه بها؟ لم تجدْ إجابة شافية.. ومنعها حياؤها من الاستطرادِ في حديث كهذا، وبدا لها أنّ توقعات ناني في محلّها، إذْ تنبأت بشقائها وعذابها جرّاء حبّها له من البداية.

***

أرخى الليلُ سدوله، واستكان أفرادُ مجموعة (كفرْنا بالعيشة) كلٌّ في فراشه، وفجأة استيقظتْ مريم وفيفيان في منتصف اللّيل على صراخ ناني، هُرعت كلٌّ منهما إليها في قلق، وجدتاها ترتعدُ أوصالها وتصطكُّ أسنانها في ذُعر وخوف. أسرعتْ مريم إلى الطابق الأرضي؛ لتناولها كوبًا من الماء،

فوجدتِ الرجال قد اسْتيقظوا، بعد أنْ شعروا بحركاتهنّ في الطابق العلوي، نهض عبد الوهاب من فراشه قائلًا:

– ما خطبكنّ يا مريم؟

– لا أعلمُ ما حدث لناني، استيقظتْ في حالةٍ من ذعْر عجيبة، لا أفهمها.

شجَّعت فيفيان ناني على النهوض من فراشها، والجلوس في غرفةِ معيشة الطابق العلوي، عسى أنْ تتبدّل حالتها النفسيّة بتغيير المكان، وصعد الجميع إليها للاطمئنان، سَقَتْها مريم من كوب في يدها، وأخذَ فارس مجلسَه بجانبها، ثمّ حاوطها بذراعه، وأخذ يربتُ على يدها ليطمئنها، وبدأت أنفاسُها تهدأ رويدًا، فسألها عمرو:

– أهو كابوس؟

قالت ناني وهي تبكي:

– هذه الحالة تنتابني بين حينٍ وآخر، كلّما رأيت أبي في المنام، فيضيق صدري برؤيته، حتى أكادُ أختنق، أراه يطاردني، و...

منعَها بكاؤها من الاستطراد، فقال عبد الوهاب بحماس:

– ولكنّه مجرد حلمٍ يا ناني، فلِم كلّ هذا الخوف؟ لقد مات الرجل.

قالتْ مريم وهي تربتُ على شعرها بحنان:

– لقد صدق عبد الوهاب، إنه ماضٍ ولّى، فعيشي حاضرك واسْعدي به.

صاحتْ بين دموعها:

– أحاول جاهدةً أن أنساه، ولكنْ يداهمني ذلك الكابوس بغتةً ليذكّرني بمعاناتي الأولى، فما تجاوزت قسوةَ أبي حتى بعدَ مرور تلك السنين، لقد كان قاسيًا، متحجّرًا، غليظَ القلب.

فقال علاء– وقد انتهزَها فرصة– وهو يقضم قطعة خيار أخذها معه من الطابق الأرضي:

– لقد حوّله دينه إلى وحشٍ كاسر، فحتى الآن لم تستطيعي الفرَّ من أنيابه.

اقتربَ حسين من ناني قائلًا بصوتٍ هادئ:

– ناني، تأكّدي أن أباكِ لم يقصدْ أبدًا إيذاءك، فقد فعل بجهلٍ ما ظنّ أنه يصبّ في مصلحتك، وهو في النهاية كان إنسانًا، يخطئ ويضعف كأي إنسان، أبوكِ بحقّ يستحقّ الرثاء لفِهمه الخاطئ للدين، فالدينُ الذي غابت عنه الرحمة، ليس بدين.

نظرتْ إليه بعينين دامعتين، وقد أراحتْها فكرة أن ترى في أبيها المتحجّر الظالم، ذلك الإنسانَ الضعيف الذي يستحقّ الرثاء، وأغمضتْ عينيْها وهي تقول بعد أن توقّف نحيبها:

– الآن أشعرُ بتحسّن، أشكركم جميعًا، وأعتذرُ عن إزعاجكم في هذا الوقت من الليل، هيّا، فلنخلد إلى النوم، وعسَى ألّا أراه ثانية في منامي.

قالت فيفيان بابتسامةٍ شاحبة وهي تهمّ بالوقوف:

– آه لو يستطيع المرءُ أن يتحكّم في منامه!

قال حسين بلؤم:

– اسألي فارس، فهو يدَّعي أنه يمسك بزمام كلّ الأمور، ربّما يدلّنا على كيفية التحكم في أحلامنا.

قال فارس بثقةٍ وهو ينهض:

– بحكْم وظيفتي كمُبرمج، أرى أنّ مخّ الإنسان يعمل تمامًا كجهاز الحاسوب، وذاكرته هي القرصُ الصلب، فبيْن حينٍ وآخر نقوم بإعادة ترتيب الملفّات المحفوظة داخل القرص فيما يسمّى بعملية إلغاء التجزئة أو (ديفرجمنتيشن) حتى يعملَ الجهاز بشكلٍ أفضل، وهذا ما يحدثُ لنا في مَنامنا، فنرى ملفاتٍ من الذكريات، وهي تتجمَّع ويعاد ترتيبها، فتظهرُ لنا على هيئةِ صور وأحداث قديمة ليسَ لها معنى.

صاحَ عبد الوهاب وهو يتبع فارس إلى الدّرج:

– معنى هذا أنّه قد يتطوّر جهاز الكمبيوتر فيتكوَّن له وعي، وينافسنا – نحنُ البشر – في حياتنا وأعمالنا.

أجابَ فارس بثقة:

– ولِمَ لا؟ فلا يمكن تصوّر ما قد تحمله لنا معجزاتُ العلم مستقبلًا.

قال حسين بثقةٍ أثناء نزولِهم إلى الطابق الأرضي:

– هذا استنتاجٌ منمّق وجميل، ولكنه نوعٌ من أنواع الخيال العلمي، يستحيل تحقيقُه، فلا بدّ من بثّ الحياة والمشاعر والمبادئ والقيم والضمير في الحاسوب أولًا وبالأحرى، بثّ النفس– التي هي مِن روح الله– فيه.

صاحَ عمرو العلايلي وهو يحكّ رأسَه يدَّعي التأمل:

- شيكو بيكو.

سأله فارس بعد أنْ توقّف:

- ماذا تعني؟!

أجابه عمرو ضاحكًا:

- لستُ أقلّ من حسين في شيء، أتحدّث عمّا لا تعلمه ولا تراه ولا تلمسه.

ضحكَ الجميع ضحكًا هستيريًّا، وأخذ كلّ منهم يضيف على مزاح عمرو، أمّا حسين، فهزّ رأسه مستنكرًا، وضرب كفّيه ببعضهما متظاهرًا بأنه غير مبالٍ بضحكاتهم التي لم تتوقّف حتى عودة كلّ منهم إلى فراشه.

***

أخذتْ مريم تتقلَّب في فراشها، وقد جفاها النومُ وهي تتذكّر قهقهتَهم أثناء نزولهم إلى الطابق الأرضي، كمْ آلمها ردُّ فعلِهم تجاه قُرّة عينها، ولم تعدْ تقوى على الدفاع عنه كعهدهم بها سابقًا، بعد أنْ كشفت لهم نظراتها وملامحها بل كلّ حركاتِ جوارحها إحساسها نحوه واشتياقها إليه، وتساءلت في نفسها، لمَ يصرّ حبيبها على التفوُّه بأشياء تُثير تهكّمهم؟ فالأسلمُ أن يسلم نفسه منَ لذعات ألسنتهم وسخف إيماءاتهم، وأخيرًا قرّرت ألا يقر لها جفنٌ إلّا إذا أرشدته إلى السبيل للوقاية.

***

جرى كعادته، يلقي للبحرِ همومه، إلى متى يسخرون منه كلّما حاصرهم بحجةٍ دامغة أو دليل؟ فما السبيلُ لتلك القلوب العنيدة؟ تذكّر قولَ الله تعالى لرسوله "فذكّر إنّما أنتَ مذكّر، لستَ عليهم بمسَيْطر"، وبدأ يهدأ إثْر ذكْره كلامَ ربه، فما يملك إلّا حجته ولسانه، ولا يحتكم على أحدٍ منهم بهداية أو تهذيب أو توجيه.

شعرَ بخطواتها تقترب، التفتَ وراءه فوجدَها تخطو خطواتٍ صغيرةً وسريعة، وقد ارتدت رداءً ثقيلًا ليقيها بردَ منتصف اللّيل، وكعهده بها رآها ملاكًا يسرع لتهدئته كلّما اشتدّ عليه اليأس والحزن، جاءته مهرولةً بتلك النظرة الآسرة الحالمة، وعندما دنتْ منه، نهضَ من مجلسه فإذْ بها تقول له بانفعال:

– حسين، لقد سمعتُ مزاحهم على الدّرج.. كم أكرهُ أن يمسّك أحدهم بسوءٍ وإنْ كان مزاحًا عقيمًا! إنك لا تعلم مدى معاناتي وألمي.

قال لها بامْتنان:

– أعلم صدقَ شعورك، وأقدِّره.

قالتْ وهي تتخلّل بأصابعها خصلاتِ شعرها لتحاول منعَه من أن يحجبَ وجهَها إذا تطاير في اتجاه الريح:

– لي رجاء عندك.

ابتسمَ قائلًا:

– سمعًا وطاعة سيدتي.

وقف الكلامُ في حلْقها لثوان، ولكنّها شعرت بضرورة البوْح به، فالحبيبُ مرآة حبيبه، تعكسَ ما خُفي عنه؛ حتى تصونه وتقيَه شرور من يمكرون، فصاحت وهي تضع يدَها برفقٍ على كتفه:

– لا أحدٌ يملك أن يغيِّر قناعات غيره.. فدعْك من الحديث عن إلَهك، فما الداعي لذكره ونحنُ ندرك أنّ الكلامَ عنه لن يفيد؟! فكلٌّ له منظوره، وكلٌّ متمسّك بما يراه صوابًا.

نزلتْ عليه كلماتُها كالصاعقة، أيقظته من أحلام الوئام، فحبيبتُه تذكره، بقوة، بموقفها تجاه خالق السّماوات والأرض، وفالَق الحبّ والنّوى، فشعر بضرورةِ وأد ذلك الحبَ الذي توغّل فيه وتَفَشَى، والذي لنْ يجني منه إلّا الآلام والجراح، فكيف يطيق قلبه أن يدقّ لَمن أوصدَت قلبها بجحودٍ لمنبع الخير والحبّ كله؟! كيف تنمو تلك النّبتة وتترعْرع إنْ لم تكن تُروى وتصان بدعاءٍ مُستجاب؟! كيف ترك هواها يستفحلُ ويعربدُ في قلبه الجريح؟! إن الحبّ كما يراه ليس مجرد رجل وامرأة، ولحظات مبهرةٍ فانية لن تدوم، الحبُّ اندماج في المبدأ والعقيدة، وأيامٌ مقبلة تحْمِل ذرية طيّبة، ويُعاون فيها كلٌّ من الزوجين الآخر على النجاة من شرور الدنيا، إنه علاقةٌ تتجاوز العالمَ الملموس إلى غيبٍ مجهول ليس له منتهى، ومريم هذه.. هل هي محنتُه أم منحتُه؟ اخترقَ جسدها المَمشوق بعينيه، وهي تقفُ حائرةً بين يديه، ونفذ إلى قلبها الصغير النقي الشفيف نقاءَ وشفافية كريستالٍ أصيل، وتساءل: كيف لقلبٍ نقي أن ينكرَ الحق، وعهده بالنقاء أنه يشقّ طريقًا ممهدًا إلى الله؟ رفع عينيه إلى السماء يدعو ربّه أن يصوِّب فؤادها باتّجاه بوصلة وقرتْ فيه، فالله إنْ أنكرته بعضُ

العقول تدركُه ضمائر حيّة تسكن القلوب، لا يمكن أنْ يئول الخير والشرّ والحبّ والمقت إلى تراب، فهذا ظلمٌ تخرّ منه الجبال أو تزول، وما لم ترَ حبيبته الحقّ ساطعًا، فعشقه سيكون وبالًا، ولا يمكن أن يدوم، مهما كره الفراق. عادتْ تقول برجاء:

– إنّهم يحبّونك، ولكنّ كلامك عن الله سوف يبدّد ذلك الحب.

استنكر شرطَها لمودّتهم، كيف يمتنع عن ذكر الله، وأنفاسُه وأنفاسهم بيده؟! وما قيمة الإنسان إذا تساوى عنده العدلُ والظلم، وأصبحت الألوانُ بدرجاتها مجرّد وجهات نظر، لا فرق بين أبيض أو أسود أو رمادي؟ ثمّ إنّ شرطها هذا يسقطُ لا محالة حتى إذا قيَّم الأمر بلغةٍ يفهمونها، فكيف تحرمُه حقَّه في حرية التعبير عن رأيه؟ لا بدّ أن يتراجعَ بهدوء، قبل أن يشتدّ سقوطه في سحرِ هواها، ويندم حيث لا ينفع الندم، فطبعَ ابتسامةً على شفتيه يخفي بها ما ألَمٍّ به من يأسٍ وحسرة، وقال بهدوء:

– مريم، إذا أردتِ تغييري، فأوقفي الأرضَ عن الدوران، أو امْنعي هطولَ المطر إن استطعتِ، أو غيِّري اتّجاه الريح، فوالله لن أتغيّر إلّا أن يشاء الله. سامحيني، فلا أستطيع منحك ذلك الوعْد.

تعجّبت من نفسها، فإنّها لم تغضب، ولم تنفعلْ لرفضه القاطع لما جاءت مِن أجله، بل بالعكس.. لقد ازدادتْ تشبّثًا به لاعتصامه بمبادئه، وإنْ كانت غير مؤمنة بها، فهو لنْ يتخلّى عن مناصرة ما يراه صوابًا في سبيل درْء سخرية أو اكتساب ودّ، وتذكّرت كلامه حين قال لها ذاتَ يوم إنّ الناس نوعان، فهناك مَن يتمسّك بمبادئه أيًّا كانت، وهُم قلّة قليلة، وهناك مَن يتنصّل منها،

وهُم سواد الناس.. وقد رأت أنّ حبيبها- أو رجلها كما كانت تطلق عليه حينما كانت تحدّثها عنه نفسها- ليس له مثيلٌ في الامتثال لقيَمه، كم ذابتْ في عينيه، ورنين صوته، وهو يمشي بجانبها تحتَ مظلَّة الزهور لتوصيلها إلى الشاليه!

***

خرجَ حسين مع عبد الوهاب إلى السوق كعادته في صباح اليوم التالي، واندفعا في طريق الساحل، وقد كَسَا وجهَه الحزن والأسى، لم يكنْ يدري أيّ الأمرين أشدّ وطأة على نفسه، هل هو إصرار كلّ مَن حوله على جحوده وإنكار الله الأشد إيلامًا له، أمْ هو عشقه المَمنوع الذي لا يجدُ له تفسيرًا أو تبريرًا إلى الآن؟ تذكّر كيف تحاشاها في الصباح الباكر حين رفضَ قهوتها التي أعدّتها له، ثمّ غادر القاعة الرئيسية تاركًا إياها في حالةٍ يُرثى لها. شعرَ عبدالوهاب بوجومه، فقال له:

- ألا تريدُ أن تفضي لصديقك بما يؤرقك؟

- لا عليك مني، سأكون بخير.

احترمَ عبد الوهاب رغبتَه في السكوت، وقربَ وصولهما إلى مشارفِ المحلّات قال:

- نحتاجُ إلى شراء لوازم الصيد، فقد عزمتِ المجموعةُ على الصيد غدًا.

ردّ مُتعجبًا:

- ولكنّ القارب الخاصّ بالشاليه لا يمكن أن يسعنا، ولن يتحمَّل إبحارنا عليه في رحلة صيد.

ضحكَ عبد الوهاب وهو يغمزُه قائلًا:

– دعْك من هذا القارب، فقد صُنع خصيصًا للعشاق، لقد أجَّر عمرو مركبًا متينًا يسعنا جميعًا للصيد غدًا.

نفذت إيماءة عبد الوهاب إلى قلبه، فليس لديه ردٌّ على كلامه، والقارب شاهدٌ على عشقه، فما عساه أن يقول وهو يبحثُ عن وسيلةٍ ليوقف نبضَ هواه؟ ورأى أن يتجاهل الأمر كلّه، وراح يقول:

– فكرةٌ مُدهشة! فأنا أحبّ الصيد وأجيده.

وصمتَ بُرهة، ثمّ سأله باهتمامٍ عن شأنه:

– هل ردَّت على رسائلك؟

تغيَّرت ملامحُ عبد الوهاب فجأة إثْر سؤاله، وأجابَ بصوتٍ حزين:

– على الرغم من اقتباسي لكثيرٍ من الرسائل التي أمدَدْتني بها في كتابك فأنّها لم ترد.

ثمّ أومأ برأسِه بيأسٍ قائلًا:

– يبدو أنّها لن تردّ أبدًا.

قال حسين بابتسامةٍ عريضة محتْ عبوسَه، وهو يضع يديْه على كتفيه:

– ستردّ إن شاء الله، وسوف ترى.

***

وفي المساء، لم يكن أفضلَ حالًا، فاتّجه نحو مظلّة الزهور للجلوس، لعلَّ صدرُه الذي ضاق ينشرحُ بزهورها ، فوجدَ ناني تجلس تحتها، تميلُ وتنحني أمامَ لوحتها لترسم بريشتها زهرةً رائعةَ النقوش والألوان، عنقودُها يتدلّى باسْتحياء من أعلى المظلّة الخشبية، رأى لوحتَها ناطقة، نابضةً بالحياة، فصاح مبهورًا:

– ما أبدعَ لوحتك!

التفتَتْ إليه قائلةً بابتسامة:

– كلّ زهرةٍ لوحةٌ أبدعتها الأرض.

كيف للطين أن يُبدع؟! تعجَّب من منطقِها، ولكنّه لم يرغب في الخوض في جدالٍ غيرِ مثمر، وقد علمته أيامُه معهم أن نقاشَهم لا يفيد، ولكنّه رغب في توطيدِ علاقته مع كلٍّ منهم، فاحتواؤهم آخر حصان يمتطيه ويراهن عليه؛ لينتصرَ على كفرهم، فقال:

– ناني، أراك فنانةً رائعة، لِمَ لا تمتّعي العالم كلّه بلوحاتك؟

لمعتْ عيناها، ووضعت ريشتَها جانبًا، فقد شدَّها قوله، والتفتتْ إليه قائلة:

– لقد حاولتُ مرّة، وكانَ ذلك بعد وفاةِ أبي بفترةٍ قصيرة، وأقمتُ معرضًا كبيرًا، وأنفقتُ عليه ما أنفقتُ من مالٍ وجهدٍ ووقت، ولكنه مع الأسفِ لم يكن ناجحًا، فاكتفيتُ بفنّي كهواية.

قال بعدَ أن أخذَ مجلسًا بجانبها:

– ولكنّ ما عرفتُه عنكِ أنّك مثابرة.

– مِن الغباء أن يكرّر إنسان ما فشلَ فيه.

تنهّد، ثمّ قال وهو يعيدُ شعرَه الغزير إلى الوراء:

– ومَن قال إنّني أنْصحك بأن تكرّري ما فشلتِ فيه؟

قالتْ وقد عادتْ ترسمُ من جديد:

– ماذا تعني إذًا؟

قالَ بحماس:

– لقد أقمتِ مَعرضَك بعد وفاةِ أبيك، ولم يكنْ لديْك في ذلكَ الوقت عددٌ مِن المعارف والأصدقاء يكفي لتشكيل النّواة الأولى لزبائنك، وذلك نظرًا للقيودِ التي نشأتِ فيها، ولكن الآنَ تغيَّرتِ الظروف، و اتّسعتْ دائرةُ معارفِك ، وهذا بالطّبع سيكونُ لَه مرْدودُه في عددِ عملائك إذا أقمتِ مَعرضًا جديدًا.

أومأتْ برأسِها، وهي مُنْهمكةٌ في رسمِها، فأردفَ وهو ينظرُ إلى لوحتِها بإعْجاب:

– حاولي أيضًا أنْ تشتركي بلوحةِ الزّهرة هذه في مُسابقاتٍ عالميّة على الإنترنت؛ فإنّي أراهنُ عليها.

ابتسمت قائلة:

– سوفَ أفكّر مليًّا في الأمر.

كلّ يوم يمرّ كانَ بمثابة خطوةٍ يخطوها نحو الوصول إلى قلوبهم، ومع ذلك لم يستطعْ أن يحرِّك فكرهم قيدَ أُنْملة، هل حقًّا هناك أملٌ في هداهم؟! لقدْ بدا

له أنّ العلاقات الإنسانية ليست كافيةً لإضاءة قلوب مُظلمة بكفْرها، وأنَّ ما ترجّاه باتَ سرابًا، فقلوبُهم قاسية كالحجارة، فكيف يطلبُ أن تلين؟!

***

صعدتْ ناني وهي تحملُ لوحتها بعدَ أن انتهتْ من رسمها، فوجدتْ مريم في انتظارها، تقطع حجرة المعيشة في الدور العلوي ذهابًا وإيابًا، في حالة قلقٍ وتأهّب، فصاحتْ عند رؤيتها قائلة:

– فيمَ كنتما تتباحثان؟

قالتْ ناني بابتسامة:

– عنْ إبداعاتي.

قالتْ بانفعال:

– ألم يذكرني؟

ارتبكتْ ناني قليلًا، ثمّ قالت:

– نعم.

قالتْ بصوتٍ مخنوق:

– كنت أستحسنُ عذابي معه، ولكن لم أعدْ أطيق غموضَه.

رمقتْها بنظرةٍ خاطفة، ثمّ استطردتْ قائلةً بعطف:

– مريم، واجهيه، فالمواجهةُ أقصر الطّرق لإيجادِ حلول.

***

استلقى على ظهره تأهّبًا للنوم، ثمّ أغمضَ عينيه، وإذْ بصورة مريم تلاحقه من جديد، جالَ بخاطره لمسةُ يدِها على كتفيه، وابتسامتُها وهي تتفتّح بين الزّهور، وعيناها وهما تخترقان قلبه الواله، تذكر أرقَّ أوقاته معها في ذلك القارب الخشبي العتيق، وهو يتهدْهد على سطح الماء، فهمس: قلبي، لمَ تعاندني، أأنت ملكي أمْ ملكها؟ بلْ أنت ملكٌ للذي خلقك، للذي أرادَ لهذَا الحبّ أن يكون، وقدَّر أنْ يسقيك منه وقد كنت ميتًا منذ زمن مِن جفاف، لعلّه اختبار عسير لإيمان وقرَ فيك، هل العشقُ أو الإيمان سيفوز؟ تذكّر يا قلبي البائس أنّك لن تستحقّ أن تنبض لو حِدت عن حقّ عرفته من أجل هواك؛ سينفرطُ أمري بعشقك المجنون إذِ اتّبعتك، كعقد ماسي تتطاير حباتُه في الهواء، وقد بدأ صبري ينفد من عنادك المتصلّب.. تُرى مَن أكون بك؟ أحرًّا طليقًا في رحابِ خالقه، أم أسيرًا ضاقتْ عليه دنيا الحبيب؟ رفع وجهَه لينظر إلى السّماء منَ خلف زجاج النافذة الأمامية، وهمسَ: ربي، لا تحَمّلني ما لا طاقةَ لي به واجعل هواي في طاعتك، فإن كان معصيةً؛ فانْزعه من قلبي، وإن أوقفت دقاته.

***

كان شروق الشمس ينافس شروقَها بفستانها الأبيض الأنيق، يهفهفَ على عودها وهي تقفُ على مقدمة القارب الذي استأجره عمرو، اقتربَ منها علاء حين لاحظها، وبعد أنْ رمى خطّاف صنّارته في قلب البحر، قال بتودّد:

– مريم، اسحبي معي الصنّارة، فإني أسْتبشر بوجْهك الجميل.

قالتْ وهي تبتعدُ عنه:

– معذرة، لا أحبّ الصيد.

وكان عمرو وحسين وفارس قد توزَّعوا على سطح المركب، وكأنّ جميعهم في سباقٍ على اصطياد أكبر عددٍ من السمك، وقفتْ ناني بالقرب من فارس وهو يصطاد، وقالت بدلالٍ حينَ كانَ يرمي بالخطّاف بعيدًا:

– ماذا تنوي فعلَه فوْر عودتنا إلى القاهرة؟

هزّ كتفيه قائلًا:

– عودتنا؟! مَن قال إننا سوف نعود؟ أنسيتِ أن أحدَ الحلول المطروحة لحلّ أزمتنا؛ الانتحار؟!

قالتْ باستنكار:

– هل أنتَ حقًّا مُقتنع بذلك؟

– ناني، أنتِ تعلمين منذ اليوم الأول أنّ نشر الفكر الحرّ أولويةٌ عندي، فأنا لم أخدعكِ، وسوف أعمل جاهدًا لنشر ما أراه صوابًا.

نظرَ في عينيها فوجدَها تترقرق بالدموع، ترك صنّارته، وقال وهو يلفّ ذراعَه حولها:

– بالطبع أحبّك، ولكنّ الحبّ عندي وسيلةٌ وليس غاية، غايتي الحقيقية هي تحريرُ العقول من سجن التخلّف والشعوذة، وأعتقدُ أنّها غايةٌ غالية تستوجبُ التضحية والفناء من أجلها.

أغمضتْ عينيها وهي تقول في نفسها: يبدو أنني أتعسُ حالًا من مريم، فكلتانا معذبة بقلبها.

وقفَ كلٌّ مِن عمرو العلايلي وعبد الوهاب على مقربةٍ منهما، كان عمرو يحاولُ أنْ يصطاد ولو سمكة، أمّا عبدالوهاب فكان يضعُ الطعم في خطّاف عمرو كلّما خلا منه، اقترب منهما حسين وهو يحملُ دلوَه الممتلئ بالسّمك، فرأى عمرو يصيحُ في وجه عبد الوهاب:

– أتقنْ وضْعَ الطعم في الخطّاف، لقد ضيّعت علينا سمكةَ بياضٍ كبيرة.

صاحَ حسين عندما وجدَ دلوَ عمرو خاليًا:

– دلوك خالٍ يا عمرو، أما زلت تظنّ أنّك الرزاق؟

نظرَ عمرو بحسرةٍ إلى دلْو حسين الممتلئ، وقال:

– كيف ملأت دلوَك بكلّ هذا السمك؟

وضعَ دلوَه جانبًا، وهو يقول:

– العلم رزق.

– لِمَ لا تهبُني بعضًا من هذا الرزق؟

لم يبخلْ حسين عليه بأي معلومةٍ تخصّ الصيد، بل مكثَ بجانبه يعلّمه متى وكيف ينزع الصنّارة ويطلقها، ولم يستثنِ عبد الوهاب الذي كان منتبهًا لكلّ إرشادٍ ونصيحة، وبعد عدة ساعات امتلأ دلوهما، فقال عمرو مبتسمًا وهو يخرجُ حفنةَ دولارات:

– أشكرُك يا حسين، لقد أعنتني كثيرًا، خُذ، هذا حقّك.

أجابَ حسين غاضبًا وهو ينظر إلى النقود بازْدراء:

– ما كلّ الأشياء تُباع وتُشترى..

– ألم تقلْ لي إنّ العلم رزق؟ وقد وهبتني منه، وهذه حصَّتك في المقابل.

– بعضُ الأرزاق لا يقابلها ثمن، الصحّة رزق، مناصرةُ الحقّ رزق، والصداقة الخالصة من أي مصالح رزق، هل تستطيع أن تُسعِّر كلّ أولئك؟!

أخذتْ مريم تسير بخُيلاء على المركب، وكأنّها عروس بحرٍ في رحلة بحثٍ عن أميرها، تنفّست الصّعداء حين وجدته في مؤخرة المركب مع عمرو وعبدالوهاب، أخذت تراقبه عن كثب دون أن يدري لانْغماسه في تعليمهما أصولَ الصيد حتى تركَهما ووقفَ في مكانٍ مجاور ليصطاد من جديد، فصاحَت:

– حسين.. أخيرًا وجدتُك.

نظرَ إليها بفرحةٍ حاول أن يُخفيها، ورمقَها بنظرةٍ أعانتها على الانتصار على كبريائها في حربٍ ضارية اشتعلتْ بداخلها، وقد قرّرت أن تحاصر صمتَه بصراحتها، فهمسَت:

– حلّال المشاكل، هل تترك الصنّارة لحظةً من أجلي؟ أريد أنْ أستشيرك في مشكلةٍ باتت تؤرّقني.

تركَ صنّارته متوجسًا، فأردفت:

– المشكلة تخصّ قلبي يا حسين.

نظرَ في عينيها، ثمّ أدار وجهَه عنها، وقلبه ينتفض انتفاض سمكةٍ وقعتْ في شباك صيّادها، فقالت:

– لقد أوصدتُ قلبي بأقفالٍ من حديد، فما أراني أرغب في أن أكرّر مأساة أمي، وقد رأيت في كلّ مَن قابلت صورة أخرى من أبي في ضعفه وأنانيته، كنت أظنّ أنني لنْ أرتبط؛ لارتفاع سقفِ طلباتي، فالرجلُ في نظري يجبُ أن يكون رجلًا بمعنى الكلمة، في صلابته وحكمته، وكرمه ومروءته، وظننتُ أنّ هذا الرجل لا يوجَد إلّا في الرّوايات التي كانت تُروَى لنا في طفولتنا.

ثمّ أدارتْ برفقٍ وجهَه إليها، وهي تنظرُ في عينيه قائلة:

– حتى التقيتُه يا حسين، قابلت مَن ظننتُ أنني لن أقابله إلّا في أحلامي، بل وجدته أروعَ مِن أي تصور أو حلم، فوقعت في حبّه في الحال، أرى في عينيه لوعةً وعشقًا، ولكنه لا يقترب، انصحني يا حلّال العُقد بربّك ماذا أفعل؟

حملَ دلوَه وصنّارته، وقال وهو يخطو بعيدًا:

– اتْركيه وشأنَه يا مريم. فهو لن يحتمل حبّك.

أخذت تتبعُه بعينيها وهو يبتعد، ودموعُها تهطل، أمّا هو فأراد أنْ ينتزع قلبَه من بين ضلوعه ويقذفَه في أعماق البحر؛ لتجرفهُ الأمواج بعيدًا، فيتخلّص من حبّ يكره الانقيادَ له.

دنا المركبُ من الشاطئ عند غروب الشمس، فصاحَ فارس فيهم:

– لا تنسَوا اجتماعنا الليلة، فهو في غايةِ الأهمية.

***

الفصلُ السّابع

دقّت طبولُ الخَطر

كانت أحلك ليالي ديسمبر، غابَ عن سمائها قمرُها ونجومها. وحين دقّت الساعة الثامنة، اجتمعَ الجميع كما كان مقرّرًا، وافترش الحزن مكانًا بينهم، ورصدت عدسةُ علاء- كعادتها- حالَ كلّ منهم، نظر حسين إلى مريم التي كانت تجلس بعيدًا عنه، بعينين ذابلتين أجهدهما البكاء، انقبض صدره لحالها، وكره نفسه لعذابها، وأخذ قلبه يعتصر مع كل دمعة سقطت من عينيها الجميلتين، ودَّ لو يجنبها عذاب الفراق، ويحمل عنها آلامها مع آلامه، ولم يفقْ إلّا على صوتِ عبد الوهاب يهمسُ إليه:

- حتى الآن لم يصلني ردٌّ منها، على الرغم من أنّني أتودّد إليها كلّ يوم برسالةٍ كما نصحتني.

ربتَ حسين على ذراعه قائلًا:

- لا تيئس واستمرّ، فإصرارُها على موقفها منك دليلٌ على حبّها لك.

ثمّ همستْ ناني قائلة:

- عملتُ بنصيحتك، وأرسلت لوحة الزّهرة لأكثرَ من مسابقةٍ على الإنترنت.

ابتسمَ لها قائلًا:

- وسوف تفوزين بإذن الله.

ولم يوقف حديثهما إلّا صوتُ فارس الجهوري وهو يقول:

– اليوم سنضعُ حدًّا لمعاناتنا، ونتوّج رحلتنا بقرارٍ يحسمُ مصيرنا، أريدُ أن أسمع آراءكم فيما ترونه من حلول.

أعطى علاء عبدَ الوهاب عدستَه بعد أن طلبَ منه أن يسجِّل بقية أحداث الاجتماع، ثمّ نهض من مكانه قائلًا:

– لقد عانينا طيلةَ حياتنا من مجتمع كافر بالحرية ونضوج الفكر، ولنْ يتغير هذا المجتمع إلّا إذا انتابه زلزال، وإنّي لأرى أنّ هناك التزامًا يقعُ على عاتق كلّ ذي رأي حرّ، فيجب أن يفني نفسَه انتصارًا لفكرته حتى تسري سريانَ النار في الهشيم في هذا المجتمع العقيم؛ ولذلك لا أرى للانتحار بديلًا.

صمتَ الجميع كأنّ على رءوسهم الطير، فصاحَ حسين وقد نفرت عروقُه انفعالًا وضيقًا:

– هل جُننتم، كيف تزهقون أنفسَكم بأيديكم؟!

صرخَ علاء في وجهه، ينذرُه بسبّابته:

– ليس لك حقّ الكلام اليوم، لقد نفد كلّ ما في جعبتك خلال شهرٍ كاملٍ، ولم تفلح، فلا تضيّع وقتنا.

أومأ فارس برأسَه، ثمّ أدارها إلى حسين قائلًا بهدوء:

– حسين، لقد سمعنا لك مِن قبل، فلا داعيَ للإعادة.

قالتْ ناني وقد ارتسمَ على وجهها الفزع:

– ولكنّ الموت فكرةٌ مُرعبة.. لا أتصوّر تنفيذها.

قاطعَها فارس قائلًا وهو يربتُ على رأسها ليطمْئنها:

– ستُنفَّذ بسلاسةٍ إذا أقدمنا عليها جميعًا.

ثمّ نهضَ وهو يستطرد بحماس، في حين راح ينظر إلى كلّ وجهٍ في المجموعة:

– فانْتحارنا سيكونُ أقوى رسالةٍ للمجتمع بل للبشرية؛ لأنّه سيكون مُسببًا، ستتناقله الوكالات الإخبارية وتتسابق عليه مواقع التواصل الاجتماعي.

أضاف عمرو وهو جالسٌ في مكانه:

– وسوف تعيننا الخمرُ على تنفيذه.

أضافَ علاء وهو يتحرّك بينهم:

– تخيّلوا معي صورنا تُعرض في كلّ مكان، ويُذاع معها فكرُنا ورفضنا للواقع، مهما يطل عمرنا فالهلاكُ قادمٌ لا محالة، فلِمَ تهلك أفكارنا معنا؟

قالت فيفيان بتردُّد:

– أليسَ من الأفضل أن نتمهَّل في قرارٍ كهذا؟

وقفَ عندها علاء، ثمّ سألها بانفعال:

– أتريدينَ أن تعودي لتستأنفي حياتَك مع ذلك الزوج الكريه؟

قاطعَه عبد الوهاب قائلًا:

– فيفيان لها وجهةُ نظر..

فنظرَ إليه قائلًا:

– وأنتَ يا عبد الوهاب، أتريدُ أن تعودَ بلا أسرة أو وظيفة؟

ثمّ نظر إليهم جميعًا وهو يقول:

– ماذا أصابكم! أليس الانتحار من أولويَّات حلولنا؟

قال فارس وقد عادَ ليجلس في مكانه:

– مَن وافق على اقتراح الانتحار فليرفع يده، وإذا رُفعتْ أيادي الأغلبية سننفّذه.

قال علاء بغلظةٍ وهو ينظرُ إلى حسين:

– ولنْ يُستثنى منه أحد.

رفعَتْ مريم يدَها دامعةً فقالت:

– مرحبًا بالموت إذا ما وضع حدًّا لعذابي.

ثمّ رفع عمرو يدَه مغرورق العينين وهو يقول:

– لقد سافرتُ بلاد الدنيا، واقتنيتُ كلّ ما اشتاقت إليه نفسي، وخُضت في كلّ ما ظننت أن يجلبَ لي المتعة والسعادة، ولكن لم أجدِ السكينة، ولم يبقَ لي سوى الموت، وأنا على أتمّ استعداد لأقبلَ عليه دونَ أدنى خوفٍ أو تردُّد؛ لأنهي حياةً بلا معنى أو هدف.

رفعَ فارس يدَه قائلًا بزهوٍ:

– أقدّم نفسي فداءً لتحرير فِكر أجيالٍ قادمة.

رفعتْ ناني يدَها ثمّ هزّت كتفيها بابتسامة، وقالت وهي تنظرُ إلى حبيبها:

– ليس لي حلٌّ آخر.

ثمّ رفعَتْ فيفيان يدَها قائلة:

– على الرغم من قسوة الحلّ، فإنّه يهون معكم.

قالَ عبد الوهاب بنبرةِ أسًى، بعد أن أوقف العدسةَ التي بين يديه:

– ما باليدِ حيلة، أضمُّ صوتي إلى أصواتكم.

صاحَ فارس بحماس:

– لقد اتَّفقنا على الانتحار، بناءً على موافقة الأغلبية.

ثمّ أضافَ علاء:

– ولم يبقَ سوى الاتفاق على وقت التنفيذ، والأداة والوسيلة من حرقٍ وغرق وخنق إلى آخره من خياراتٍ مُتاحة.

قالتْ فيفيان بعد أن دفعَها حماسُها إلى الوقوف:

– فليكنْ وقت الغروب، حتى نغرب مع الشمس، وتلبس السماءُ علينا زيَّ الحداد.

نهضَ حسين قائلًا وهو يقتربُ منها:

– وماذا عن الجنين الذي ينبضُ في أحشائك؟ أليسَ له حقّ في الحياة؟ كيف هانَ عليك؟

قاطعَه علاء قائلًا:

– لم يستأذنْها جنينُها حين قرّر أنّ يحيا في أحشائها، فليس له حقٌّ عندها إذا قرّرت موته.

صاحَ حسين:

– شتّان بين الحياة والموت يا علاء، فأنت تخلطُ بين نقيضين!

– قلنا لك لا مكانَ لثرثرتك الليلة.

لم يأبَه حسين لردِّ علاء، فقال في تَوَسُّل:

– هناك حلولٌ أخرى، فيمكنكم أنْ تهاجروا إلى أيّ بلد، إلى أي مجتمع ترونْ أنه يستحقّ وجودكم بينهم.

احتقن وجهُ علاء غضبًا وأخذ يردد:

– ولكنْ ماذا عن رسالتنا؟ ماذا عن عقابِ ذلك المجتمع الكافر بالحريّات؟!

ردّ حسين بأسًى:

– ولكنّكم تعاقبون أنفسَكم بهذا القرار!

صاحَ فارس:

– اصمتْ يا حسين.

ثمّ تردّدت على سمع حسين كلماتٌ بها هجومٌ عليه من بقية أفراد المجموعة، فلم ييئس، وصَاحَ بأعلى صوته:

– بالله عليكم تريّثوا.. ألم يردْ في ذهنكم احتمالٌ واحد في الألف أن تقفوا أمامَ إله يحاسبكم على استهتاركم هذا؟!

اقتربَ منه علاء قائلًا بغلظة:

– ألم تسأم يا رجل مِن ترديد تلك الخرافات؟

قال حسين بتوسّل:

– لِمَ لا تعطونَ أنفسكم فرصةً للهداية، فرصة أخيرة لا ضيرَ منها؟ فليؤجلَ الانتحار عشرة أيام على الأقل، قد يرسل الله ما يضيء قلوبكم.

قاطعَه علاء قائلًا:

– ولِمَ التأجيل وقد حسَمْنا أمرنا؟

قال فارس بهدوء:

– لا بأسَ في العيش على هذه الأرض عشرة أيام أخرى، حتى يتيقّن حسين من عدم وجود إله فيُقدم على الموت معنا بشجاعة.

ثمّ أضافَ وهو يضع يدَه على كتفِ ناني:

– ثمّ إنّ هناك أمورًا أخرى أريدُ أن أنجزها قبل الفراق، مَن لديه اعتراضٌ على تأجيل القرار يرفع يدَه.

لم يرفعْ أحدٌ يدَه سوى علاء، فقال فارس بحماسٍ وهو يهمّ بالوقوف:

– قرّرنا تأجيلَ قرار الانتحار عشرة أيام خضوعًا لرأي الأغلبية.

وصاحَ علاء فيهم- قبل انصرافهم:

- رجاءً الانتظار، بما أننا عزمنا على ملاقاةِ نفس المصير، مطلوب من كلّ منكم تسليمُ محموله ومفاتيح سيارته إليَّ، ليكونَ ذلك دليلًا على إخلاصِه للمجموعة وانتمائه إليها وخضوعه لقرارها، لقد أصبحنا على متْن القارب نفسه.

قال عبد الوهاب وقد أطلت نظراتُ الحيرة من عينيه:

- ولكني أحتاجُ إلى المحمول لإجراء الاتّصالات الخاصة بطلباتكم، كما أحتاجُ إلى السيارة، أنسيتَ أنني أشتري لكم يوميًّا حاجتكم من الأسواق؟

قال علاء بابتسامةٍ باهتة:

- مَن يرغب في قيادة سيارته أو أنْ يسترجع محموله لأمرٍ ما؛ فليخبرني به، وإذا اقتنعتُ بدوافعه فسأعطيه ما طلب.

أخرجَ كلٌّ منهم مفتاح سيارته ومحموله، وسلّمهما إلى علاء، أمّا حسين فتردّد قليلًا، قد تكونُ هذه آخر فرصة لينجو بنفسه، ربّما كان الأسلم أن يأخذ سيارته ويبتعدَ عن عالمهم المجنون، ثمّ يبلغ السلطات، فهي أقدرُ على إنقاذهم منه، ولكنْ هل هناك أي ضمانات؟ هل ستأخذ السلطات أقوالَه بجدية؟! غالب الظنِّ أنها لن تتحرّك إلّا بعد موتهم.. قد يثيرُ وصف جنونهم بالإرهاب حافزًا لديهم، أوليسَ جنونُهم إرهابًا؟ ولكن هل سينتفض أحدٌ لإرهابٍ ليس في زي إسلامي؟ ولو فُرض أنِ استجابت السلطاتُ لندائه، واعْتبرتهم إرهابيّين، أفلا يكون قد أخرجهم ببلاغِهِ من مأزقٍ ليدفعهم إلى

مأزق آخر؟ وماذا عن تخلّيه عمّن عشقها قلبه، وتخلّيه عن وعدِه لأمها؟ هل سيغفرُ لنفسه بعدها؟! لم يفقْ إلّا على صوتِ علاء قائلًا:

– لم أستلمْ مفتاح سيارتك ولا محمولك بعدُ يا حسين.

أخرجَهما حسين من جيبه، وبخطواتٍ وانية سلّمهما إليه، ثمّ قال:

– هذه نهايةُ الكفر بالله، انتحارٌ جماعي لا يُقدم عليه إلّا الحيتان التي تنقرض، أمّا المؤمن فلا يمكنُ أن يُقدم على ذلك مهْما واجهَ مِن محن؛ لعلمه أنْ ليس له حقّ في إزهاق نفسه، ويقينه بأنّ له دورًا قُدر له، وإن غابت عنه أسباب الحياة.

قال علاء مع ابتسامةٍ شاحبةٍ:

– إذا كان هذا تمهيدًا للتنصّل من وعدِك لنا؛ فهذا غيرُ مقبول ولا جدوى منه، وكما تقولون، وعدُ الحرّ دَينٌ عليه.

***

لم ينمْ ليلتَها، ولم تأتِ حبيبته لتخفّف عنه معاناته كعهدِه بها سابقًا، انطلق هائمًا على وجهه بين الزهور والأشجار على شاطئ البحر، وما عاد يشعر بالألفة إلّا في أحضان الطبيعة، وظلّ متخوّفًا من غدِه حتى لاحَ الصباح، لمحَه عبد الوهاب وهو يدخلُ الشاليه بعد أن أنهكَه السهرُ خارجه، فقال:

– حسين، إني ذاهب للتسوّق، فهل تريدُ أن تأتي معي؟

على الرغم من شعوره بالإعياء، قال:

– ليس عندي مانع.

ثمّ نظر إلى مفتاح السيارة، الذي في قبضته قائلًا:

- ألم تسلّمه البارحةَ إلى علاء؟

- أجل، وأعاده لي اليوم مع المحمول حتى أقضي حوائجَكم من شراء لوازم الإفطار إلى شراء أفخر أنواع النبيذ للحفلة، كما طُلب مني تسليمُ رجالِ أمْن بوّابة القريةِ قائمةَ أسماءِ المَدعوّين والمَدعوّات للسّماح لهم بدخولِ القريةِ يومَ الحَفلة.

- أيّ حفلةٍ تتحدّث عنها؟!

- حفلة رأس السنة، وقد قرّروا الاستمتاع فيها بقدر المستطاع. كما تعلم يا حسين، فنحن لا نودّع العام السابق فحسب، بل نودّع الحياة كلها، ولذا قرر عمرو أن يحقّق متعة تليق بهذا الوداع، هيّا يا حسين؛ حتّى لا نتأخّر عليهم.

***

انهمك أفراد "كفرنا بالعيشة" في الاستعداد والتجهيز لحفل غدٍ حتى أقبل الليل، فاستعادَ عمرو محموله من علاء ، وتولّى الاتصالَ بالمدعوين لتأكيد الدعوة، أما حسين، فأخذ - بعد شرائه حاجتهم من السوق مع عبد الوهاب - يساعد فارس في تعليق الزينات، وكانت ناني تنفخ لهما البالونات، في حين راحَ عبد الوهاب وعلاء يرتبون الأثاث بطريقة توائم استقبال أعداد غفيرة من الضيوف، ورصَّت مريم وفيفيان المفارش ذات الألوان المبهجة والشموع على الطاولات.. و كسا وجوم - لا يتناسب مع الاستعداد لحفل بهيج - وجوههم ؛ إذ داخلَهم شعورٌ دفينٌ بأنَّ الإعداد لحفل رأس السنة

لا يتناسب مع ما تضمرهُ قلوبهم من حزن ويأس، فبدَت حركاتهم آلية خالية من أي حياة .. وكأنما يستعدون لحفل تأبينهم، وراحت مريم بين حين وآخر تنظر إلى حبيبها بعينين دامعتين، على أمل أن يُغيِّر موقفه المحيِّر الذي اتخذه تجاهها مؤخرًا ولو بنظرة، وقد استشعرَت أنه لحياتها بمثابة الهواء، بدونه تتوقف لديها كل أسباب الحياة .. أما فيفيان فكانَت تنظر شاردة خارج النافذة الزجاجية على فترات، تسترجع أيامها مع أهلها في مثل هذا الوقت من العام.. تذكرت تجهيزها هي وأخواتها لشجرة عيد الميلاد، وانهماكهن في أحاديث متنوعة دونها على الرغم من محاولاتها الضائعة للمشاركة، وكانت تحاول درء تهميشهن إيَّاها بالانغماس في التحضير للاحتفال، لعلها تلفت انتباههن بتفانيها، أو تجد من يثني على مجهودها، بلا جدوى.. وفجأة أيقظها من ذكرياتها سحر انعكاس القمر على سطح البحر، فصاحت لتطرد الرتابة التي خيَّمت على القاعة:

– ما أبدع المكان!

سمعها عمرو وقد انتهى من الاتصال بآخر المدعوين، فقال:

– ألم أقل لكم إنها الجنة؟

قال حسين بأسى:

– لو حقًا أنَّها الجنة، ما أزهقتم فيها أرواحكم بأيديكم .

هزَّ عمرو كتفيه قائلا:

– لأن مكوثنا بها مؤقتٌ، وسوف يعود كل منا إلى حياته البائسة، إذا لم نُنهها ها هنا.

– إذا كانت جنتكم مؤقتة، فكيف تكون جنة ؟ إنَّ من أهم صفات الجنة الخلود.

قاطعه فارس بسخرية وهو يعلق آخر زيناته:

– الخلود من ترهاتكم أيها المؤمنون! فكل ما نراه يزول.

وشرعَ علاء يقول بهدوء ، وهو يجر مائدة صغيرة إلى ركن من أركان القاعة:

– فما الداعي للعودة إلى حياة قاسينا فيها الأمرَّين إذَن؟!

قال حسين، ولا يزال قلبه ينبض بالأمل في أن يثنيهم عما انتهوا إليه :

– قاسيتم منها ! لا أعتقد أنها كانت بهذا السوء !

ثم استطرد – و كانوا قد انتهوا من الإعداد والتجهيز وجلسوا للراحة :

– وأنا على يقين أنه لو استرجع كل منكم ماضيه قبل وصولكم إلى الساحل، فسيتذكر ولو لحظة مضيئة في حياته، سعد بها.

قذف حديثه فيفيان في دوامة من الذكريات من جديد، ولكنها تذكَّرَت هذه المرة لحظة من أسعد لحظات حياتها.. كانت عائدة إلى بيتها في وقت متأخرعلى غير عادتها، وهي تعلم أن تأخيرها لن يثير قلق أي من أفراد عائلتها، فالكل منغمس في عالمه، ولا يعنيه أمرُ حضورها.. وفي تلك الليلة، قابلت ريمون جارها قرب منزلها، فلامها بشدة عن التأخير قائلا:

– البلد لم يَعُد آمنًا يا فيفيان، وأنا أخشى عليكِ، فلا تحمليني همًّا ثقيلا بمكوثك خارج البيت في مثل هذا الوقت، عِديني أنك ستهتمين بسلامتك، ولو من أجلي.

لن تنسى الفرحة التي غمرتها آنذاك، ولكن استرجاعها تلك الذكريات، وإن كانت حلوة، يؤلمها، فقالت وهي تهز كتفيها:

– وما قيمة لحظات زائلة وإن كانت سعيدة؟

جذب علاء عدسته للتصوير كعادته، بينما قالت ناني بحماس:

– صدقتِ.. أتذكر أسعد لحظة مرت بي، حينما شعرتُ أنني استعدتُ حريتي كاملة ، عند خلع حجابي لأول مرة بعد وفاة أبي، فوقفت في شرفة منزلنا، أنثر خصلات شعري الأشقر فيتخلله الهواء.. ما أروع تلك اللحظة! ولكنها عبرت كما يعبُر كل حدَث ، واعتدت على مظهري الجديد.

قال فارس بيقين بالغ:

– سعادتي في نجاحي، أوعندما أنتصر لرأي أراه صائبًا، ولذلك جمعتكم ها هنا.

قال عمرو وهو يضحك:

– بل السعادة في اقتناص لحظات من المتعة..

قاطعه حسين:

– إنك تخلط بين السعادة والمتعة يا عمرو.

أثار تعليق حسين فضول الجالسين، في حين راحَ يستطرِد:

– قد تستمتع دون أن تشعر بالسعادة، وقد تسعد دون الاستمتاع!

قال علاء بتهكم :

– أهذا لغز يستوجبُ علينا فكّه؟!

– عزيزي علاء، المُدمن يستمتع بلحظات من النشوة ومع ذلك لا يُخالِجُه شعورٌ بالسعادة أو الرضا عن حاله، بينما يشعر الجُندي في ميدان المعركة بسعادة غامرة ؛ لِما يقدمه فداء للوطن، على الرغم من نفوره من الحرب.

خيَّم الصمت عليهم للحظات وهُم يتأملون قوله، حتى قال عبد الوهاب بأسى:

– سعادتي في العطاء، في مد يد العون لمسكين، أو إنقاذ مريضة جاءتني تستجير، أو أن أغمر أسرتي حبًّا وحنانًا.. ولكني فقدتُ سعادتي حينما فقدت القدرة على العطاء.

وضعت مريم كفيها على وجهها لتجفف دموعها، قبل أن تقول بابتسامة حزينة:

– أسعد لحظة مرَّت عليَّ، عندما جاءني أحد تلاميذي، وكان يتيم الأبوين، في حفل عيد الأم بالمدرسة التي كنت أعمل بها، ثم أخرج ورقة من حقيبته الصغيرة بحماس، وأخذ ينظر إليَّ في ترقب وفرحة وأنا أقرؤها، ورغم صعوبة قراءة خطه، حلقت بي كلماته إلى أبعد طائر في السماء حين قرأت: أحبك يا ميس مريم، فأنتِ تذكرينني بأمي..

حرَّك قولها فؤاد حسين ، فهو يدرك أن الفتاة التي عشقها من كل قلبه، تحمل قدرًا من العطف والحنان، لو وزع على العالم ، ما ترك على الأرض يتيمًا يتأوه، وشعر بغصة في قلبه ؛ لتركه إياها، فهي لن تُعوض.. ولم ينتبه إلا على سؤال فيفيان:

– وأنت يا حسين، ما هي أسعد لحظة مرَّت عليك؟

– أنا مثلكم جميعًا، أشعر بسعادة في العطاء، وفي الظفَر بما آمُل، وفي الانتصار للحق، وفي استمتاعي بحريتي، وتذوُّقي لذة ما أحله الله لي، ولكنَّ السعادة والمتعة اللتين لا يضاهيهما أي شيء على وجه الأرض، هما في لحظة القرب من الله عند السجود.

قال علاء بمكر:

– يبدو أن إله حسين خصه برعايته، وتركنا دونها نصارع همومنا، فليسرد كل منا لحظات التعاسة في حياته، وما أكثرها..

استطاع علاء أن يوجه دفة الحديث إلى اتجاه معاكس، يناسب الحزن الذي سكن وجدانهم ، فأسهبوا في وصف معاناتهم، حتى أتعبهم الحديث عن شجونهم وأوجاعهم، وتفرق الجمع وقلب كل منهم يدمي من آلامه وجراحه.

***

أخذَ يراقب ظلالَهم خلف زجاج الواجهة الرئيسية وهُم يتمايلون ويتراقَصون على صوتِ الموسيقى المجنون، وأصواتُ الخلاعة والضحك تتخلّل الصخب بين لحظةٍ وأخرى، توقّفت سيارات كثيرة من القاهرة والإسكندرية لا يعرف مُلاكها، ولا يدري ما إذا كانوا أعضاءً من جروب (كفرْنا بالعيشة) أو مِن مجاميع أخرى، أو مجرّد أصدقاء أو معارف لبعض منهم، وانضمت إلى الحفل غانياتٌ لإضافة مزيدٍ من المتعة والإثارة، ولم يجد بدًّا من اعتزالهم، فلاذ بالجلوسَ خارج الشاليه على الشاطئ.

لم يكنْ وحيدًا، على الرغم من اختلائه بنفسه، إذْ بدأ يناجي مَن أحبّ: يا إلهي، لو يعلمون بالنعيمَ الذي يغمرني في قُربك، ما فرَّطوا فيه لحظة، فبحقك إن معيّتك عندي خيرٌ من الدنيا وما فيها.. فهل أنتَ راضٍ عني؟ وبهذا السؤال، فتحَ لنفسه كشفَ حساب، فجالَت بخاطره حبيبتُه، وأخذ يلومُ نفسه على ما بدرَ منه، لقد تركها بإرادته تتعثّر وتتخبّط في ظلام، وفي يده مصباحٌ وهّاج حريٌّ بأن يضيء لها الطريق، فدفعها إلى أنْ تهون عليها نفسها، وتقرِّر الرحيل، لمَ اختار الفراق، رغم ما فيه من عذابٍ وحرمان؟ أيكون لعقدةٍ سكنت ونمت بداخله منذ سنين، فحمَّلها ذنبَ غيرها دون مراجعة أو ضمير؟ لا.. لا يمكن أن يكون ذلك دافعًا لفراقها، وقد كان هواها بلسمًا سحريًّا داوى في لمحِ البصر جرحه القديم.. لقد خطا على شوقه لها وهجرها خشيةً وتقيةً من العَزيز القهّار. وانساب صوت ضميرُه يسأله: ولِمَ تصوّرت أن عشقها لعنة؟ وقد تكون لها رحمة، أرسلك الله لها طوقَ نجاة، وبوصلة ترشدها في رحلة التيه؛ لتنْجو بها إلى برّ الأمان، كيف يئستْ من إيمانها.. واللهُ بيدِه الهداية؟! لِمَ لمْ تعدِ الكرّة، وتحاول معها مرة واثنتين وعشرًا، حتى يشرقَ الإيمان فيها؟ لقد خشيت على نفسك ولم تخشَ عليها، وتدّعي أنّك أحببتها! تصاعدَ صوتُ ضحكات الفسوق، فارتجف قلبُه خوفًا عليها، ودعا ربّه أن يقيها شرورَ هذه الليلة، وطغى صوتُ ضميره ثانية، يحثّه على أن يحميها ويحفظها من مخاطرَ تنمو في تلك الأجواء، فإنْ لم يكن إذعانًا لقلبه فليكنْ من أجل الحفاظ على وعدٍ طمأن به أمًّا وضعت ثقتها فيه، فقادته قدماه إلى الشاليه رغمًا عنه.

اشمأزّ قلبه وانقبضَ عند دخوله غرفة المعيشة الرئيسية، وقد حلّت رائحة الخمور محلَّ الهواء في القاعة، وانتشرت وجوهٌ غريبة، بينها عاهراتٌ كاسيات عاريات، ووجوهٌ أشارت ملامحها المتبلّدة إلى تعاطيها موادَّ مخدرة، تصاعدت أدخنتُها من كلّ ركن، جالَ بنظره في المكان بحثًا عن حبيبته، فرأى عمرو العلايلي وقد ارتمتْ على قدميه إحدى الغانيات. أدار وجهَه، فوجدَ عبدالوهاب في ركنٍ آخر، تنمُّ ملامحُ وجهه عن ضيق وحيرة، وبدا عليه أنّه ليس منسجمًا مع جوّ الحفل، ولأنه كعادته مغلوبٌ على أمره، آثرَ الجلوس وحيدًا بينهم. حوَّل وجهه عنه إلى جهةٍ أخرى فوجدَ ناني بفستان "سواريه" عارٍ في حضن فارس الذي أفرط في احتساء الخمر، فتجوَّز في سلوكه معها، وكأنّها دمية في يده يفعل بها ما يشاء. أغمضَ عينيه، ونظر إلى اتّجاه مُغاير حتى وجدّ ضالّته، ورأى أميرته بفستانٍ يضيق على خصرها، عكسَ بسواده الداكن بياضها الناصع فزادها سحرًا على الرغم من اليأس الذي يضمره قلبها، وودَّ لو حجبَها عن العالم كله بأحضانه، تمنّى لو درأ عنها شرورَ الدنيا، ألم يكن آدم لحوّائه حصنًا ودرعًا على مرّ الزمان؟ كانت تقفُ مع فيفيان، شاردة على الرّغم من حديثٍ دار بينهما، استحالَ عليه سماعه لبعده عنهما. كانت فيفيان في ذلك الوقت تنتقدُ الإفراط في المتعة، وتستنكر وجودَ غانيات بالحفل، فتؤمِّن على قولها مريم مؤكّدة أنّ مناخًا كهذا يزيد من شعورها بالغربة والوحشة، بل يصل بها إلى حدّ الغثيان، ولكنّها مع قرب تنفيذ القرار وهيْمنة الوداع، لم تجدْ في نفسها طاقة أو دافعًا لنقل احتجاجها لبقية المجموعة.

أصرّت رغم يأسها على أن تضعَ على شفتيها ابتسامةً شاحبةً أملًا في مواراة ما ألمَّ بها من حزنٍ، ثمّ كفَّت عن الكلام فجأة حين رأته يقترب،

وارتجف قلبها بين ضلوعها حين التقت عيناها المشتاقتان بعينيه، فقطعَ علاء اللقاء بوقوفه بينهما، ثمّ سألها وهو يحمل عدسته:

– مريم، ما شعورُك بعد قرار الانتحار؟

أجابتْ بين دموعها:

– الحياة والموت سيّان، إنني أموت كلّ يوم وأنا على قيد الحياة.

أوجع كلامُها قلبه، فلفظه المكان خارج الشاليه، وبسرعة غريق يطلب لنفسه نسمة هواء أسرعَ خطاهُ نحو البحر، وأخذ يردّد في نفسه: عذرًا حبيبتي، لقد ضاق بي السوق ومرتادوه، باعوا فيه المشاعر والكرامة والهويَّة والضمير، وما تبقى منهم إلا ترابٌ وطين.. ما أحقرَ فضلاتهم! بئس الوارث منهم! ولكنك يا مليكتي غيرهم، أنتِ متوّجة بينهم بشموخ كبريائك، وعزّة نفسك، لن ينال منك أحدٌ، فقلبك وإن كانَ يُدمَى فليس مغلفًا للبيع، أو مطروحًا في الأسواق.. يا ألله، أشهدك أنني هويْتها من كل قلبي، وسأرضيك فيها، فلن أتركها تُدفن في ذلك الوحل ما دمتَ تُخرج مني أنفاسي، غدًا سيكون أكثرَ إشراقًا فأخبرها عمّا يحمله لها قلبي، وسأبذل ما في وسعي حتى ينبضَ قلبها بالإيمان فيُحْيِيها، ويبيحُ لي هوًى لم أستطع أن أستثنيه من نبضاتي.

أخذت تتبعه بعينيها وهو يخطو بعيدًا من وراء الزجاج الشمالي، وقد ضاعَ آخر أملٍ في هواه، وظنت لوهلةٍ أنه يقترب منها ليحْييها ولو بكلمة، ولكنْ عادت خطواته الشاردة لتخطفه بعيدًا عنها وتوقظها من أحلامها على حرمانها ووحدتها، وعلى الرغم من أنّ روحها فارقتها لتسبح حوله خارج الشاليه، لم تجدْ مبررًا للّحاق به، وكيف تلاحقه، وقد رفض عشقها؟!

اقتربتْ عقاربُ السّاعة من مُنتصفِ اللّيل، ودنا كلّ عاشقيْن لاحْتضان تلك اللحظة معًا، وقعتْ عينا ناني على مريم، فأدركت ما حلَّ بها من لوعة القنوط، فرقَّت لحالها واستأذنت فارس لدقائق حتى تعود بحسين من جديدٍ إلى القاعة؛ عسى أن تدخِل السرور على قلبها، خرجت متجهةً نحو الشاطئ الفضي، وقد تورّد خداها ولمعَ وجهها وعُنقها بحبات عرق أسالها تجرعها عدة كئوس على الرغم من شدّة البرد، وعندما اقتربتْ من حسين وهو جالس على صخرة على الشاطئ، صاحت بصوت شبْه مخمور:

– لِمَ لا تنضمّ إلينا من جديد؛ فالسعادةُ ترفرف علينا بالداخل؟

نظرَ إليها بشفقة ثم قال:

– تظنّون أنها السعادة، وأنتم أبعدُ ما تكونون عنها.

ضحكتْ ضحكة هستيرية، ثمّ وضعت كأسَ الخمر التي كانت في يدها جانبًا، وقالت بحماس:

– هذا حالُ المؤمنين، يكبّلون أنفسهم بقيود في الدنيا أملًا بالفوز بنعيم ليس له وجود، انظر إلى نفسك، تخشى أن يدخل السرور قلبك، حتى لتؤثرً الوحدة فتنزوي عنا، وقد حرَّمتَ على نفسك عشقًا في متناول يديك، اسمعْ مني، ما دمت لا تؤذي أحدًا؛ فلا تخفْ عقابًا ولا لومًا..

ما عساه أن يقولَ وقد شعر معها وكأنّه يتحدّث اليابانية؟! لم يجدْ بُدًّا من أن يقول:

– شكرًا على النصيحة.

وأشاح بوجهَه عنها، ولكنها لم تيئسْ فأردفتْ بنفس الحماس:

– انظر إليَّ، لقد تحرّرتُ من تلك القيود العقيمة منذ زمن بعيد، فالتي سُجنت داخل حجابٍ في سن التاسعة، نبذَته وتحرّرت منه لتُظهِر مفاتنها وهي في ريعانِ شبابها دونما قلقٍ أو خوف، وإنها لتعمل ما يحلو لها في حضن الرجل الذي اختاره قلبُها، في كلّ لحظة إثارة ومتعة، ومع كلّ متعةٍ بهجة وفرحة نستحقّها.

لم يستطعِ السكوت، فقال وهو ينظرُ بتحدٍّ في عينيها:

– كم أرثي لحالك يا ناني! تظنّين أنك لا تؤذين أحدًا، ولكنك واللهِ تؤذين نفسَك التي بين جنبيك، حتى لقد هانَ عليك إزهاقها، وتدَّعين السعادة على الرغم من قسوة القرار، ورُحت توظفين الكلمات في غير موضعها، فما سمَّيْته قيودًا على المؤمنين، ما هو إلَّا الحرية في أسمى صورها، فالتزامنا بطاعة الخالق يحَرّر أنفسنَا من عبودية غزائر الجسد وسلطانه، أمّا ما سمّيتِه حرية فهو انحلالٌ يفني إنسانيّتنا، والإنسانُ بفطرته– بخلاف الحيوان– يتوق في كلّ أحواله إلى السّتر، فإذا تعرّى طرحَ على نفسه ما يستره.

ساقها غضبُها إلى جذبِ كأسها وسكْبِ الخمر على وجهِه، فأمسك يدَها بغضبٍ قائلًا:

– لولا أنكِ امرأة؛ لكان لي معكِ شأنٌ آخر.

نظرتْ إليه، وقد تحجّرت الدموع في عينيها، ولم يشفِ غليلها وجهُه المبتلّ وهو يقطر الخمر، ثمّ أدارت رأسَها عنه، فرأت فارس يدْنو منها وهو

يترنَّح قليلًا، وفي ذراعه قبضةُ علاء يسندُه ويحمل عدسته بيده الأخرى، صاحَ فارس عندما وصلا إليهما:

– أين أنتِ يا حبيبتي؟ الليلة لا مكانَ لكلام حسين البائس، فلا تضيّعي وقتك معه.

أجابت بحدّة:

– معكَ حقّ. لقد أخطأت حينما ظننتُ أنه يستحقّ أن يبتهج معنا، هيّا بنا فلنتركه لشأنه.

قال علاء وهو يحرّر ذراعه من فارس، ويمسك عدستَه بكفَّيه:

– ليس قبل أنْ آخذ أقوالكم بشأنِ قرار الانتحار.

ثمّ وجّه عدسته إلى ناني قائلًا:

– السيدات أولًا، ما رأيك في قرارِ المجموعة؟

قالتْ بأسى:

– صراحةً، لستُ من عشاقه؛ لأنّي عاشقة للحياة.

ثمّ استطردت قائلةً بغلّ وهي تنظرُ إلى حسين:

– ولكن كلّما تحدّثت مع مَن يثير اشمئزازي وجنوني، شعرت أنّ القرار صائب، فمجتمعُنا مع الأسف جاهلٌ، أخرق، لا يستحقّ أن نعيش فيه.

ثمّ وجّه عدسته إلى فارس قائلًا:

– وأنتَ يا أدمِن الجروب، ما رأيك؟

قال بصوتٍ مَخمور:

– والله سنلقّن هذا المجتمع درسًا بهذا القرار ولن ينسَوه، يقولون إنّ الله وحده يعلم متى وأين نموت، ولكنّي أُقول لكم بأعلى صوت إنّنا نتحدّى هذا العلمَ وتلك الإرادة، إذْ قرّرنا زمان ومكان موتنا، وسوف نموت بعلمٍ منّا وبإذننا، فهل يوجد دليلٌ أقوى لدحْض عقيدة هؤلاء المغيَّبين؟

ثمّ وجّه علاء عدسته إلى حسين قائلًا:

– ما قولك؟

لمْ ينتظر ردًّا، إذْ أغلق عدسته قائلًا:

– سيُسمعُنا ردًّا مُملًّا كعادته، نحن في غنًى عنه، هيّا بنا إلى الداخل.

تركوه ثلاثتهم، أمّا هو، فقد ضاقَ صدره حتى كادَ يفرُّ من ضلوعه، لم يعد يحتملُ مزيدًا من الكفْر والفجور، ثمّ علتْ دقّات السّاعة لتنعي عامًا قد أهدرَ دمه، وازدادَ شعورُه بغربة موحِشَة، فغسلَ وجهَه بماءِ البحر لعلّه يطهّره من قطرات الخمْر ورائحتها التي نفذتْ إلى أنفه، وأنْ يبرئه من غُربته، ولكنّها عاندتْه ولم ترحَمْه، ولم تعدْ قدماه قادرتيْن على أن تحملاه، فانبطحَ أرضًا، يبكي كما لم يبكِ من قبل، وقد تملّكه يأسٌ يجذب أصحابه إلى حافّة هاوية سحيقة، من أين يأتون بهذه القوّة والجبروت وهم في ضلال؟ وكيف استوَى للكفر أن يتربع فيهم؟ لا أملَ في إحياء أفئدتهم، وإن بقاءه معهم لخليق بأن يدفن قلبه في آثامهم، ثمّ فجأة تحوّلت خواطره إلى سؤالٍ خطير: ماذا لو كانوا هم على حقّ، وهو على باطل؟ والدليلُ على ذلك إصرارُهم على الإلحاد وصمودُهم أمامَ محاولاته الضائعة. انتابته رعدة.. فالحياةُ بغير الله في غايةِ القبح، فكلّ

جميل فيها سيؤول إلى تراب، إنها قاتمةٌ، مرعبة، لا أملَ فيها ولا رجاء، فبدون الله يسودُ الظلم والجور، إذْ يتساوى الصالح والطالح، والجاني والمجني عليه، ويضيع العُمر هباءً منثورًا دونَ هدف أو غاية، وتذهب الأعمالُ بخيرها وشرّها أدراجَ الرياح.. فجأة صاحَ بأعلى صوت: ربي، لا تجعلني مع الذين ظلموا.. وانصرني كما وعدت، إنّ وعدك حقّ. وتحجّرت الدموع في مقلتيه إثرَ ندائه، واندهش من إحساسِ الطمأنينة التي شقّت من جديد طريقًا إلى قلبه ، فحلّت محلّ سخطه عليهم رأفةٌ لغفلتهم، فهُم ينكرون الله بحجّة غيابَ الأدلّة والبراهين، في حين أن السكينة والثبات اللذين يختصُّ بهما الله عباده كلّما استعاذوا بذكْره دليلٌ وبرهان، وإنْ أنكرهما الناكرون.

وفجأةً سمع عراكًا بالداخل، خرجَ على إثره عبدُ الوهاب، ودنا إليه مهرولًا وهو يصيح:

– حسين.. النّجدة، عمرو العلايلي أفرطَ في الشرب، وتعاركَ مع علاء على فتاةِ ليل.. أنقذِ الموقفَ وإلّا سيقتله!

قفزَ حسين وسبقَ عبد الوهاب إلى الداخل، فوجد في يدِ عمرو زجاجة خمر مكسورة، وكان يدفعُ علاء باليد الأخرى نحوه في وسطِ حضور مترقّب، وقدْ أخذَ يصرخُ بعينين زائغتين:

– سأقتلك! ولن ينقذكَ مني أحدٌ.

صاح حسين:

– تريّث يا عمرو، وإلّا ستندم.

رأى الخوفَ والفزع يطلّان من عيني علاء، وأخذ يتوسّل إلى حسين وهو يزدردُ ريقَه بصعوبة:

– أنقذْني يا حسين من هذا المَخمور الأخْرق.

تعجّب من شدَّة ذعره، فهو من أشدّ الداعمين لفكرة الانتحار الجماعي، ولكنّه الآن يرتعش خوفًا، والسلاحُ يقتربُ من رقبته، رُبّ ضارةٍ نافعة، قد يدفعه ذلك الموقفُ ليعيد حساباته.

كان نزاعُهما بين حضور غائب، فما حَاوَلَ أحدٌ تخليصَ علاء من يدي عمرو، حتى حال حسين بين الخصميْن، ثمّ اصطحب عمرو معه إلى الخارج، صفّق له الحضور وكأنّهم يشاهدون فيلمًا ليس لهم دورٌ فيه، وكانت مريم بينهم تسمع صوتَ فيفيان يخترق صوتَ التصفيق من ورائها، وهي تقول:

– حسين، أنت حلّال العقد بمعنى الكلمة.

ودّت لو تعلن عن فخْرها بحبيبها، ولكن هل لها حقّ فيه؟ لقد اختار البعد عنها لسببٍ لا تفهمه، وقد تكون في حياته امرأةٌ أخرى، على الرغم من إنكاره إيّاها حين سألته صراحة. ما أقبح الفكرة التي راودتها! ولكنّها منطقية، فلا يوجد تفسيرٌ أكثر وجاهة لسلوكه.. إنْ صحَّ هذا، فالأسلمُ أن تموت مع المجموعة في سلام، ويعود هو حيث كان، فما كان يومًا مناصرًا رؤيتهم، توجبَ عليه إذَن أن يطوي صفحتها وأيامها معه، وينفذ بجلده ويعود إلى عالمه، فهو يستحقّ أن يهنأ مع حبيبته الأولى، أمّا هي فلم تكن له إلّا مجرد نزوة عبرت، فلا شيء يميّزها، ولقد تاهت عنها في لحظةِ اليأس تلك، كلّ أسباب إبائها وثقتها في نفسها، وتقزَّمت ذاتها أمامه، وبدا لها أنها ليست جديرةً به، واقعٌ بائس ولكنّه أصبح واقعًا في عينيها، جذبت كأسَ

خمرٍ لأول مرة في حياتها، واحْتستها جرعةً واحدة، لعلها تخفّف بها آلامها في لحظةٍ، ولو مؤقتًا.

نظرَ إليها عبد الوهاب، وكان يجلسُ على مقربةٍ منها، يحدِّق في ملامحها التي كانت تصرخُ وتستجير، كم آلمه رؤيتها وهي تبحثُ عن سلوانٍ ضائع في كأسها! وإنه ليعلم جيدًا حجمَ معاناتها، ومدى تعلّقها بحسين، ولم يفهمْ أبدًا لِمَ لمْ تسرِ الأمور بينهما على ما يرام، ثمّ نظرَ إلى نفسه، فهو أيضًا يعاني.. يعاني مَن غربةٍ اعترته منذ أن افترقَ عن أسرته، والليلة ها هوَ شعورُه بالوحشة يزدادُ، وهو ينظرُ إلى تلك الوجوه المتبلّدة من حوله، كم احتقرَ خوضهم فيما سمَّوه متعة! والإنسانُ إذا ذهب عقله، فماذا يبقي منه؟ وإذا تاجرَ في الأعراض والمشاعر، فما الذي يعزّ عليه؟ وحيَّره بشدّة أنه يعلم شخوصَ بعض القادمين من القاهرة؛ لكوْنهم أعضاء في ناديه، ويدركُ أن منهم مَن يؤمن بالله، ومع ذلك لم يشأ أحدُهم أن تفوته فرصةَ فسوقٍ أتيحتْ له على الرغم من إيمانه، إلى هذا الحدّ يمكن أن ينشقّ المرء في نفسه وعلى نفسه، فيتضاربُ ما يحتويه قلبُه مع ما تقترفه جوارحه، وتساءل: لو أن الله موجودٌ، فأي الفريقين أفضلُ عنده؟ فريقٌ لم يهتدِ إليه ولكنّه كره الفسوق ككُرْه المؤمنين الشيطان، أمْ فريقٌ كرِهَ الشيطان، ثمّ اتّخذه وكيلًا؟ ابتسم، فهو يعلمُ منذ زمنٍ بعيد أنّ هناك ما لا يطيق العقلُ إدراكه ولا يملك البتّ فيه، ولو استغرقَ عمرًا.. أغمضَ عينيه ليحاول وقفَ سيلِ تأمّلاته، حتى أفاق على صوتِ ضحكات إحداهنّ وهي تلاطف أحدَ الضيوف، فعَلَا صوتُ تساؤلاته من جديد، لِمَ لا تكون مثل هذه المرأة قد تردّدت عليه في عيادته ليخلّصها من مُصيبتهَا؟ في هذه الحالة يكون هوَ مَن شجّعها على الاستمرار في الخَلاعة والانحلال.. وانتبَه إلى تقييم أعماله من زاويةٍ جديدة لم يعرفها من قبل، كمْ شعرَ بضآلته! فقد

حرصَ طيلة حياته على تخْفيف آلام الناس ومساندتهم، وكان ذلك كلّه بدافع الخير الذي يكمن فيه، ولكنْ يبدو أنّ صديقه حسين كان على حقّ حين قال ذاتَ مرّة إنه يفتقدَ معايير ثابتة يفرّق بها بين الخير والشر.. تنبه إلى إقراره بصحة قول حسين، فازداد حيرة ودهشة!

***

صحبه حسين إلى حيثُ كان يجلس على الشاطئ، هدأتْ أنفاس عمرو بعد أن مدّد جسدَه على الرمال بالقرب منه، ثمّ صاح:

– إنه يستحقّ القتل، يصوّر فتاتي بعدسته الحمقاء، في مواضعَ لا تليق.

زوَى حسين بين عينيه وهو يقولُ باشمئزازٍ:

– فتاتك؟!

– أجل، لقد دفعت ثمنَ بقائها معي.. فليس له حقّ فيها، أو حتى في تصويرها.

قال حسين بهدوء:

– مشاعرُك يا أخي أغلى مِن أن تفنيها مع غانية.

صدمَته كلماته، فبكي بكاءً مريرًا أدمى قلبَ حسين، وهو يقول:

– أشتري كلّ شيء حتى المشاعر، فبخستُ أثمان كلّ الأشياء، وفقدتْ القيم معانيها، وأصبحَ الحبّ رخيصًا في سوق النخاسة.. هل تظنّني راضيًا عن هذه العيشة؟

– ألستَ الراعي الأوْحد لهذا الحفل؟

– حسين! لستُ بهذا السوء، فأنا لست مجرمًا يقتل، ولا فاسقًا غايته قضاء وقتٍ مع غانيات، بل أنا أفضلُ كثيرًا من ذلك.

وضع يدَه على رأسه، وسبحَ في ذكريات ماضيه، ثمّ استطرد قائلًا:

– ما زلتُ أذكر بكائي صغيرًا حينما كان أبي يعنف أحدَ الخدم في حضوري، فما كنتُ أحتملُ إذلالهم. هل تصدّق قولي؟

– بالطبع، فعلى الرغم مِن إصرارك على أنْ تُظهر ما ليسَ فيك، قد لمستُ فيك الخير، في كرمِك، واهتمامك بأنْ تردّ الإحسان بإحسان، وفي رأفتك بهرة، ولكن هذا لا ينفي أنّك مَن اخترت هذه العيشة.

صاحَ بصوتٍ مَخمور وهو يجذبُه من قميصه:

– لم أخترها.

تحرَّر حسين من قبضته، ثمّ أردفَ عمرو قائلًا:

– هذه الحياة فُرضت عليَّ، كلّ مَن حولي دفعوني إليها بجشعهم، ما قابلتُ أحدًا تودّد إليَّ لشخصي، بل المصالح هي التي تحرّك الجميع، الكلُّ يلهثُ وراءَ مَنْفعتِه.

سكتَ هُنيْهة، ثمّ أردفَ:

– ربما لو كان البشر كلهم سواسية، وينعمون بنفس الحظ من الجاه والثروة، ما وُجدت الحاجة إلى النفاق والرياء، والهرولة وراء المصالح .. هل تعلم أن أمّي تزوّجت أبي لا لشيء إلّا طمعًا في ثروتِه؟!

آثر حسين الصمت، وقد كسى كل ملامحه العطف والإشفاق، فأردف عمرو بأسى مع سقوط دمعة من عينه:

– هكذا فَقَدَ الصدقُ والأمانُ معناهُما لديَّ منذُ نعومةِ أظافري؛ فأصبحت أرتابُ في كلّ شيء، وأشكّ في كلّ مَن حولي، أحاول أنْ أنسى واقعي البائس بلحظاتٍ من المتعة دونَ أدنى فائدة.. وصدقني، أنا لا أدري لماذا أفضي إليك بما ضاقَ به صدري، ربما لأنّك تختلفُ عن كلّ مَن عرفت.

نظرَ إليه حسين بعدَ دقائق، وجدَه مُطبق العينين، فقال له بعدَ أن أسندَه على إحدى كتفيه:

– لقد أفرطْتَ في الشرب، وتحتاج إلى أن تخلدَ إلى الراحة، هيَّا بنا.

***

لم ينتهِ الحفلُ إلّا بعد شروق الشمس، وبعد أن تفرق الجمع، خيَّم السكون على أرجاء الشاليه، كانت مريم في شرفةِ الطابق العلوي، تملأ عينيها منه عن بُعد وهو يسحبُ أريكته التي تعوّد الرقاد عليها، تأهبًا للنعاس تحت مظلّة الزهور، وكأنّه يتحدَّى البرد كما تحدَّى أفكارهم ومبادئهم، ذرفت دمعة غالية شاهدةً على أيامها معه، لقد أعلن عن حبّه لها بطاقة ورد نسَّقها بنفسه ذاتَ يوم، كما أعلن عن شوقه بصمته على الشاطئ الفضي ليلًا، وفي نظرة عينيه في قارب صغير في حضن البحر، فكيف يتنصّل من حبِّها؟ ثمّ عادت فكرةُ وجود امرأة أخرى في حياته ترد على ذهنها، ولكن شعورها تبدّل – هذه المرة– إزاءَ ذلك الخاطر المُر، تُرى هل للخمر دورٌ في هذا التغيُّر العجيب؟ لقد شعرت باستحقاقها إياه عن جدارة، فلا يمكن أن تكون هناك مَن عشقته قدْر عشقها، ولا يسع أي امرأة في الوجود أن تحتمل لهيبَ ما

حملته له من شوق، فهي الأجدرُ به ولو كانت هناك أخرى، فلا بدّ أن تفوز بقلبه تحت أي ظرف، ثمّ تذكّرت قرار المجموعة المجنون الذي حكم عليهم بالموت وهُمْ في عُنفوان الشباب، فأيامهم الباقية معدودة، فلِمَ تضيعها في لوعة وعذاب؟ لقد قالت لها ناني ذاتَ يوم إنّ حبيبها وإنْ كان شيخًا فهو رجل، وسيستسلمُ أمام جاذبيتها وأنوثتها، فلِمَ لا تستخدم آخرَ أسلحتها قبل فوات الأوان؟ علا صوتُ كرامتها يحذّرها من النزول إليه، بل يأمرها أن تنزعه من قلبها نزعًا كاملًا، وإن استحال ذلك، فعليها أن تقتلع قلبَها من بين ضلوعها، فهو أهونُ من أن تخلع تاج عزّتها وتضيِّع نفسها في درْب الهوان، ترجّت كرامتها بدُموعها، فكيف تطلَب منها أن تنزع أجملَ ما فيها؟ فالعشقُ زينة العشاق، بل إنه مُحَتَّم لبقائهم، والإنسان قد يحيا دون زينته، ولكنْ كيف يحيا دونَ قلبه؟! لا مفرّ من النزول، تعجَّبت من قلبها وعناده، فهو مُصرّ على أن يقضي على صوتِ كبريائها بل وعقلها، ويمسكُ هو زمامَ أمرها، ولقد كان طوعَ أمرها في الماضي ، واليوم فقدت كلّ سلطان عليه! إنْ كان عليها.. فهي تودّ أن تغلق بابَ العذاب الذي فتحَ على مصراعيه بسبب عشقٍ غيْر مبرّر، وتمحو ذِكر حبيبها في نفسها وكأنّها لم تلتقه يومًا، بينما تتوق إلى ذراعيه؛ ليجذبَها إليه في شوقٍ ويغمرها بقُبُلاته الحارة، فتتنفّس بأنفاسه وتذوب فيه، يجب أن تجدَ تفسيرًا لتلك المعركة التي نشبتْ بداخلها دون مبرِّر، القلبُ والعقل فيها مُتقابلان، وتؤكّد بقوة ادّعاء المؤمنين بأنّ البشر ليسوا مجرّد أجسادٍ تتحرّك، بل أن هناك ما يُعارض هوى ذلك الطين، فمَن الذي زرع في قلبها عشقًا مجنونًا، ثمّ غرس فيها ضميرًا يعارض استسلامَها له ويحاسبها على أي تفريط؟ مَن كتب عليها أن تعاني صراعًا مريرًا بداخلها وهي تتوقُ إلى سلامٍ؟ وإنها لترى أن ليس لإرادتها دورٌ في وقف تلك الحرب

الضارية التي دقّت أبواقها، ولا تعلم كيف ومتى تضع أوزارَها، هل هناك مشيئة تسْمو على إرادتها؟ نظرتْ إلى السماء تبحثُ في كبدها عن تلك الإرادة المهيمنة، ارتعدتْ وهي تقول: إلهي، إنْ كنت تسمعني، فلعلّك تلبي دعائي هذه المرّة، فما تبقّى من العمر إلّا قليل.. سألتمس منك لآخر مرة أن تمنحني برهانًا ودليلًا عليك في الاستجابة. إذا كان ذلك الحبّ يُغضبك فانْزعه كما زرعتَه بين ضلوعي، وإنْ باركتَه فلا تعذّبني به. ثمّ نظرت إلى سحب يناير المُتراكمة وهي تتهادى برفق من فوقها كسقفٍ متحرك، فصاحت: وجِّه قلبَه إليَّ كما توجّه تلك السحب إلى وجْهتها، فقلبُه بيدك، وقد ضعفتُ ولم أعدْ أقوى على البعد عنه، فرُدّه لي، وأنت تردّ الأنفس إلى الأجساد كلّ صباح، أمّا إذا تجاهلت دعائي كسابقِ عهدي بك، فلن أذْكرك بعد اليوم. نظرت حولها، وكأنها تُشهد الطبيعةَ علىَ شرط عقد إيمانها المُبرَم، ثمّ أسكتت آخرَ صوت لكرامتها، بل كتمت أنفاسَه وهو يصرخُ فيها ويحذّرها من فعلها الطائش، وقرّرت النزول بملابس النوم.

أخذ سترتَه وغطاءً ثقيلًا، وألقى بنفسه على أريكته التي وضعها خارجَ الشاليه، وأغمض عينيه، وقد هرب من اختناق مؤكّد في القاعة الرئيسية، حيث امتلأت برائحة الفجور والخمور، وفضّل استنشاقَ نسيم عليل بكر قادم من البحر، وإنْ كان الجوّ زمهريرًا في غاية البرودة. وفجأة.. امتزجَ عَبيرٌ البحرِ بعطرها، فتساءل هل يمكن أنْ يسبق الحلم النعاس؟ فتحَ عينيه مسرعًا، وجدَها ماثلة أمامه بلبس شفَّاف قصير، قضتْ سخونته على الصقيع الذي حاطها، فقفزَ من فراشه مفزوعًا، وقال في دهشة:

– مريم.. ما أتي بكِ إلى هنا هذه الساعة؟

حاصرتْه بعينيها قائلةً بحرارة قلبها المُشتعل:

– حسين، لا أطيق بعدي عنك، حاولت مرارًا الابتعادَ احترامًا لرغبتك، ولكنْ ما عدت أحتملُ عذابي، لا تبخلْ علينا بلحظات السعادة، فما تبقيَ من عمرنا إلّا القليل.

تصبّب عرقًا، وهو يبتعدُ عنها ويتوسّل إليها:

– مريم.. لن يفيد، رجاءً اتركيني.

اقتربتْ منه قائلةً بنفس الشوق واللّهفة:

– لا أعرف سببَ إصراري رغم صدّك لي، لأوّل مرة أضعُ كبريائي تحت الأقدام، فلا تقسُ عليَّ في ضعفي.

– ولكن..

ارتمتْ على صدره وهي تقول:

– دعني أرتوي منك وأنتشي.

ثمّ لفّت ذراعيها حول عنقه، وقالت:

– دعني أستنشقك فأحيا بك..

همس راجيًا:

– كفى بالله عليكِ!

لم تنصتْ، وبدأت شفتاها الملهوفتان تتحسّسان طريقهما إلى وجْهه، حتى وجدتا مأواهما في شفتيه.. حاول مِرارًا فك قيدها الذي كانت قد أحكمته

بلمساتها المشتاقة، حتى نفدت عزائمه، ولأنها سكنت وجدانه حمَّلته فوقَ ما يطيق.. تاه عن نفسه، وانقادت جوارحه لسحرها، فضمها إليه، وأغمض عينيه مستسلمًا استسلام صريع سقط في هوة سحيقة.. برزت له - في ظلمته - صلاته، ثم تخللتها أمها الطبيبة، تتوسله حين التقاها في المطعم، وقد وضعت كل ثقتها فيه.. فعاد إلى نفسه في لحظة، بعد أن دبت الروح في ضميره، ونفذت إلى أوصاله.. استفاق، ودفعها بقوة بعيدًا عنه وهو يصيح مع كل ملامح وجهه:

- كفاكِ يا مريم.

وضعَ عليها سترته، ثمّ جذبها بشدة وهي في ذهولٍ من أمْره، وأخذ يجرّها حتى وصلَ بها إلى الشاليه، وأدخلها بغلظةٍ في قاعته الرئيسية، وأغلق بابَها، لن ينسى تلك النظرة التي أطلّت من عينيها بعد أن أخلى سراحَها، كم كرهَ رؤية عذابها وضعفها يتساقطان دموعًا من عينيها، وكأنّها تسابق هطولَ مطر الشتاء، ولَكنْ في البتر قسوةٌ قد تداوي المريض.

***

لم ينمْ له جفنٌ حتى الصباح، ودَّ لو يجرح يدَه التي جذبتها بتلك الغلظة، ويقطع قدميه اللتين ساقتاها بتلك القسوة.. ودَّ لو يقتلع عينيه اللتين لم ترأفْا بحالها وهي ترتعش من البرد القارس، تطلبُ الدفء في أحضانه، رفع بصرَه قائلًا: ربّ لقد كتبت عليَّ هوًى يفوق احتمالي، فقلبي وإنْ كان أشلاءً لا يزال ينبض بهواها، لا أدرك حكمتك، ولكنها مشيئتُك، فأعنّي على أن أرضَى بقضائك.

***

الفصلُ الثّامن
وتوالتِ الأحْداث

حضَّر قهوتَه في المطبخ المكشوف، وهو شاردٌ في أحداث أمس.. أكان قاسيًا؟! أكان عنيدًا؟ لقد مزّق نفسَها اللاهثة، وقتل حبّها جنينًا في قلبها، ولكن ماذا لو تركَ العنان لاشتياقه الجارف إليها؟ ماذا لو مات في حضْنها بالأمس؟ لو كان قد وقعَ ذلك لزهدَ عنه كلّ ما يحْييه من مبادئ وقيم، واحتقرَ نفسه إلى آخر عمره، هل سقطتْ من نظره؟ ألأنّها ضعفت أمام هواه ولم تمتلكْ درعًا من الإيمان ليقيها شرورَه؟ تذكّر دعمَها له وحنانها عليه منذ اللّحظة الأولى حين كان في أشدّ الاحتياج، فهو عاشقٌ لكلّ ما فيها وكلّ ما شكّلها، صمتها، حديثها، قوتها، ضعفها.. فليسامحه الله ويغفر عشقَه المجنون لها، فاجأته ناني بقولها:

– حسين، هلَّا أحضَرت لي كوبًا من القهوة معك؟ أنا أشربه سادة، دون سكر.

علِم أنّ قولها اعتذارٌ متنكّر في مطلب، يأتي عادةً ممّن تمنعهم كبرياؤهم من الاعتذار صراحةً، فقال بابتسامة:

– لا آمن مِن إحضار كوب قهوةٍ ساخن لكِ ، قد تشوّهين به وجهي لو أغضبتكِ دونَما قصد.

ظنّ أنه دفعَها إلى الاعتذار صراحة، ولكنّها قالت:

– انسَ سلوكي معكَ بالأمس، لقد كنت مَخمورة، ولا تنسَ أنّك أيضًا كنت مُستفزًّا.

– لم أقصدْ أبدًا استفزازَكِ.

ثمّ استطرد قائلًا وهو يقدّم لها قهوتَها:

– على كلّ، سامحيني إذا كنت قد تجاوزتُ حدودي.

قالتْ ضاحكة وهي تبتعدُ وفنجان القهوة في يدِها:

– لقد تجاوزتَ، ولقد سامحتُكَ.

صاحَ باهتمام:

– هل هناك أي أخبارٍ عن لوحة الزهرة؟

ردّت بابتسامة:

– ليسَ بعد، ولكن أعدكُ أن تكون أولَ مَن أزفُّ إليه الخبرَ إن تحقق الفوز.

تعجّب من أمر ناني، فهي في عينيه مزيجٌ حيٌّ للشيء ونقيضه، بين الخير والشرّ، الكبرياء والهوان، الفلسفة والجهل، العذوبة والعناد.. عناد إلى حدّ أنْ هانت عليها نفسُها على الرغم من عشقها الحياة، ثمّ جالَ بخلده الانتحارُ ومُهلته، فما تبقّى من الزمن إلّا سبعة أيام..

يا إلهي! هل يمكن أن تتبدّل قلوبهم في هذه الفترة القصيرة، وقد أصرّوا على جحودِهم على الرغم من محاولاته المتكرّرة معهم طوالَ شهر بأكمله؟ أخذَ فنجانه في يده واتّجه إلى الخارج، سابحًا في أفكاره، مدّ بصرَه بعيدًا، فوجَدَ عمرو العلايلي منهمكًا في الحديث مع علاء قربَ الشاطئ، فارتاحَ لفكرة رجوع المياه إلى مجاريها. وقد صدَقَ حدسُه؛ إذْ رأى "عمرو"

في نهاية الحديث يربتُ على كتفِ علاء بابتسامة حانية، ووجد "علاء" يبادله الابتسامة، ويربتُ على رأسه، وبدا له من بُعدٍ أنهما تصافَيا بعد اعتداء عمرو عليه بالأمس. تعجّب حسين في نفسه، فما أَطيبَ هؤلاء وليس أبلغَ دليلا على نقاءِ قلوبهم من القدرة على صفحٍ سريع أطفأ غضبًا ثارَ في صدورهم البارحة، وقد تصالحَ مع ناني ببضع كلماتٍ، كما اغتفرَ علاء ما بدر من عمرو، بحديثٍ لم يستغرق بضعَ الساعة، فكيف وجدَ الكفرُ ملجأ في قلوبٍ طيّبة كهذه؟!

تركَ عمرو "علاء"، وخطا خطواتٍ واسعة نحو حسين، وعندما وصلَ إليه قال بامتنان:

– أشكرُك يا حسين على مساعدتِك لي بالأمس، فلولاكَ لكنتُ قتلته.

– كنتَ مخمورًا، ولعبت الخمرُ برأسك، فكادتْ تحوّلك إلى قاتل، تمامًا كما حوّلت مَن حولك بالأمس إلى أصنام، يتابعونك دونَ حولَ لهم ولا قوة، هكذا تفعل الخمرُ بأصحابها.

أخرجَ عمرو نقودًا من جيبه، رمقَه حسين بنظرةِ عتاب، فأدخلها ثانيةً وهو يقول ضاحكًا:

– لقد تذكّرت، ليس كلّ شيء يُباع ويُشترَى.

فجأة، سمعا صياحَ عبد الوهاب من الداخل، يضحك ويبكي في آنٍ، ويقول مهللًا:

– حبيبتي، كم أشتاقُ إليكِ، أشتاقُ إلى أولادنا وبيتنا، أشتاق إلى لمسةِ يديك.

لم يمهلهما، إذْ خرج من الشاليه وهو يرقصُ من الفرح كطفلٍ صفحتْ عنه أمُّه، قفز بخفّة من فوق سياج الزّهر ليصل إليهما من أقربِ طريق، ثمّ اتّجه نحوهما بصوتٍ مجلجل:

– لقد وصلتني منها رسالةٌ اليوم، لقد غفرتْ وتفَهَّمت كما تنبّأتَ يا حسين، أكاد أطيرُ من السعادة.

فرحَ حسين غاية الفرح عند سماعه نبأ صفْحِها، فتحَ ذراعيه، وأخذَه في حضنه، فقبَّل عبدُ الوهاب رأسَه بامتنانٍ وهو يقول:

– لنْ أنسى فضلَك يا حسين، لن أنسى..

أمّا عمرو، فقال بابتسامةٍ متردّدة:

– مبروك يا عبدَ الوهاب، ولكنْ ما فائدة هذا الخبر، إذا كنا قدِ اتّخذنا قرارًا بالرحيل عن الدنيا وما فيها في غضون أيّام؟!

كسَا العبوسُ وجهَ عبد الوهاب، فكيف يقتل نفسَه بعد أن عادتْ إليه الحياة بهذه الرسالة؟!

***

ومرَّ يومان لم تشرق فيهما، ولم تنعم عيناه باحتضانها بين رموشِه، ودّ لو يراها للاطمئنان عليها، ولكن حجبَها الطابقُ العلوي كما تحجبُ الغيومُ الضياء، لم يكن يحبّ أن يذيقها من كأسِ العذاب التي تجرّعها في الماضي، ولكن ما كان بيدِه حيلة، يا ليتها تدركُ أنَه صانها، وأنّ عزوفه عنها في تلك الليلة كان لأجْلها، ولوعلمتْ أنّ الامتناع يكون أحيانًا دليلَ الحبّ والرعاية؛

ما فقدت إيمانها. أخذ مجلسَه من الشاطئ كعادته في مثلِ هذا الوقت من اليوم، وكانت تراقبُه من وراء ستارٍ في الطابق العلوي، وتساءلتْ، هل يمكن أنْ ينقلبَ حبُّها إلى النّقيض؟ ثمّ عادتْ تسأل، ومَن قال إنّ الكراهية نقيضُ الحبّ؟ فنقيضُ الحبّ هو عدمُ الاكتراث، أي أنْ يتساوى غيابُه بحضورِه، فلا يعْنيها رؤيتُه أو وجودُه، ولكنّها تتعذّب بمجرّد النّظرِ إليه، ولو مِن وراءِ حجاب! وبدا لها أنّ كراهيتَها له لونٌ آخر مِن الحبّ الذي حَملتْه له، حبٌّ أصبحَ يؤلمها بقدْرِ السّعادة التي غمرتْها حينما كانت تَهيمُ في عينيْه، فعذابُها اليومَ لا يتحمّله قلبُها الذي احترقَ بالأمس.. وباتتْ تستعجِلُ يومَ تنفيذِ قرارِ الانْتحار، وعيناها الدامعتان لا تريانِه إلّا وهو يدفعها بغلظةٍ بعيدًا عنه. أغمضت عينيْها لعلّها توقف تشغيلَ شريط ذلك المشهد الذي انهارت به، ولكنّه اخترق السوادَ رغمًا عنها، فظلّت تشاهد كلّ لحظة فيه وكأنّها عُمْرٌ من العذاب، فما زالت تشعر بقبضةِ يده حول ذراعها وهو يدفعُها داخل الشاليه، وتحاصرها عيناه الجامدتان في تلك الليلة المشئومةِ وقد اختفت منهما كلّ رغبة فيها، وتخرق أذنيها كلّ كلمةِ إعراض رشقها بها لسانُه، كدويّ رصاص يخترق قلبَها ويقتلها، ثمّ تعود وتحيا لترى بعيني رأسِها كبرياءها تتساقط تحت قدميه، وأنوثتَها التي دَميَتْ من غلظته ونفوره، وتساءلت في نفسها مَن الذي يجبرها على استرجاع لحظاتٍ تتعذّب بها؟ لو أن الأمر بيدها لَمَحَتْ تلك اللّحظة من ذاكرتها وإلى الأبد.. وتبيَّن لها مرةً أخرى عجزها عن التحكّم في نفسها، ووجود مشيئةٍ تسمو على إرادتها، ولكنّ تلك المشيئة تتجاهلها، وتصرّ على أن تسقيها من العذاب، وقد اتّخَذت على عاتقها عهدًا بألّا تذكرها؛ لأنها ردَّت لها كلّ نداء.. فكيف يتسرّب ذكرها خلسةً في

وجدانها؟! أيكون هذا دليلًا على حضورها؟ وبعد ثوانٍ، أحسّت بناني وهي تربتُ على شعرها بحنان، وتقول:

– مريم، سأذهب في نزهةٍ بالقارب مع فارس الآن، ولا أريدُ أن أتركَكِ بهذه الحالة.

قالتْ بين دموعها:

– اذهبي حبيبتي، وتمتّعي، فالوقت المتبقي قصير، فلا تشغلي بالَك بي.

سمعتْ ناني صوتَ فارس يناديها من الطابقِ الأرضي، فاستأذنتها ونزلتْ على عجل، رمقَهما حسين من بُعدٍ وهُما يخرجان من الشاليه ويخطوان خطواتٍ واسعة تجاه الشاطئ كعصفوريْن يغرّدان، وجالَ بخاطره سؤالٌ ألحّ عليه؛ ما الذي يسوقهما إلى الموت؟! فالحبّ منْحتُهُ التفاؤل والأمل وإحياءُ قلبين بسعادةٍ تثبُ من داخلهما كأنها طفلٌ صغيرٌ يمرح، فكيف هانَ عليهما قتلُ تلك السعادة بأيديهما؟ هل سينفّذ أعضاء المجموعة فعلًا قرارَ الإعدام المتهوّر هذا؟! كيف، ولِمَ هانت عليهم أنفسُهم؟ فالوقت يمرّ دونَ بادرةِ أملٍ في أن يتراجعوا عن قرارِهم الأهْوج. قد يكون عبدُ الوهاب غيَّر موقفه بعد تفهُّم زوجته، ولكنّ تأثيره ضعيفٌ عليهم، بل إنه مُنقادٌ لهم، والزمن يشدّ وثاقه على رقابهم، فماذا يفعل؟ وبدأت فكرة الاستعانة بغيره تلوحُ في الأفق من جديد، فهو يدري أنّ محموله ومفتاح سيارته قد نُزعا منه، وأن علاء لن يقبل أن يعيدهما إليه تحتَ أي ظرف.. فليَصِل إلى بوابةِ القرية، مَشيًا على القدمين، ويستنجدَ برجالِ أمْنها هناك، وإنْ لَمْ يجِدْ منهُم استجابةً؛ فليكْمِل إلى طريقِ السّاحل ويوقفُ سيارة عابرة ويخبرُ راكبيها بما يحدث، فلنْ يكون

له خيارٌ آخر إذا تسرَّبت الأيام من بين يديه دونَ تغيير ملحوظ، ثمّ تذكّر قول الشيخ محمود: الله يرسلُ آياتٍ يهدي بها الناس، فأخذَ يدعو ربه أن يرسلَها، فهُمْ أحوجُ إليها الآن من أيِ وقتٍ مضى. علا صوتُ ضحكات فارس وناني على صوتِ أفكاره وقد اقتربا منه ليأخذا القاربَ الصغير، ويجدّفا إلى الأعمق، فسأل ناني بصوتٍ جَهير وهو ينهضُ من مكانه:

– كيف حالُ مريم اليوم؟

صاحتْ ناني والقاربُ يأخذهما بعيدًا:

– تستطيعُ أن تصعد إلى الطابق العلوي لتعرف حالَها بنفسك.

أيصعدُ إليها؟! هذا ما يهواه قلبُه، إن لم يكنْ ليطمئن عليها، فلتسعد عيناه برؤيتها، وتعجَّب من حاله، فمَن أحلّت له لمْ يدقّ قلبها له إلّا بعد فوات الأوان، ومَن عشقها وعشقَتْه بجنونٍ حُرّمت عليه وحُرّم عليها، كصائمين على مائدةِ طعامٍ في وضح النهار.

عادَ إلى مكانه غارقًا في صورة عينيها اللتيْن اشتاق إليهما كاشتياقِ الزهر لقطرة الندى، ثمّ انتبه على خطواتِ عمرو العلايلي الوانية تتّجه صوبه، وقد اختفت ملامحُ الثقة من وجهه وحلّ محلّها الإحباطُ والقلق، ثمّ قال:

– حسين، أنا في ورطةٍ وأريدُ مشورتك، أليستْ هذه مهنتك التي تجيدها؟

تعجّب حسين، ولكنّه قال:

– هات ما عندك.

قال بتوتّرٍ بالغ:

– البارحة قُدت سيارتي مَخمورًا، فصدمت رجلًا قربَ السوق، كان يجرُّ عربتَه التي كان يبيعُ عليها بعضَ الأمتعة والأغراض، سقط الرجلُ في الحال مدرجًا بدمائه، وتبعثرتْ بضاعته في كلّ مكان.

قال حسين مَذعورًا:

– أقتلتَه؟!

قال بصوتٍ باكٍ:

– لقد قدتُ بسرعة بعيدًا عنه خوفًا من ردّ فعل كتلٍ مِن البشر اجتمعوا حولَ المُصاب، وكانوا يستعرون غضبًا، وأخَذوا يرشقونني بالسّباب واللّعنات، ولكنّ شيئًا ما منعني من أنْ أمضي لحالي، فعدتُ لأطمئن عليه، أخفيت نفسي وراءَ شجرة في الناحية المقابلة للحادث، وأخذت أراقبُهم، وجدت مَن حمله ودخل به منزلًا بسيطًا على مشارف السوق.

سقطتْ دموعُه وهو يقول:

– لا أعلم ماذا حدثَ لهذا المسكين، أهلَكَ أمْ لا يزال حيًّا؟ لكني لن أنسى صورتَه وهو يلفظُ أنفاسه بصعوبةٍ، ويقول: حسبي الله ونعمَ الوكيل. ارتعدتُ لها رغمَ أنني لا أؤمن بإلهه، لم ينمْ لي جفنٌ حتى هذه اللّحظة، ولا أدري كيف أواجهُ نفسي بعدَ فعلتي!

اعتدلَ حسين في جلسته وهو يراقبُ دموعه، وانتهزَ هذه الفرصة قائلًا:

– عمرو، ما الذي يعذّبك إلى هذا الحدّ، فما رآك أحد؟

– أجل.. ولكنْ يا حسين قد يكون المصابُ هو العائلَ الوحيدَ لأسرةٍ فقيرة.

– وما الضّير؟ فما رآك أحد.

صرخَ عمرو في وجهه قائلًا:

– ولكنّي شاهدٌ على جريمتي..

– وهل تعتقدُ أن الضمير الحي بين جنبيك وليدُ صدفةٍ أو تراب؟

– حسين، لا أقوى على سماع فلسفتِك العقيمة، أريد حلًّا يريحني.

قال حسين وهو يهمّ بالوقوف.

– هل سلّمت مفتاح سيارتك إلى علاء، أمْ لا تزال تحتفظُ به؟

– لا يزال معي.

– إذًا هيّا بنا إلى مكانِ الحادث.

***

في هذا الوقت، كانت ناني تلفّ ذراعيها حول عنقِ فارس في دلالٍ وهُما في عرْض البحر، منتشيَيْن بصفاءِ السماء وزُرقتها، والهواء اللطيف الذي كان يداعبُ شعرَها الذهبي ويرسله يغازلُ وجهَه الأسمر فيزيدُه نشوة، قالتْ بحرارة:

– حبّي لك أوسعُ من هذا البحر.

ضمّها بقوة، فقالت وهي تدفنُ رأسَها في صدره:

– حبيبي، لِمَ نهلكُ أنفسنا وبإمكاننا الاستمتاعُ بحياةٍ مديدة معًا؟

أمسكَ وجهَها الذي ارتسمتْ عليه ملامحُ الرجاء، وقال بجديّة:

– وماذا عنِ التزامنا بوعودنا، ودعم أفكارنا؟

– فلندعم أفكارَنا ونحن أحياء، لِمَ الموت؟ لِمَ الفناء؟

أبعدَها عنه بخشونةٍ حتى سقطتْ على حافة القارب، وصاحَ غاضبًا:

– لا أريد حبًّا يُضعفني..

شعرَ بالذنب حين رآها ملقاةً على الحافة تبكي بحرقة وقد جُرحَ رأسُها، فأسرع يرفعُها إليه معتذرًا:

– آسف حبيبتي، سامحيني..

أخذَ يقبّل دموعها بشفتيه بعد أن ضمّها إليه مرةً أخرى بحنان؛ فنسيت ما كانَ منه وغرقت بين ذراعيه حتّى تجهَّمت السماء، وأخذ الجوّ يكشّر عن أنيابه!

***

كانت مريم كعادتها في الأيام الأخيرة قد اختارتْ غرفة معيشة الدور العلوي ملجأ لها، تقضي ساعاتها خلفَ ستار النافذة تترجَّى يومَ الخلاص من جَلْد ذاتها التي لم ترحمْها بعد آخر لقاءٍ بينها وبين حبيبها، ولم تنتبِه إلّا على قولِ فيفيان بصوت خافت:

– قلبي ينفطر عليكِ حزنًا وأسفًا، ولا أدري كيف أخفف عنكِ.

نظرت إليها مريم بين دموعها، ثم أدارت رأسها عنها وهي تقول:

– لا عليكِ، فلا شيء يخلصني مما أنا فيه إلا الموت.

تألمت فيفيان، فهي تعلم أن حسين هو داؤها ودواؤها، وليس لأحدٍ غيره يدٌ في خلاصها، ولكن ما فائدة الخلاص مع اقتراب الأجل؟! ثم عادت تدقق النظر إليها وهي تبكي بحرقة و ترتجف ارتجافَ ورقة خريف في مهب الريح ، ورجعت إلى نفسها تتساءل، ما بدَّل حال مريم؟ فقد كانت مُفعمَةً بالحيوية والتفاؤل إلى حد أنها ما توقعت خضوعها لقرار الموت كما فعلتْ.. فكيف ساقها حسين إلى هذه الحالة من الاكتئاب واليأس، وهي لم تقابل من يضاهيه رجولة ونخوة؟ فجبَهتها بقولها :

– أهو حسين؟

نظرت إليها بعينين ذابلتين ولم تجب، فأردفت بقلق:

– ماذا فعل بكِ؟

– لم يفعل شيئًا.. لم يفعل.

ثم صاحت وهي ترتمي بين ذراعيها:

– بل فعل يا فيفيان.. لقد ذبحني بغير سكين، وجرحه لا يزال يدمي قلبي المُعذب.

لم تسكت عنها حالة الجزع، بل أخذت ترتجف وتنتحب، وأخذت فيفيان تربت عليها تارة وتضغط على يدها تارة أخرى لعلها تهدأ.. حتى بدأت تشعرُ بآلام في رحمها، لم تعرها اهتمامًا في بادئ الأمر؛ لاستبعادها موعدَ ولادة جنينها، فهي لا تزال في شهرِها الثامن، ولكن تلك التقلّصات الرحميّة المؤلمة لم تهدأ كما ظنت، وراحت تشتد عليها حتى صاحت بذعْر:

– مريم أغيثيني، أشعرُ بآلام المخاض!

استفاقت مريم من حزنها، ومسحت دموعها على عجل، وأمسكتْها من يدِها لتسلمها إلى الفراش وهي تقول:

– لا تفزعي، استريحي واهدئي، سأبحث فورًا عن علاء لينقلنا إلى المشفى.

هرعت مريم إلى القاعة الرئيسية في الطابق الأرضي، فوجدتْها خالية، ثمّ أحسّت بحركة عبد الوهاب واقفًا في المطبخ المكشوف، وكان يعدُّ كوبًا من الشاي، فهرولتْ إليه وأمسكت بذراعه مُستجيرة، وقالت:

– عبدَ الوهاب، نريد سيارةً بسرعة، فيفيان تضعُ وليدَها.

قال عبدُ الوهاب باضطراب:

– لقد خرجَ علاء ومعه كلّ المفاتيح، كما خرج عمرو وحسين، أمّا ناني وفارس فيتنزّهان بقاربٍ في البحر، و...

قاطعتْه صرخةُ فيفيان من الطابق العلوي لتعلنَ عن اقتراب موعدِ وصول طفلها بين لحظةٍ وأخرى، فأسرعا إليها، وقد اشتدّت الآلامُ عليها حتى كادتْ تغيب عن الوعي، ثمّ بدأت تفقدُ كميةً كبيرة من الماء، فقال عبدُالوهاب بصوتٍ حازم:

– مريم، لا بدّ من فحصها.

قالتْ مريم باستنكار:

– تفحصُ مَن؟!

– أنسيتِ أني طبيبٌ متخصِّص، ساعديني.

ثمّ اقترب مِن أذن فيفيان وهو يقول:

– عندما تشعرين بقربِ التقلّص تنفّسي تنفسًا كاملًا بعمق، وساعدي عضلاتِ بطنك على أن تنقبِض.

مرّت فترةٌ قصيرة حاولتْ فيفيان فيها أن تلبّي نصيحته بمنتهى الإخلاص، حتى قال:

– لا بدّ أن نتحرّك وبسرعة، ساعديني يا مريم حتى نخرجَ الجنين.

أخرجتْ مريم كلماتٍ متقطعةً من هوْل المفاجأة:

– أساعدُك أنا؟! لنخرج فيفيان.. أقصدُ الجنين؟!

***

اتّجه كلٌّ من عمرو وحسين إلى مكانِ الحادث، وطرقا بابَ المنزل الذي أشارَ إليه عمرو على أنّه البيت الذي أدخل فيه المصاب، كان عمرو قلقًا خائفًا خوف طالب يترقّب نتيجة امتحان آخر العام، أمّا حسين فكان يدعو ربَّه أن يجدَ في مشوارِهما ما يزيح الضبابَ الذي غشَّى بصيرةَ عمرو، فتحَ لهما صبيٌّ صغير، فقال له حسين:

– هل نستطيع أن نقابلَ والدك؟

أدخلهما الصبيّ إلى حجرةٍ بسيطة، بدا من فرْشها الفقير أن لها استخدامات عدّة، فهي حجرة نوم وطعامٍ واستقبال في آنٍ واحد، وبعد لحظات خرج الصبي مصطحبًا ضريرًا هزيلًا أنهكَه المرض. رحَّب بهما الضرير بحفاوة، وكأنّه يعرفهما منذ زمن، وبعد أنْ أجلسهما قال حسين:

– شكرًا على حفاوتك، ولقائك الطيّب.

قاطعَه عمرو وهو يخرج مالًا من حافظته:

– جئنا أنا وصديقي لندفع ما علينا من الزّكاة، وقد سمعنا عن حادثةٍ وقعت بالأمس أمامَ داركم، وعرفنا عن المصاب إمّا أنه من أهلكم وإما إنكم قد قُمتم بدورٍ عظيم في مُساندته، وفي كلتا الحالتين، نشعر أنّكم تستحقّون بجدارةٍ نصيبًا من زكاتنا.

لم يشعرْ حسين بارتياح لتبرير عمرو، وتعجّب من عدم التزامه باتّفاقه معه وهُما في الطريق، إذِ اتّفقا على أن يتركَ لحسين عبء التفاوض. ابتسم الشيخُ لكلام عمرو ابتسامةً عريضة أظهرت أسنانَه المفقودة، وقال بهدوء:

– لقد فقدتُ بصري، ولكنّ الله عوّضني بالبصيرة. مَن فيكما الذي صدمَه بالأمس؟

نظرَ عمرو إلى حسين بارتباكٍ يستنجد به، فقال حسين بنبرةِ أسف:

– قد صدقَ حدسُك يا حاج، نعتذرُ عن عدم مصارحتك بالحقيقة منذ البداية، فقد خشي صديقي من أثر المصارحة على نفسك، ولكنْ بعد الحديث معك، أدركنا أنّك مِن أصحاب الحكمة الذين وصفهم الله بأنّهم أوتوا خيرًا كثيرًا، لقد جئنا ويدُنا ممدودةٌ لإصلاح ما يمكن إصْلاحه، فهل تعيننا على ذلك؟

دخلتْ زوجةُ الشيخ بصينية، في وجهها بشاشةٌ على الرغم من انْحناء ظهرها، وخطواتها الزّاحفة، قدّمت لهما كوبيْ شاي، ثمّ خرجت، أخذَ عمرو يراقبُ الشيخ وهو يقول:

– الحمدُ لله الذي أنقذَ المصاب، فلم تكنِ الإصابة خطيرة كما يظنّ الرائي في الوهلة الأولى، وبعد أن اصطحبَه ابنيَ سامي إلى هنا، استطعْنا أن

نمدّه بإسعافاتٍ أولية، فابنتي "روحيّة" تعمل في التّمريض، ولها درايةٌ بهذه الأمور، فكنّا جميعًا في خدمته.

قال الصبيّ بحماس:

– لقد شاركتُ أنا أيضًا في إسعافه.

ربتَ الشيخ على رأسَ صبيّه، ثمّ أردف:

– لقد تحسّنت حالتُه بسرعة بعد الإسعافات، واتّصلنا بأهله، وعادَ إلى منزله على قدميه.

تنفّس عمرو وحسين الصّعداء، ثمّ أخرج عمرو بعضَ النقود، ووضعَها في يدِ الشيخ، فأبعدَها قائلًا:

– يا بني، تجارتي مع الله أبْرَك.

اندهشَ عمرو من سلوكِ الضرير، فهو سعيدٌ وراضٍ كلّ الرضا، بل وفي غنى عنْ مُساعدته، وعلى الرَّغم من إعاقته وفقْره، فيدُه ممدودةٌ بالخير، ومنزلُه مفتوح لمَن يستجيرُ به. ولأوّل مرّة يشعرُ أنّ السعادة والقدرةَ على العَطاء لا يتحدّدان بالظروفِ المُحيطة كما ظنَّ. فميزانُه الذي كان يدلّه على اخْتلالِ العدْل في الأرض لم يعد صالحًا في عينيْه؛ لعجزِه عنِ الإلْمام بمقوّماتِ السّعادة.

وفي خلال دقائق، خرجا بعد أنْ أخذا من سيدِ البيت عنوانَ المصاب، وهُما في طريقهما إليه، قال عمرو وهو يقودُ سيارته:

– أدهشتْني قوةُ هذا الأعمى.

قال حسين بحماس:

– لأنّك لا ترى إلّا بعيني رأسك، وما تراءى لك هو ضعفُه وإعاقتُه وقلةُ حيلته؛ ولذا فلا يوجد تبرير أو تفسير لديك لثباته وقوته، ولكنّ الشيخ موصولٌ بخالقه، يمده بقوةٍ لا تراها.

قال عمرو وهو يأخذُ نفسًا عميقًا:

– عدْنا إلى الدّجل والخُزعبلات.

– إذا كان هذا دجلًا، ففسّر لي سلوكه تفسيرًا منطقيًّا.

أخذَ عمرو يبحث بداخلِه عن حجّة أو سببٍ غير الإيمان، فلم يجدْ فقال:

– الإيمان، ولكنّ الإيمان ما هو إلّا تصديق أكذوبةٍ تُعينك على مصائب الدّهر.

قال حسين وكلُّ ملامحِ وجهه تصرخُ باحتجاج:

– وما برهانُك على أنه يؤمن بأكذوبة؟ ألأنّك لا تراه؟ وهل كلّ ما لا نراه غيرُ موجود؟ فالميكروبات.. الجاذبية الأرضية.. الخلية.. ضميرُك الحي الذي دفعنا إلى ما خضْنا فيه الآن حاضرٌ، وإنْ لم نره بأعيننا.

لم يجدْ عمرو ما يُعينه على جِداله، فالتزمَ الصمتَ حتى وصلا إلى بيتِ المُصاب.

***

انقلبَ الطقسُ رأسًا على عقب، وهُما في حضن البحر، وأخذَ الموج يعلو كالجبال ويأتي من كلّ صوب، اهتزّ القارب اهتزازًا عنيفًا، رفعتْ ناني رأسَها ونظرت حولَها بذعْر، أمّا فارس فأخلى سبيلَها ليمسك بالمِجداف قبل أن يتخطّفه الموج، ولكنْ لم يسعفه الزمن، وسقطَ المجداف في بحرٍ غاضب يهددُ ويُزمْجر، وأخذت السماءُ تستفزّ أمواجه بأمطارٍ ثائرة لتزيدَ من علوّه ونفوره، وعصفت الرياحُ وهاجت، وأرسلت الغيومَ لتسدل ستائرها، فلم يعدْ فارس قادرًا على أنْ يرى ناني وهي تبعدُ عنه بضعة سنتيمترات، وامتلأ القارب بماءٍ متدفّق، فحاول عبثًا أن ينزحه، وقد فقد كلّ سيطرةٍ على القارب، وأخذ الموتُ يلوح بوجهٍ مُخيف، لم يكن يتصوّر مدى قُبحه، وأحسّ- ولأوّل مرة- أنّه ريشةٌ في مهب الريح سقطتْ من طائرٍ جريح، فإذا هوَ أضعف ممّا كان يظنّ، محتاجًا إلى مَن يُعينه ومَن به يَسْتجير.

أمّا ناني، فأمسكت بحافة القارب بعد أنْ تجمّد الدمُ في عروقها، واصطكّت أسنانها وأصبحتْ لا تقوى على الحركة، أخذتْ تصرخ وتصرخُ، حتى جفّ حلقها، وعندما لاحظَ فارس أنّ صوتَها قد خفت، بدأ ينادي عليها، وفجأةً خطف البحرُ الغادر ناني في لحظة، وألقى بها في غياباته، وكلّما همَّت بالصعودِ إلى سطْحِه؛ غشيتْها أمواجُه، ودفعتْها مِن جديدٍ إلى الأعمق. طفتْ وغطسَتْ مرّاتٍ ومرّات حتى خارتْ قواها، ولَمْ يمنعْها عن الاسْتسلام سوى حبلٍ ألقى أحدَ أطرافِه مِن المركب، فأخذتْ تحاولُ جاهدةً الوصولَ إليه والتّشبّث به..

اضطرب وفزع قلب فارس حين سمعَ صوتَ سقوطها في الماء، أخذَ يتحرّك بانفعالٍ داخلَ المرْكب الصغير، وفي كلّ الاتجاهات، يرتعشُ وهو يمدّ

يديْه في الهواء بحثًا عنها، ففي ظلّ عينيْن لا تعملانِ بسببِ كثافةِ الغيوم، كانت يداه الممدودتانِ وسيلتَه الوحيدةَ للتحقّق مِن وجودِها، وعندما دلّتاهُ على أنّ المركب خالٍ وأَيْقنَ سقوطَها؛ أخذ يصرخُ من جديد: هل مِن مُعين؟!

***

انتهت ساعاتُ المعاناة والشدّة ببكاء الرضيع، يا لَها من سعادة! لم تكنْ فيفيان تتخيّل أنّ بكاءه سيطربُها إلى هذا الحدّ، فتَّحت عينيها، وجدت مريم إلى جانبها الأيمن تحملُ رضيعَها في الثوب الذي أهداه إليها حسين، وعبدُالوهاب واقفًا يترقّبها في الناحية اليسرى من الفراش، قالت مريم بابتسامةِ الملائكة:

– (ألفُ مبروك) يا فيفيان، صبيّ كالقمر، يشبهك إلى حدٍّ كبير.

قال عبدُ الوهاب بحماس:

– ولادة البكرِ تستغرق زمنًا طويلًا، ولكنْ يبدو أنّ رضيعك ليس كأمّه، ملهوفٌ على الدنيا.

نظرتْ إليهما فيفيان بامتنانٍ قائلة في وهنٍ:

– لا أدري كيف أشكرُكما.

علا بكاءُ الرضيع، فشعرتْ فيفيان برغبةٍ في ضمّ صغيرها إليها، فهمستْ قائلة:

– مريم، ناوليني إيّاه، لعله جائع، فأرضعه.

تناولته فيفيان من مريم، وبمجرّد النظر إليه اختلفَ مَذاقُ الدّنيا في حلْقها.. فعيناه الصغيرتان تَغلغلتا وأحيتا الأملَ في قلبها، ومِن فرْط سعادتِها،

سارتْ تضحكُ وتبكي في آنٍ، واحتضَنَتْه في حنوٍ وعطفٍ، وإذْ بحُبٍّ افْتقدتْه طيلةَ حياتها يتدفّقُ في عروقِها، ويصالحها مع دُنياها. قال عبد الوهاب وهو يهمّ بالخروج، حتى تأخذَ الأمُّ راحتها في إرضاع وليدها:

– حليبُ الأم في أوّل أيّام الرضاعة في غايةِ الأهمية؛ فهو يحتوي على أجسام مضادّة لحمايته من الأمراض. احرصي عليه وأشْبعيه منه، ولا تدخِلي معه لبنًا آخر.

أومأتْ فيفيان برأسها، وهو يغادر الغرفة، أمّا مريم فأخذت تنظرُ إلى الرضيع وهو يلتهمُ ثدي أمّه، وتساءلت: كيف استدلّ ذلك الرضيع على مصدر رزْقه؟ ومَن علَّمه؟ وأغمضتْ عينيها تُذكّر نفسها بالوعدِ الذي أخذته على عاتقها، بألا تذكره، فما فائدة ذكْر إلهٍ لا يستجيب لدعائها، ويصرّ على تجاهلها؟! ثمّ عادت ونظرت إلى الصغير، وقالت في نفسها: ولكنّه لم يتجاهل ذلك الرضيع الذي لم يتجاوزْ عمرُه بضع ساعة، كم هزّها صراخُه لحظة ميلاده، ليعلنَ عن قدوم مشروع رَجُلٍ، قد يكون له– خلالَ عقود– مالٌ وسلطانٌ وصيْت، فمِن أين جاءَ هذا الوليد؟ وكيف نما واكْتمل؟ وهل يمكن لنطفةٍ لا تُرى بالعين وبلا قيمةٍ ولا تكاد تزنُ شيئًا؛ أنْ توجد نفسها تلقائيًّا، وتضعُ بداخلها أعقدَ البرامج والمعلومات؟ عيناه عينا أمّه، فمَن خطَّ صفاته في جينات داخل نواةِ خلاياه؟ نظرتْ إلى دقّة يده الصغيرة وهو يمسك بأصْبع أمّه ليعلن عن تشبّثه بحياته، وتساءلت، مَن أودعَ فيه الحياة؟ ثمّ نظرتْ إلى أمّه وهي تحتويه بحنانٍ بالغ، وتصبر على طول الانْحناء، وهمست: إذا كان الله حاضرًا؛ فلماذا يُهملُ دعائي؟ لماذا يصرّ على استبعادي من رحمته، وقد خلقَ الأمهات؟

بعد برهةٍ، عاد عبد الوهاب للاطمئنان، فتسلّل إلى سمعهم صوتُ فتح الباب الرئيسي للشاليه في الدور الأرضي، حاولت فيفيان أن تنهضَ قائلةً بفرحة وهي تنظرُ إلى مريم:

– ساعديني يا مريم أنْ أنزلَ إلى الطابق الأرضي، يبدو أنه حضرَ بعضُ أصدقاء المجموعة، وأودّ أن أزفّ إليهم خبرَ مجيء صغيري.

قال عبدُ الوهاب محذرًا:

– لا داعي لأن تجهدي نفسَك في النزول، سنأخذه أنا ومريم، ونزفّ لَمن جاء الخبر.

استلمتْ مريم الرضيعَ من أمّه، واتّجهت ومِن ورائها عبدُالوهاب إلى الطابق الأرضي. كم كانت تتمنّى ألّا يكون القادم حسين راشد، فهي حتّى الآن لم تكن مستعدةً لمواجهته! ولكنْ تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

في ذلك الوقت، دخل كلٌّ مِن حسين وعمرو القاعةَ الرئيسية للشاليه، حيث قال عمرو بامْتنان:

– حسين، لا أجدُ كلمات شكرٍ توفّيك حقّك، فراحة البال التي أنعمَ بها الآن، بعد الاطمئنان على المُصاب وتعويضه، لا تقدّر بكنوز الدنيا، لقد صدقت حين قلتَ لي يومًا، ليست كلّ الأشياء تباع وتشترى.

ابتسمَ حسين، وربتَ على كتفه، ثمّ سمعا صوتَ صراخ الرضيع يقترب، أثلج صوتُه صدرَ حسين، فهذا الضعيفُ سيقوّي موقفه ويعَزّزه ضدّ قرارهم الأهوج، أمّا عمرو فقال بدهشة:

– هل صوتُ الرضيع هذا بدارنا؟!

هزّ حسين كتفيْه وهو يقول بابتسامة:

– يبدو ذلك. لقد فعلتْها فيفيان.

رقص قلبُه عندما رآها تحملُ رضيعَ فيفيان، وارتوتْ عيناه الظامئتان منها بعد أن صامتا عنها بِضعة أيّام، سبقه عمرو إليها، ينظرُ إلى الرضيع بفرحة، ثمّ قبَّل جبهته قائلًا:

– ما أنقى الصغارَ وأطيبَهم! كيف حالُ فيفيان؟

لم تتمكّن مريم من الردّ، وقد كانت تستجمع شتاتَ نفسها على إثر رؤية حبيبها بعد آخرِ لقاء، فصاحَ عبد الوهاب مِن خلفها:

– فيفيان بخير، والولادة تمّت بيُسر.

نظرَ حسين إلى عبدِ الوهاب بامتنان قائلًا:

– أحسنتَ يا طبيب، أدَّيت مهمَّتك على أكمل وجْه.

قال عبدُ الوهاب بخيبةِ أمل:

– طبيبٌ مع وقْف التنفيذ.

اقتربَ حسين من مريم، وهو ينظرُ إلى الرضيع الذي بين يديها، سعيدٌ بزيّه الذي اختاره له، وسألها:

– ماذا سَمَّتهُ؟

قالتْ وقد انتفضَ قلبُها باقترابه منها:

– ملاك.

نظرَ في عينيها، وجدَ فيهما كرامةً تصرخُ في وجهه وتتحدّاه، وحنينًا وشوقًا يترجّيانه، وراح الصغير يبكي ويصرخ، فقالت مريم بابتسامةٍ صغيرة:

– إنه يطلب أمّه.

أخذته وصعدتْ إلى فيفيان، فضحك عمرو قائلًا:

– عجيبٌ أمرُ الإنسان، تكون له منذ مهدِه إرادة.

فقال حسين وهو يضع يدَه على كتفِه:

– فكيف يمكن أن يجيء من له إرادةٌ بلا إرادةٍ أو مشيئة؟ مِن أين نجمَت إرادته؟

وفجأة، ملأ دويّ الرعدِ أسماعهم، وانْتبهوا إلى انقلابِ الجوّ، وصوتُ المطر ينقرُ زجاج النوافذ بشدّة، عادتْ مريم من الطابق العلوي تقولُ في ذعْر:

– فارس وناني لم يعودا حتى الآن مِن نزهتهما البحرية!

الفصلُ التّاسع

فَجر

أخذَ القارب يتراقصُ كاللّعبة في جوفِ البحر، وصياحُ فارس يعلو باحثًا عن حبيبته..

– ناني.. لا تضيعي، حبيبتي، أين أنتِ؟ لا تغيبي.

أخذَ يصرخُ وهو يبحثُ عن طيفها حوله قائلًا:

– أيْنما كنتِ استعيني بقوّتك، فنحن أقوياءُ لو تعلمين.

كان يعلمُ أنه كاذب، لقد خارتْ قواه، ولا يسمع إلّا صدى صوتِه يتشتّت ويضيعُ في الفضاء الواسع من حولِه، حتى الْتهمه اليأسُ فسقط على أرض القارب المرتجف يبكي بكاءً مريرًا.. وانبعث من داخله صوت يردّد: ما أَضعفَكَ يا فارس! ما أوهنَك! ظننت أنّ بمقدورك أن تحتفظَ بحبيبتك بين أحضانك، ولكنني أراك الآن لا تقوى حتى على إبقاءِ نفسك على قيْد الحياة، حتمًا ليس الأمرُ بيدك كما ظننْت، كنت تعتقدُ أنك القويّ المسيطر، وأنّك الفارسُ المغوار الذي يقاتل أسبابَ التخلّف والانحدار، ولكنّك لم تكنْ تقاتل إلّا نفسك التي بين جنْبيك، وتهلّل لانتصاراتها الزائفة، خدعتَ نفسك وخدعتَ غيرك.. وظننتَ أنّ بمقدورك أن تقرّر موعدَ اختفائك مِن هذا العالم، ونسيتَ أنك لم تحدّد موعدَ ظهورك فيه، ولم يكن لك يدٌ في ملامحِك ولا أقدارك، فأغفلت قدْرَ نفسك، والذي يُضحكُ ويُبْكي أنك تصوّرت أنك لا تبالي الموت، ويمكن أن تُقدِم عليه دون تردّد أو خوف،

فما أحقرَك الآنَ وأنت تهابُه! ترتعدُ منه فرائصُك ويتجمّد الدم في عروقك وأنتَ تراه يشحذ أسنانه ليلتهمَك، كحشرةٍ زاحفة حقيرة تخشى أن تدهسَها قدمٌ سوف تخطو عليها لا محالة.

أخفى وجهَه بيديه، وكأنّه يختبئ من ضعفه وهوانه، ومِن لحظة آتيةٍ رغمًا عنه تخمدُ أنفاسهُ و تُهديه طعامًا سائغًا لسمكِ البحر، مَن ينْجده منْ غضبة تلك الريح العاتية وغيظِ تلك السُحب المُتراكمة، وهياج هذا البَحْر اللُجّي يَغشاهُ موجٌ من فوقه موجٌ؟ صاح فجأة:

– يا ألله.. أغثْني.

استكانَ لذكْره، فارتجفَ دهشة من شعورٍ هيمنَ عليه ولم يفهمْه، شعور طمأنه بحضور مَن هو أكبر مِن الكون ومَن فيه، تُرجَع إليه الأمورُ وإنِ اختل كلّ ما في الطبيعة مِن حوله، ما أجمل الهدوءَ الذي تسلّل إلى نفسه والسكينة التي خامرته، في ظلّ هياج ريح وأمواج وأمطار عارمة غاضبة! فوجد في ذكرِ الله طوقَ نجاة اعتصمَ بهَ رغمَ عجزهً عن رؤيته أو لمْسه، ظلّ يذْكره حتى اخترقتْ حركة يدِ حبيبته الضبابَ وهي تقبض باستماتةٍ على حبلٍ مربوطٍ بحافّة المركب حريصةً على ألا ينْفلت منها، وقد غشيتْها أمواجُ البحرِ من كلّ جانب، ولم يبدُ منها سوى يديها الصغيرتين المعاندتين، لم يصدّق نفسه، وملأ دويُّ صوتِه السماءَ وهو يصيحُ بأعلى صوْت:

– أحمدُكَ يا ربّي.

هُرعَ إليها لاهثًا، ودموعُه تسبقُه امْتنانًا وخجلًا مِن خالقِه الذي غمرَهُ بكرم يفوقُ اسْتيعابه، وجذبَها بشدّة، واندهش لقوّته التي دبّت في أوصاله من جديد، وعندما رفعها إليه وجدَها بلا حراك، وقلبها يكاد يكفُّ عن

الخفقان ، فأخذها في أحضانِه يمزج دموعه بحبّات المطر المتساقطة، ثمّ هدأ البحرُ شيئًا فشيئًا، ونحّى غضبَه، وسكنتْ عنه الريح، وظلّ يمسح على شعر حبيبتِه، راجيًا أن تظهرَ له دليلًا واحدًا على بقائها حيّة، وأخيرًا رأى في الأفق وميضَ نورٍ يدْنو منه، وبعد برهةٍ ظهر النورُ منعكسًا عن جدار قاربٍ كبير، به كلٌّ مِن حسين راشد وعمرو العلايلي وعبد الوهاب بين رجالٍ آخرين، صاح يطلبُ النجدة، وهلّل الجميع لرؤيته.

***

نُقلت ناني على الشيزلونج- داخل القاعةِ الرئيسية للشاليه بالدور الأرضي- في حالةِ إعياء شديد بعد أن قام عبدُالوهاب لها بالإسعافات الأولية، اخترق سعالُها أسماعَهم عبر ضلوعِها البارزة، تتخلّله آهات تقطعُ نياط القلوب، وعلى خدّيها دموعٌ تسيل. وبدأتْ في سباقٍ مع الزّمن على الرّغم من وهَنِها، ودقائقُ الساعة لا تكلّ ولا تَملّ، تُرى هل سيمْهلُها الوقتُ لتعيش؟ فهي تكرَهُ أنْ تموت، ومعَ ذلك أقدمتْ على الانتحار إذا كان في صحبة مَن أحبّت؛ فهيَ لا تتصوّر العيْشَ بدونِه، وهي الآنَ على مَشارفِ الموتِ وحْدها، ما أرعبَ الفكرةَ! فها هو الفَناءُ يخْتصّها، ويضيقُ الحصار عليها، حاولتْ أنْ تفتحَ عينيْها الهزيلتيْن، لعلّ رؤيةَ حبيبها تُبقيها على قيْدِ الحياة، وتسحق بها الموت، ولكنْ خذلتْها جفونُها، وخرجتْ عَنْ طوْعِها، شعرَ فارس بأنّ حياته على محكّ وهو ينظرُ إليها بقلبٍ مَلهوف، وظلّت مريم تمسحُ على جبينها بكمّادات مثلّجة لخفض حرارتها التي ارْتفعت، أمّا عبدالوهاب، فكانَ واقفًا يُراقب ناني باهتمامٍ بالغ. وقد جلس كلٌّ مِن حسين

وعمرو على كرسيَّين متقابليْن في حالة ترقّب، ثمّ سأل فارس عبدَ الوهاب بقلق:

– هل لا يزال هناك خطرٌ على حياتها؟

قال عبدُ الوهاب ليطمئنَه:

– ستكونُ على ما يُرام.

صاحَ حسين:

– هل الأفضلُ نقلُها إلى مشفى؟

قال عبد الوهاب وهو يهزّ كتفيه:

– أخشى أن تزدادَ حالتها سوءًا أثناءَ النقل، ولا أرى حتى الآن أنّ الحالة تستدعي هذه المجازفة.

ثمّ نظرَ إلى عمرو قائلًا:

– عمرو، سنحتاج إلى سيارتك، لا بدّ من شراء حقنة مضادّ حيوي لها، وبسرعة.

خرجَ كلٌّ مِن عبد الوهاب وعمرو العلايلي على عجَل، وظلّ فارس ومريم بجانب ناني يسعفانها، أخذت مريم تنظرُ خلسةً إلى حبيبها بين حين وآخر وهو يجلس على الكرسي الجانبي يدعو ربّه في صمت، ثمّ صعدتْ بعد فترةٍ إلى الطابق العلوي لتطمئنّ على فيفيان وابنها، انتهزَ فارس فرصة صعودِها واتّجه إلى حسين بخطواتٍ مُرتعشة، ثمّ وضع يدَه على كتفه قائلًا:

– حسين، ادعُ ربّك أن ينقذها.

لم يتخيّل حسين حتى في أحلامِه أن يبلغ مسمعَه هذا الإقرار مِن فارس، فنهض من مقعدِه قائلًا بدهشة:

– أوآمنت به؟

أومأ برأسه، ودموعُه تتساقط قائلًا:

– لقد رأيتُ الله في ضعفي وقلّة حيلتي.

أخذه حسين في أحضانه، وقلبُه يرقص من شدّة الفرح، ثمّ صاحَ بحماس:

– ادْعُه أنت إذن.

قال فارس بين دموعِه:

– وهل سيقبل دعائي بعد كلّ ما علمه مني مِن جحود؟

– إنه غفور رحيم يا أخي، ولن يخذلك.

***

صعدتْ مريم إلى الطابق العلوي، فوجدت ملاكًا نائمًا في حضن أمّه، وكانت فيفيان تتأمّله وهو يبتسم ابتساماتٍ مُتلاحقة وتضمّه إليها برفقٍ، سألتها بصوتٍ خفيض حتى لا تزعجَ الرضيع:

– فيفيان.. هل كلّ شيء على ما يُرام؟

أومأت برأسِها، ثمّ سألتْها باهتمام:

– كيف حالُ ناني الآن؟

– بخير.

أعادتْ فيفيان نظراتها إلى الرضيع النّائم، فهمستْ مريم:

– لمَ لا تنتهزين فرصةَ نومه لتستريحي قليلًا؟

أومَأتْ فيفيان برأسها، ثمّ عادتْ بسعادةٍ غامرة تنظر إليه، وهي تحوطه بأحضانها.

ابتسمتْ مريم لرؤيتها مع رضيعِها، فما أروعَ الأمومة، وما أبدعَ مشاهدها! فتلك المرأة الماثلة أمامها والتي ظنت طيلة حياتها أنها لا تملك ما يميزها، بدت بتاج أمومتها أجمل نساء العالم، وتذكّرت قول حسين: لو كان الله غائبًا كما تدَّعون، لاختفت من عالمنا كل مشاهد الرحمة.. وتعجّبت مِن أمرها، فهي لم تعدْ تملكُ أن تمنع نفسَها من ذكر الله، على الرغم من عهدِها الذي أخذتْه على عاتقها، فكلّما وقعتْ عيناها على كلّ جميل؛ وجدتْه آية!

نزلتْ من الطابق العلوي بعد الاطْمئنان على فيفيان وابنها، ولم يلبث عبدُالوهاب وعمرو العلايلي أن يعودا من الخارج بعد شراءِ حقنة المضادّ الحيوي ومخفّضات للحرارة وبعضَ مستلزمات علاج الجروح، وبسرعة حقنَ عبدالوهاب ناني، وعالج جروحَها التي ظهرتْ على جسدها، وبعدَها استغرقت في نوم عميق.

دخل علاء الشاليه بعد برهة، وقد غاب عنهم طوالَ اليوم، وكان محمّلًا بأكياس أعلنتْ عن قضاء وقته في السوق، تعجّب حسين منه، فكيف يقضي من حزمَ أمرَه على قتْل نفسه يومًا كاملًا يتسوّق؟ فمَن عساهُ أن يستمتّع بتلك البضائع جميعها إذا ماتَ في غضون أيام؟! استبشرَ بأكياس علاء المحمّلة، إذْ رأى تسوّقه دليلًا على عُدوله عنْ قرارهم، لعلها تكونُ مواجهتُه للموت يوم حفلةِ رأس السنة الدافعَ وراءَ تحوّل موقفه، وقد جالَ بخاطره كيف

تسارعت أنفاسُه، وارتجفت أطرافُه، وكيف راح يصرخ ويتوسل إليه رعبًا وهلعًا ليسرعَ في إنقاذه، ثمّ تذكّر بعد ذلك أنه لم يُبدِ له بعدَ تخليصه ونجدته من يدِ عمرو أيَّ امتنان، بل أصرّ على خشونته وعناده الذي ألفه منه منذُ اللحظة الأولى في التعامل معه، ولم يُزِلْ إنقاذُه من براثنِ الموت ذلك السدَّ المنيع الذي أقامه بينهما، فهل يمكنُ أن يسوقه عنادُه وكبرهَ إلى تمسّكه بقرارهم الأخرق؟ ثمّ عادَ وتهلّل بأكياس السوق قائلًا في نفسه.. قدْ تعوق الكبرياء كلمةَ شكر من أنْ تخرج من حلقٍ مُكابرٍ، ولكن لا يمكنُ أن تحرّر قلبه من الخوف والرهبة.

وصاحَ فارس في وجْه علاء قائلًا:

– أينَ كنت؟ كدْنا نموتُ يا رجل، وأنتَ تتسوَّق؟!

كسَا الجزعُ والقلق وجهَ علاء وهو ينظرُ إلى ناني– وهي مُستلقية في حالةِ إعياء– ثمّ ترك أكياسَ التسوّق تسقطُ منه على الأرض، وجرى ناحيتَها بارتباكٍ قائلًا:

– آسف.. أعتذر، لم أكن أعلم.. كيف حالُها؟ وماذا حدثَ لها؟

حكى عبدُ الوهاب ما حدث مِن أهوالِ ذلك اليوم، وظلّ الجميع في خدمة ناني حتى منتصف اللّيل، وبعد تحسّن مَلموسٍ في حالتها، حملَها فارس إلى الدور العلوي لتنام على فراشها، ظلّ بجانبها، يرقّبُ أنفاسها في صمت، أمّا مريم فجلستْ على الكرسي المقابل تنظرُ بفزعٍ إلى صديقتها، وتساءلت في نفسها: كيف عزموا على قتلِ أنفسهم في غضونِ أيام؟ وقلوبهم الآن تنتفضُ وجلًا من موت قد يلتهمُ أحدَهم، وفجأة سمعت صوتَ فارس باكيًا وهو يقول:

– أدركُ أننا لا نستحقّ عفوَك، ولكن كيف لا تعفو وأنتَ الكريم؟!

تعجّبت مريم وأنتابها الذّهول، إذْ زلزلت كلماتُ فارس أرجاء الحجرة مِن حولها، فخفق قلبها، وتسارعت دقاته، ونظرت إليه لتتأكّد أنّ ما سمعته صادرٌ منه، فأردف قائلًا وهو يضع كفّيه على وجْهه:

– يا إلهي، يا مجيبَ المضطرّ إذا دعاه، يا مَن زرعت هواها في قلبي، نجّها مِن أجلي.

نهضتْ مريم من مقعدها إثرَ دعائه، وجرتْ نحوه، وجلستْ على ركبتيها بجواره تسحبُ يديه بقوة؛ لتكشفَ عن وجهه، قائلةً بدهشة:

– ماذا قلت؟!

نظرَ إليها ودموعُه تتساقط قائلًا:

– أدعوه يا مريم، فليسَ لنا سواه.. إنه ربّي وربّك.

ثمّ مسحَ دمعَه قائلًا:

– لقد فقدنا رشدَنا وبصيرتنا بأيدينا، كحالِ مارّة في صحراء قرّروا أن يغمضوا أعينهم في وضح النّهار، فأنكروا الشمس، على الرغم من بزوغِها ساطعة، تضيء الأرض ومَن عليها، مع أنّهم ينْعمون بدفئها.

جرتْ بدموعها إثرَ كلامه إلى الشرفة تملأ عينيها بكلّ ما دلَّ عليه، نظرتْ إلى موج البحر، واتساع السماء، وجَمال الورد، وأخذت تنظرُ كيف ذُلّلت الأرض وما عليها للبشرِ على الرغم من ضعفهم وهوانهم، تذكّرت الرضيع، كيف ولد، وكيف لبّى الله حاجته من اللّحظة الأولى في حضور أمّه، على الرغم من شدّة ضعفه وقلّة حيلته، شعرت أنها أشدّ منه ضعفًا وهوانًا، وإنْ بدت عكسَ ذلك، فناجت الله وقد تهدَّج صوتها:

– إلهي، لماذا تسمعُ لهم.. ولا تسمعني؟ لماذا تصرّ على أنْ تتجاهلني،

ولا تجيب لي دعاء؟ لقد عاهدتُ نفسي ألا أذْكرك، بعد أن تجاهلتَ رجائي، ولكن كلّ ما حولي يشهدُ لك، فكيف لي أنْ أنْكرك؟! إنّي لأراكَ في الضمير الذي يُعلي قيمه على الهوى، وفي كلّ خلق جديد، في تنفّس الصبح، وفي صراخ الوليد، وفي كلّ لمسة جَمال وكمال، وفي الميزان بين كلّ نقيضين، فنحنُ في افتقار دائم لأنْعُمك، فكيف يمكنُ أن تغيب؟! سأذكُرك وإنْ لم تذْكرني، وسأحياً بك وإنْ حرمتني مِن هوى يُحيي قلبي.

ثمّ رأتْ شهابًا محترقًا يهوي في السماء، فقالت في نفسها: ومَن يدري، قد أستحقّ ذلك الحرمان، كاستحقاق ذلك النجم للسّقوط، فاعتراضي على قدر الله لن يبدله، وإنكاري إياه لن يغيُّر حقيقة حضوره!

***

بعدَ صلاة الفجر، انطلق حسين إلى البحر كعادته ليشهَدَ مولدَ يوم جديد على الشاطئ، وعند اقترابه منه أدهشتْه رؤية فارس يسجدُ سجودًا طويلًا، ظلّ يراقبه وقلبُه يسبّح بحمده حتى شعر به فارس، فنهض قائلًا، وقد ترقرقتْ عيناه بالدّموع:

– حسين، أشعر بضآلتي أمام كرمِه.

ربتَ حسين على كتفيه، ثمّ أردفَ فارس وعلى وجهه ابتسامة:

– لقد تحسّنتْ ناني كثيرًا، واستقرّت حالتها.

قال حسين بهدوء:

– ما أجملَ أن تُسلم نفسَك له وأنتَ مُطمئن!

أخذَ نفسًا عميقًا وهو يتذكّر ذلك الشعور الذي هيْمَن عليه وآمنه من فزعه في عرض بحرٍ يبتلعُه وسماءٍ تلفظُه، ثمّ مدّ بصرَه إلى الأفق قائلًا:

– صدقتَ.

وبعد برهة، التفت إليه قائلًا:

– لا تنسَ اجتماعنا الليلةَ للعدول عن قرار المجموعة، أرجو أنْ ألقَى دعمًا كافيًا.

– بإذن الله.

رمقَه فارس بنظرةِ امتنانٍ وهو يقول:

– لن أنسى ما فعلتَه معي، أرجو أن نظلّ صديقَين.

– صداقتُنا في الله يا فارس، وسوف تمتدّ لتجتاز هذه الحياة إلى حياةٍ أجمل بإذن الله.

حياة أجمل.. تأمّل فارس هذه الكلمة، وتعجّب من ردّ فعله، إذِ اسْتحسنها، بل استعجَلها، وقد كان يسخرُ بالأمس ممّن يتحدّثون عنها، وكان يتحدّاهم بقوله: ائتوني بأجدادي إنْ كنتم صادقين. ويتصوّر بسؤاله أنه حاصرَهم بحجّةٍ دامغة، دون أن يدركَ فسادها؛ وقد افترض أنه شاهدٌ على مجريات الأحداث من بداية خلق الكون إلى نهايته، فبدت الدنيا محدودةً بمحدودية عمرِه القصير على الأرض، كحال زهرة تنكِرُ الشتاء لسقوطِها في فصل الخريف.

***

كانت في المطبخ المفتوح تجهّز إفطارها وإفطارَ فيفيان وناني، وضعت الجبنَ والبيض المسلوق على الصينية، وبدأت في صبّ القهوة، وسرعان ما داهمتها أوجاعُها، فبكَتْ حرمانها ممَّن أحبّت، ونعت قلبها على حبّ قد توارى ولم يبقَ منه إلّا أصداء أليمة تصفعُها كلّ يوم مائة مرةٍ بلا رحمة أو

هوادة، فأخذت ترجو ربَّها، إنْ كان قد كتب عليها فراقَ الحبيب، أن يحرّر قيدَها، ويُبرِئ قلبها من هواه، ثمّ تنبّهت لدعائها، فتعجّبت من نفسها، إذْ عادت تدعوه من جديد بيقينٍ بالغ بحضوره.. وفجأة، وجدتْ حبيبها أمامَها، ارتعدتْ فرائصها، وارتبكتْ، وشعرتْ بأنّ الأرض تحتها بدأت تَميد، وارتجفتْ يدُها حتى سكبتْ بعضَ القهوة التي كانت تعدّها، أمّا هو فقال بابتسامةٍ حانية:

– كيف حالكِ اليوم؟

شعرتْ بضرورة الحفاظِ على ما تبقّى لها من كرامة، فقالت بصوتٍ خافت وهي تهمّ بالرحيل:

– بخير.

أمسكَها من ذراعِها برفقٍ، يستوقفها قائلًا برجاء:

– مريم، أرجو أن تتيحي لي فرصةً لأشرح لكِ موقفي.

هربتْ دمعةٌ من محبسها، وقالت:

– لا داعي لاختلاق أعذارٍ وحججٍ واهية، فأنا مدركةٌ تمامًا ما حدث، و..

قاطعَها قائلًا:

– آسف.

– أتعتذر لأنّ قلبَك لم يسعْني؟ أم لأنّك طعنتني في أنوثتي وكرامتي في تلك الليلة المنحوسة؟ لا تشعر بحرجٍ أو خجل، أنا متفهّمة تمامًا، بل إنني نسيتُ ما حدث.

استدارتْ فأوقفها مرةً أخرى وهو يقول:

– أعرضتُ عنكِ خوفًا عليكِ.

نظرتْ في عينيه في دهشةٍ وحيرة، تطلب بصمتٍ تفسيرًا لاعْتذاره، فأسَرَها بنظرةٍ حالمة اخترقت قلبَها الواجف وهو يقول:

– آه.. لو تعلمين كمْ أنا مُشتاق لضمّك إلى صدري؛ لأستنشقَ عبيرك وأحيا به! كم أتوقُ إلى لحظة تتخلّل فيها أصابعي خصلاتِ شعرك، وأتحسّس تفاصيلَ وجهك! فأنا مفتونٌ بك، ولكني لست ممَّن يقطفون الأزهار ويدوسونها، خشيتُ عليكِ من نفسي، وخشيتُ علينا من غضبِ الله.

رقصَ قلبُها على لحن صوتِه، وانشرح صدرُها ليسعَ العالم كله، ولكنه ما لبث أن ضاقَ عليها بوثاق ضميرها الذي أحكم قيدَه حتى كادَ يخنقها، فهروَلت نحو البحرِ الواسع ودموعُها تسيل على خدّيها، تتبعها حسين مندهشًا من سلوكها، دونَ أن تلحظه، فقد كانت في معيّة مَن شغلها عن الأرض ومَن عليها، وعندما وصلتْ إلى الشاطئ، لم تستطعْ رفعَ عينيها إلى أعلى، فخفضتْهما وهي تقولُ في نفسها:

– كنتُ مغيَّبة، كجنينٍ ظنَّ أن العالم هو رحمُ أمّه، فظلمتُ نفسي، وظننت بكَ ظنّ السوء. لكنك صُنتني بعطائك وبمنعك مع ما جابهتك به من نُفور! فكيف سخطتُ على ما قدَّرتَه لي، وأنتَ مَن أذنت بوجودي، ورعيْتني من قبْل أنْ أكون؟! فهل تغفرُ لي ما بدرَ مني؟ هل تغفر سوءَ ظنِّي؟

وعندما نظرتْ إلى الأفق، شعرتْ بانفراجٍ قدْرَ اتّساعه، وأحسّتْ بالاستجابة، فتنفستْ الصعداءَ وهي تصيح:

– يا ألله.. ما أكرمَك!

أدهشَه قولُها وهو واقفٌ خلفها يراقبها، فسألها بفرحة، وقد ترقرقتِ الدّموعُ في عينيه من فرط المفاجأة:

– أُقلتِ يا ألله؟!

استدارت، فوجدتْه ماثلًا أمامها بتينك العينين اللتين عرفتْ من خلالهما ربَّها، فأومأت برأسِها وهي تضحكُ بين دموعها وتقول:

– أجل. فهو قريبٌ.. وهو يسمعني.

صاحَ بأعلى صوت:

– أحبّك يا مريم، أُعلنُها وبقوة، وسأكونُ حصْنَك ما حييت.

قالتْ بحماس وهي تقبضُ على ذراعيه:

– فلنهربْ يا حسين، أريدُ أن أظلّ معك عمري كلّه، لا أريد أنْ ألتزمَ بهذا العهد المجنون.

مسحَ على شعْرها وهو يقول:

– اطمئنّي يا حبيبتي، واهدئي، سيُحلّ في اجتماع الليلة.

***

تمكّنت كلٌّ مِن ناني بعد تماثلها الشفاء، وفيفيان التي أسلمت ابنَها للفراش من حضور الاجتماع، وجلس كلُّ أفراد المجموعة في أماكنهم التي اعتادوا عليها في القاعة الرئيسية ، كان الجميعُ مترقّبين، إذْ جاء قرارَ اجتماعهم على حين غفلة، وقد اقتربَ موعدُ تنفيذ قرار الانتحار، فظنّ البعض أنّ عَقْده بغرض الاتفاق على وسيلة تناسبه حرقًا أوغرقًا أوخنقًا إلى آخره، وتحديد ساعة تنفيذه، وتمنّى أغلبُهم أنْ يعتقهم هذا الاجتماع من تنفيذ حكم إعدامٍ

أهوج اتّفقوا عليه في لحظةِ جهلٍ وانهيار. وضع فارس حدًّا لترقّبهم بعد أن توسَّط الغرفة وهو يقول:

– لقد اتّفقنا في آخر اجتماع على أن ننتحر انتحارًا جماعيًّا، باقي من الزمن يومان على تنفيذ اتّفاقنا، وقد جَدَّ جديدٌ في أمري، ولذلك أعرضُ عليكم أن أحلّكم من هذا الاتفاق المجنون، وأن يعود كلٌّ منّا أدراجه.

وقفَ علاء وجهًا لوجهٍ أمامه متحدّيًا، وقد كستْ ملامح وجهه الدهشةُ والغيظ، فقاطعه قائلًا:

– لا أصدّق ما سمعتُ لتوي! مَن يقول هذا؟ فارس جلال؟ الأدْمن؟ الذي ينتصرُ لما يعرفه من حقّ مهْما كانت الظروف؟

قال فارس بابتسامةٍ هادئة:

– وأنا كما أنا، ولذلك عدلتُ عن أمري، ليس لدينا حقّ في إزهاق أرواحنا.. ما الذي يحملنا على أن نسبّب العذابَ والأسى لكلّ مَن أحبّونا واهتمّوا بأمرنا؟

قال علاء وهو ينظرُ إلى وجوهِ الحضور:

– أحبُّونا!! أليس هذا هو المجتمع الذي لفظَنا؟! أفلا يستحقّ أن نهزّه هزّة عنيفة؛ حتى يفيق من ظلمه وتجمّده؟!

قال فارس وهو يضعُ يدَه على كتفِ علاء:

– علاء.. هذا قراري، وكعادتنا، سنجمعُ أصواتنا، ونمتَثِل لصوتِ الأغلبية، مَن يُرِد أن يعْدل عنْ قرار الانتحار؛ فليرفعْ يدَه.

رفعَتْ فيفيان يدَها وهي تقول:

– سأعيش لابْني.

سألَها علاء بانفعال:

– وما سببُ العدول عنْ قرارك؟

– كان في أحشائي، لم أحسّ منه إلا بنبضاتٍ بداخلي، ولذلك هانَ عليَّ كما هانت عليَّ نفسي، ولكن الآنَ أرى عينيه وشفتيْه، أراه يبتسمُ وينام ويبكي، فكيف أسلبُه الحياة؟!

ثمّ رفع عبدُ الوهاب يدَه في سعادة وهو يقول:

– اشتقتُ إلى العودة لأسرتي.

سأله علاء بفضول:

– ألم تهجرْك زوجُك؟!

– لقد عدَلتْ عن موقفها، وأتوقُ إلى العودة إليها.

ابتسمَ علاء ابتسامةً شاحبة وهو يقول:

– مبروك.

رفعَتْ ناني يدَها بين دموعها، ثمّ همستْ إلى فارس:

– أحبّك، وسأعيش معكَ طوالَ العمر.

ألقى علاء جسدَه على أقربِ كرسي له، وقد بدا عليه الاستسلامُ لتغيّر موقفهم.. واحدًا تلوَ الآخر، ثمّ أخذت مريم يدَ حسين، ورفعاها معًا، رمقها حسين بنظرةِ هُيام، وقال بابتسامةٍ عريضة:

– سنتزوّج وندعوكم جميعًا إلى الفرح إنْ شاء الله.

ورفعَ عمرو يدَه كذلك قائلًا بتأثّر:

– كنتُ أبحثُ عن السّكينة في الموت لأنّني أخفقتُ في الحصول عليها طوال حياتي، ولكنني وجدتُها أخيرًا في راحةِ الضمير.

صمتَ برهة، ثمّ قال:

– يوجد سببٌ أهمّ للتشبّث بحياتي..

حاوطته الأنظارُ باهتمام، أمّا هو فنظرَ إلى حسين ومريم، وأردفَ قائلًا وهو يبتسم:

– جاءتني دعوةٌ لحضور حفلِ زفاف، لا أستطيعُ ردَّها.

ضجّت القاعة بضحكاتهم وتهليلهم، ثمّ هدءوا، ولم يبقَ سوى علاء، فظلّ ساكنًا حتى قال حسين:

– مَن تُعاند؟ فأنت أيضًا تعشقُ الحياة، لقد قضيت وقتَك في السوق منذُ أيام قليلة، فكيف يتسوّق مَن زهدَ في حياته؟!

قال علاء بهدوءٍ، وقد هربتْ دمعةٌ عزيزة من عينه:

– لم أكنْ زوجًا أو أبًا مثاليًّا، فأردتُ أن أحسِّن صورتي في ذهنِ أفراد أسرتي قبل رحيلي، فأرسلتُ إليهم هدايا اشتريتها لهم مع رسالةٍ أطلبُ فيها الصفحَ والسماح.

ثمّ قال وهو يمسح دمعَه، ويرفع يدَه مُبتسمًا:

– ولكنْ ما دام هذا رأيكم جميعًا، فلنحيا.

علا ضجيجُهم بصياحهم وتهليلِهم وتصفيرهم، فرحةً وابتهاجًا بقرار العودة إلى الحياة، ثمّ قاطعَهم عبدُ الوهاب قائلًا:

– ما دام الأمرُ كذلك، فلا أرى داعيًا للمُكثِ هنا، فلنرحل غدًا.

أيّده علاء بحماسٍ قائلًا:

– وأنا أيضًا أرى ذلك، ولكنْ دعونا غدًا نحتفلُ بقرارنا هذا بوجبةِ غداءٍ نتناولها معًا؛ ليكون الغداءَ الأخير لنا في هذه الرحلة.

قالتْ مريم بفرحة:

– وليكنْ غداءً فاخرًا، سأتولّى أنا أمرَه بنفسي.

صاحتْ ناني:

– وأنا معكِ.

ثمّ قال حسين لعلاء:

– أظنّ أنْ لا داعي لأنْ تحتفظ بمفاتيح سياراتنا والمحمول، فلنتسلّم أمتعتنا منك الآن.

قال وهو يومئ برأسَه:

– بالطبع.

استلمَ كلٌّ منهم أغراضه، حتى جاءَ دور حسين، فقال له علاء وقد دمعتْ عيناه:

– انتصرتَ، مبروك.

وانبعثت ابتسامة على شفتي حسين وهو يقول:

– كلّنا منتصرون بهذا القرار، لو تعْلم يا علاء.

وربتَ على كتفه، ولأوّل مرة ينظرُ إليه علاء بابتسامة حانية ونظرةِ رضا، وما درَى حسين ما إذا كان هذا لشعورِه بالاستسلام والهزيمة، أو لأنّه يفتح صفحة جديدة معه.

وهكذا انتهتْ ليلتُهم، وباتَ كلٌّ منهم يرجو غده.

***

قضتْ مريم وناني صباحَهما في المطبخ، وأخذتا تجتهدان وتتفنّنان في إتقان كلّ أصناف الطعام المختارة لغدائهم بعدَ أن وفّى عبد الوهاب بطلباتهما من السوق، لم تستطعْ فيفيان أن تشاركَ في تحضير هذه الوليمة؛ وقد كانت في الدور العلوي ترعى صغيرَها، أمّا بقية المجموعة فجلسوا في القاعة الرئيسة في الشاليه، يتغنّون برائحة الطبخ الزكيّة، ما عدا حسين، الذي آثر خلوتَه مع ربّه وهو يودّع أمواجَ البحر على الشاطئ.

وعندما قاربت الساعة الثانية ظهرًا، نادتْ فيفيان مريم من الطابق العلوي، فانسحبتْ لتلبّي نداءها، وخرجتْ ناني بقطعةٍ من الفطير لتضعها في فم فارس، وعندما اقتربتْ منه لاحظتِ الوشاح الذي لفّه حول عنقه، فضاقَت عيناها وهي تحاول أن تبحثَ في أرشيف ذكرياتها معه عن قصّة هذا الوشاح، فبادرها بفخرٍ مجيبًا عن سؤالها الذي لم يسمعْه:

– إنّه هديةُ حسين لي.

ابتسمتْ، ثمّ وضعت في فمِه قطعةَ الفطيرة، استمتعَ بقضمها قائلًا:

– ما أروعَ طعمَها! إنك ومريم ماهرتان بحقّ.

ثمّ همس قائلًا:

– سعيدٌ مَن يحظى بكِ زوجة.

كادتْ فرحتها تحلّق بها عاليًا، فهذه أوّل مرة يتحدّث فيها فارس عن الزواج، أمّا علاء فصاح وهو يندفع إلى المطبخ:

– مِن حقّي أيضًا أن أتذوّق الطعام، وإنِ افتقرت إلى صديقةً تهتمّ بي.

دخلَ المطبخ ولم يستغرق مُكثُه فيه سوى بضعِ دقائق، وعادَ وقد امتلأ فمُه بما لذّ وطاب، ثمّ قال وهو يمضغ:

– لقد صدَقتَ يا فارس، ما أجملَ هذا الطعام!

قاطعَه عمرو قائلًا، وهو يضحك:

– يبدو لي أنّك أدخلت كلّ ما في المطبخ في فمِك، والآن لن نجدَ ما نأكله.

دقّت الساعة الثالثة ظهرًا، أقامت كلٌّ مِن مريم وناني سفرة غذاءٍ في منتهى الرقيّ والفخامة في القاعة الرئيسية للشاليه بالقرب من النافذة الزجاجية المطلّة على البحر، أخذ كلٌّ مِن أعضاء المجموعة مجلسه من مائدة الطعام، وانضمَّت إليهم فيفيان بعد أن أسلمتْ ابنها للفراش، وشرعوا في تناولِ أشهى المأكولات، ما عدا علاء، فقد امتنعَ عنه لانشغالِه بالتصوير، ثمّ وقف يقول بحماس:

– ما أجملَ تلك اللحظات! عند عودتي، سأرسل إلى كلٍّ منكم أجملَ ما سجّلت من صور في هذه الرحلة.

بارك الجميعُ وعدَه بتهليل، ثمّ وجَّه العدسة إلى كلٍّ منهم، وبعد أن التقطَ لهم بعضَ الصور، قال:

– هذا آخرُ غداءٍ بيننا احتفالًا بما أقدمنا عليه، فهل أنتمْ مُوافقون؟

صاحَ الجميع:

– موافقونَ بالطبع.

لاحظَ حسين تعمُّد علاء إبهامَ قرارهم النهائي أثناءَ التسجيل، فصاحَ بعد أنْ شعرَ بالخطر:

– توقّفوا جميعًا عنِ الأكل.

أطلق علاء ضحكةً مدويةً وهو يقول:

– لقد تنبّهت مُتأخرًا يا حسين، ومَن يضحكُ أخيرًا يضحكُ كثيرًا.

نظرتْ ناني بذعْرٍ إلى حسين، وقد بدأت تشعرُ بآلامٍ في بطنها:

– ماذا يقصد؟!

قال عمرو العلايلي وقد بدأ يشعر بالآلام نفسها:

– لقد سمَّمنا، فهذا الطعامُ مَسْموم.

صرختْ مريم قائلة:

– كيفَ وقد أعددتُ وناني كلّ شيء فيه؟

صاحَ عمرو:

– لقد دخل المطبخ لمدّة دقائق وهو خالٍ.

ثمّ أدار وجهَه إلى علاء قائلًا بغلٍّ مَمْزوج بوهَن:

– ولكنْ لماذا يا علاء؟ لماذا قتلتَنا؟

قال علاء وهو ينظر إلى أجسادِهم التي بدأت تتلوّى كالسمك عند خروجِه من الماء:

– لم أعتنقْ أفكارَكم للحظة، فالله جليٌّ في كلّ شيء، وسيغفرُ لي إنْ شاء؛ لأني مضطرٌّ إلى ذلك، لقد غرقتُ في ديوني ولي زوجةٌ وأطفالٌ صغار، وجدتها فرصةً أن أنضمّ إلى شباب مغفّل ومَعْتوه، ومقبلٍ على الانتحار، حتى أستولي على جميع أمْتعتهم بعد وفاتهم، وعند لقائي بعمرٍو العلايلي، وإدراكي حجمَ ثروته، ازدادتِ الفرصةُ رونقًا وبريقًا، وازددتُ تشبّثًا بها، خاصةً بعد أنْ عرفتُ منه وهو مَخْمور الأرقامَ السريّة لبطاقات ائتمانه، فبالله عليكم كيف أضيّع هذه الفرصة؟!

قال عبدُ الوهاب بلومٍ وضعف:

– أي فرصة وقد تغيّرَ موقف كلٍّ منّا؟

قال علاء وهو يرمقُ حسين بنظراتِ حقدٍ وكراهية لا حدَّ لها:

– أجل. فحسين كاد يضيّع عليَّ الفرصة حتى لاحتْ في ذهني الخطةُ البديلة.

وأخرج حقيبةً كبيرة من وراء دولابٍ للزينة في مدخل الشاليه، وبدأ يلملمُ أمتعتهم، وقع حسين على الأرضِ، وقد بدأ يتقيّأ ما في بطنه، وهو يقول بصوتٍ متقطّع:

– وهل تظنّ أنك بفعلتك هذه ستفلتُ مِن العدالة؟

قال في عَجَل:

– إذا كنت تقصد عدالةَ الأرض، فقد أفلتَ منها الكثيرون وأنا منهم، وهذه المرّة بالذات أعددت لها عدّتها، فحديثُكم وتعليقاتُكم على الجروب واللّقطات التصويرية التي صوّرتها لكم و"مَنْتَجْتُها" طوالَ الرحلة، والتي نشرتُها على الفيسبوك ستكون شاهدًا عليكم، أمّا إذا كنت تقصدُ عدالةَ السماء، فالله رحيمٌ وسيغفر، لأنّه يعلم بحالي، ويعلم أنّ فيكم مَن يُنكره، فأنتم أعداؤه، وطبيعيّ أن ينتقم منكم مِن خلالي.

ثمّ نظر إلى حسين وهو يتصبّب عرقًا، واستطرد قائلًا:

– أمّا أنت، فكنتَ المؤمن الوحيد فيهم، وقد نصحتُك بالرحيل، على الرغم مِن يقيني بأنّ غرورك سيبقيك، وكبُرَ مقتًا عند الله الغرور، إذًن فأنتَ أيضًا تستحقّ مصيرك البائس مثلهم.

تعجّب حسين من التّشابه الذي نجمَ بين علاء وإبليس، إذْ إنّ الاثنين يؤمنان بالله، ويُصرّان على معصيته.

خرجَ علاء من الشاليه بعد أن حزمَ أمتعتَهم وهو يقول:

– وداعًا يا أصدقائي، سأفتقدُكم بشدّة، ارْقدوا في سلام.

بلغتْ قلوبُهم الحناجر، وزاغتْ أبصارُهم، وأخذت ناني تزحفُ على بطنها وقد امتزج عرقُها الذي تصبّب على جبينها بدموعِها، حتى وصلت إلى حبيبها المُلقى على الأرض، وقالت:

– أخشى الموتَ يا حبيبي، أخشاه، بل أكرهُ أن أموت، خذْني في حضنك كي أختبئ منه.

وضعَ فارس يدَه الهزيلة على رأسِها وهي تنتفض بجانبه، وسألَ نفسه: هل أنقذَهما الله من موتٍ محقّق في جوفِ البحر ليموتا كفأريْن في مصيدةٍ على الأرض؟! لا.. لا يمكن أن تكونَ هذه النهاية! فلا حكمة من ورائها ولا مبرر، ثمّ عاد يؤنّب نفسه، فهو ليس حَكَمًا ولا بيدِه تقييمُ ما يحدث مِن حوله، وتذكّر قول حسين: ما أجملَ أن تسلمَ نفسك له وأنتَ مُطمئن. فهمسَ في أذن حبيبته:

– حبيبتي، إذا كانتْ هذه مشيئة الله فلتكُن، فنحنُ بين يدي الرحمن، اطمئنّي.

انتفضتْ ناني إثرَ كلام فارس، وبدلًا من أنْ يمنحها سلامًا، غشيَها خوفٌ وذهول، متى وأين لانَ قلبُه إلى الإيمان بالله؟ فهذا إعجازٌ يماثل في قوّته المشي على الماء، أو تحوّل النحاس والقصدير إلى ذهب وفضّة، أو شروق الشمس من الجنوب، كيف آمنَ ذلك القلبُ العنيد؟! أهداه خالقه؟ ما أفزع الفكرة! إذْ لو صحّت فسوف تقف بين يديه بين لحظةٍ وأخرى، فماذا عساها أن تقولَ له؟! أتتحجّج بوالدها، وهل تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى؟ وصاحتْ في نفسها: يا ربّ كنْ أرحم مِن أنْ تقبض روحي وأنا على كفر. وشعرت بروحها تصعد إلى حلقومِها، فأخذت تصرخُ ولم تعدْ تعلمُ أكانَت تصرخ ألمًا أمْ خوفًا ممّا ستلاقيه، عادَ فارس ليطمئنَها بصوتٍ ضعيف:

– اهدئي يا ناني، فما أرحمَه علينا!

ناني.. هذا الاسم الذي أطلقته على نفسها بعد أن تغرّبت عنْ دينها، لتمسح به أي أثرٍ لهويّتها الأولى، ولكنّها الآن إذا وقفت بين يدي الله، فبأي اسمٍ يناديها؟! همستْ في أذن حبيبها بصوتٍ ضعيف:

– اسمي نشوى يا فارس، لا تنادني بناني إنْ كُتبت لنا النجاة.

اغرورقت عينا فارس بالدموع وهو يومئ برأسه بالإيجاب، ثم رسم على شفتيه ابتسامة شاحبة وهو يمسك وشاحه بكفيه الهزيلتين، وبدأ يتأهب للانتقال من هذا العالم إلى عالم أجمل، كما وعده حسين.. رمقه عمرو العلايلي بنظرة أسى وحسرة وهو يسترجع من ذاكرته ملامح ذلك الأسمر الذي اتسم بالحماسة والصلابة، ويقارنه بالراقد أمامه يلفظ آخر أنفاسه.. ثم أغمضَ عينيه يتعجّل لحظةَ الوفاة، فوقوعُ البلاء أرحمُ مِن انتظاره، فرأى نفسَه داخل نافذة عرض لمحلّ صغير بسوقٍ مُزدحم، يُباع ويُشترى في مزاد، ورأى أنه يتجوّل داخل السوق وسطَ زبائنَ متجوّلين، همَّ ليشتري نفسَه قبل الآخرين، فأدخل يدَه في جيبه في عجَلٍ وأخرج حافظته، فوجدَها خالية، فتحَ عينيه إثرَ عجزه عن شراء نفسه، وصاح:

– سرق بطاقات ائتماني، وكلّ ما أملك، يا لَه مِن وغْد!

سأله عبدُ الوهاب وهو يبتسمُ ابتسامةً شاحبة، ويمسك بطنَه الذي يكاد ينفجرُ كقنْبلة موْقوتة:

– أغضبانٌ أنت؛ لأنّه سرق بطاقاتِ ائتمانك، وقد سلب عمرَك بدمٍ بارد؟!

ثمّ نظرَ إلى حسين الذي كان يحاول النهوضَ متحديًا الموت، واستطردَ قائلًا:

– حسين، ادعُ إلهك أن ينجّيَنا.

أغمضَ بعدها عينيه، فرأى وجوهَ أطفالٍ رضّع تقترب من وجهه، يحاوطونه بنظراتِ سخطٍ ولوْم شديد، بل ويخدشونه بمخالبَ طويلةٍ حادّة، فيقطر الدمُ من وجهه وجسده، ويصرخ دونَ مُغيث، فتح عينيه مجدّدًا ليعيد طلبَه على سمعِ حسين في هلع:

– أرجوك يا حسين.. ادْعُه ليخلّصنا.

صاحَ عمرو العلايلي وقد أغمضَ عينيه مرةً أخرى مستسلمًا لما حلّ به:

– إذا كان موجودًا.

صاحت مريم والدّموعُ في عينيها:

– بل هو قريبٌ يجيبُ دعوة الداعي إذا دعاه..

ضمّها حسين بعينيه، ثمّ قال وابتسامتُه بين دموعه:

– وسوف ينجّينا بإذْنه إذا أحسنّا الظنّ به، ووضعنا ثقةً فيه كثقةِ أنبيائه حين واجهوا الموت، كما قال خاتم المرسلين لصاحبه: لا تخفْ إنّ الله معنا، وقال النبي موسى لقومه: إنّ معي ربي سيهدين.

بعدها، تهاوى حسين إلى الأرض، وبدأت آلامُه تشتدّ عليه كحالهم جميعًا، وشَرَعَ الموتُ يتمدد في أطرافهم، وألوانُهم تشحُبُ شيئًا فشيئًا. تشبّث حسين بيقينه قدرَ المستطاع، على الرغم من السواد الحالك الذي بدأ يسكن عينيه، يتخلّله لقطاتٌ من حياته الماضية، كإعلان فيلم سيُعرض قريبًا في الأسواق، ولم تبقَ سوى رعشةِ الموت والشهقةِ الأخيرة كيْ تكتب كلمةَ النهاية، وينتهي دورُه ويفارق حياته.

ضعُفَ صياحُهم وعويلهم في أذنيه، ولم يكن يدرك إن كان ذلك لوهنِهم أمْ لوهنِه، وأخيرًا سمعَ صوتَ ابن فيفيان يشقّ آهاتهم الهزيلة، ويصرخُ بقوة ليبشّره بأنه لا يزال به جزءٌ يسمع الأحياء، ثمّ سمع همسَ فيفيان بصوتٍ يكادُ يكون مسموعًا:

– ملاك.. اصمدْ يا حبيبي، واصبرْ على الجوع، اللبن يتسرّب مني، ولكنّه مسموم.

بكى حسين إثرَ كلامها، وسرعان ما تزوّد السواد الذي ملأ عينيه بوجْهِ أبيه يدعوه ليلحقَ به إلى عالمٍ آخر، وأخذت دعوةُ أبيه تصارع صوتَ الطفل حتى فتكتْ به، فأغلق حسينٌ عينيه ليعلنَ عن انتصار السّكون.

الفصلُ العاشِر

يَقين

تناهت إلى سمعه أصواتُ بشرٍ تعلو تدريجيًّا، تساءل، وهو يحاول فتحَ عينيه الذابلتين، هل الكائناتُ في العالم الآخر يتحدّثون مثلَ أهل الأرض؟! وإذْ بنور الصبح يطغى على كلّ ما عداه، ثمّ بدأت تتراءى تدريجيًّا الأشياءُ أمامه، فرأى شخصيْن في زيّهما الأبيض، اقتربَ إليه الرجل، فلم يستطع التعرفَ على ملامحِه ولا على المكان الذي حاطهم فسأله:

– أين أنا؟

قال الطبيبُ بابتسامة:

– مستشفى الأمل في "جليم" بالإسكندرية، حمدًا لله على سلامتك.

سأله بصوتٍ ضعيف:

– أما زلتُ حيًّا؟

– بالطبع، الحمد لله.. زالت مرحلةُ الخطر.

حاولَ جاهدًا النهوضَ وهو يقول:

– وماذا عن بقية أصدقائي؟

– كلهم بخير، وقد خرجوا جميعًا من المستشفى، فأنت آخرُ مَن استفاق فيهم.

سأله في دهشة:

- كيف نجونا؟

- الفضلُ يرجع إلى ذلك الرضيع الذي ظلّ يبكي ويصرخ صراخًا هيستيريًّا حادًّا، مع مرور جارٍ لكم جاءَ لإجراء إصلاحات في داره، فاقْتحم دارَكم إثرَ سماعه صرخاته، وبلَّغ على الفور.

قال حسين في نفسه، وقد جرتْ دمعاتُ امتنانٍ على خدّه:

- الحمدُ لله الذي بعثَ ملاك ابن فيفيان قبل أوانه لينقذنا جميعًا.

قال الطبيب:

- استرحْ ولا تحاول النهوضَ اليوم أستاذ حسين، لقد أرجأتُ تحقيقَ النيابة إلى الغدِ خوفًا على إجهادك.

- أشكرك.

خرجَ الطبيب واتبعتْه الممرضة، وسأل حسين نفسه.. كيف عرفَه الطبيب، وقد فقد كلّ أوراقه ومحموله؟ هل يمكنُ أن يكون الطبيب من قرّائه؟ ربما يكون قد دلَّ عليه أحدُ أفراد المجموعة قبل مغادرته المستشفى. بعد برهة، عادت الممرضة مرةً أخرى وقالت:

- أستاذ حسين، والدتُك وأختك على بابك، جاءتا لزيارتك.

سمع صوتَ أمّه بنشيجها تقول أثناءَ دخولها الحجرة:

- ألف سلامةٍ عليك يا بني، كنتُ واثقة أنّ الله سيغمرني بكرمِه فيك.

طربَ قلبُه لرؤية أمّه وأخته، ومن ورائهما ناجي يحملُ (وائل) الصغير، فقد افتقدهم كثيرًا. أسرعت أمّه وارتمتْ في أحضانه باكية، وأخذتْ نهى ترجوها ألّا تجهد أخاها بانفعالاتها، وبعد أنْ هدأت الأم، سألهم حسين:

– كيف عرفتم أخْباري؟

قالتِ الأمّ وهي تتحسَّس ابنها، وكأنها لا تتأكّد من سلامته فحسب، بل مِن وجوده:

– لقد اتّصلت بنا إدارةُ المستشفى صباحَ اليوم، وأبلغونا بالحادثة، فطِرنا إلى الإسكندرية.

سأله ناجي باهتمام:

– ولكن مَن أراد أن يفتكَ بك إلى حدِّ أن يدُسَّ لك السمّ في الأكل؟

نظرتْ إليه نهى نظرةَ عتابٍ، وهي تهمس:

– هل نسيتَ يا ناجي نصيحةَ الطبيب؟ فقد أوصى بألّا نفتح موضوعَ الحادثة كي لا نثير انْفعالاته.

صمتَ ناجي مستاءً جرّاء زلّة لسانه، فقال حسين مُبتسمًا:

– سوفَ أسردُ عليكَ التفاصيل، قريبًا إن شاء الله.

جرى وائل إلى حسين، ثمّ صاح:

– أين شيكولاتي يا خالي؟

نهرتْه نهى، فعاتبَها حسين بشدّة، ودخلتِ الممرضة في هذه الأثناء وفي يدِها ظرفٌ فاحَ منه عطرٌ يعرفه جيدًا، سلّمته إليه، ثمّ قالت:

– لقد تركتْه لي الآنسة مريم قبل مغادرتِها المستشفى، وطلبتْ مني أن أسلّمه لك يدًا بيدٍ فوْر إفاقتك.

تغيّر وجه حسين، أمّا نهى فسألته بفضولٍ شديد:

– مَن تكون مريم؟

قال بهدوء:

– سأحكي لكِ عنها في الوقت المناسب.

نظرتْ إلى أمّها بفرحة، وراح وائل يعيد طلبَه وهو يبكي، فقال ناجي وقد أحسّ برغبةِ حسين في الاخْتلاء بنفسه حتى يقرأ الرسالة التي في يدِه:

– هيّا بنا يا نهى، سأدعوكما أنتِ وحماتي إلى الغداء في الكافيتريا بالدّور الأوّل، ونشتري لوائل قطعة الشيكولاتة التي يشتهيها، ثمّ نعود.

***

عادتِ الحياة كما كانت، أو هكذا بدَت، جلسَ في مكتبه، يكتب.. ويكتب، ثمّ توقّف ونظرَ في شرود، يسترجع رسالتها التي حفظَها عن ظهْر قلب.

سيّدي الفاضل الأستاذ حسين راشد،

لقدْ حكتْ لي أمي عن دوْرك الذي أتْقنتَه جيدًا، وشعرت بامْتنان شديدٍ لكلّ ما لاقيته من أجل امْرأة لا تعرفها، سأتألم لفراقك، ولكنّي أدرك أنّ الله معي، وهذا يكفي ليخفِّف عني ألمَ الفراق.

واعْلم يا سيدي أنّني لن أنساك ما حييت، وسأنقل ما تعلّمته منْك إلى جيراني، وأهلي، وأصدقائي وزملائي، والأطفال في المدرسة، ولأبنائي في المستقبل إنْ أراد الله، وأرجو مِن الله لك كلَّ التوفيق.

أخذَ يعاتبُها في نفسه، كيف ظنّت أن حبّه لها كان مجرد دور يلعبُه؟! كيف فاتها أن تشعرْ بصدق مشاعره نحوها؟ لقد أرسل لأمّها أكثرَ من رسالة إلكترونية ولم تردّ، فما السبيلُ للوصول إليها وهي بين تسعة ملايين ساكنٍ بالقاهرة؟!

ثمّ عاد يتذكّر أيّامه السابقة مع المجموعة والتي أُغلِق حسابُها على الفيسبوك، وابتسمَ لاسترجاع تلك الأيام التي امتلأت بمشاعر البهْجة والحزن والنزاع والحبّ، فكلّ يوم مرّ عليه معهم كان بمثابةِ حياة، لم يغضبْ على فِرار علاء من يدِ العدالة، ليقينِه أنّ عدالة السماء لن تغفله.

منذُ رجوعه عُرض عليه عددٌ لا بأس به مِن مجاميع على الفيسبوك للانضمام إليها ما بين واحدة تدعو إلى الله، وأخرى تدعو إلى مبادئ لا ذكْرَ لله فيها، وكان مندهشًا لهذه الظاهرة ولا يعلمُ دوافعها، ولم يكنْ قد كتب بعدُ عن تجربتِه مع جروب (كفرْنا بالعيشة)، فضلًا عن غفلة أصحاب الصحافةِ والإعلام عمّا واجهوه من أحداث؛ لانشغالهم بقضايا الإرهاب وجرائمه التي لم تخفتْ أصواتُها يوميًّا في الصحف والمجلات وبرامج التوك شو، حتى في الأفلام والمسلسلات!!

عادَ إلى قلمه، يحاول أنْ ينغمس في ملفّات قرّائه وأن يرُدَّ عليها، حتى حان وقتُ الانصراف، ولم يكنْ قد أنهى عملَه، فقد كان الوقت الذي يحتاج

إليه لإنجاز أعمالِه أضعافَ الزمن الذي يقضيه داخلَ الجريدة، وصلت إليه رسالةٌ إلكترونية جديدة وهو يرتّب أوراقه ويستعدّ للرحيل، وكانت تُذَكِّره بدعوةٍ قد وصلت إليه منذُ أيام، إلى حضور معرض لفنّانة تدعى نشوى عبد الجبار، وموعدُه الليلة، في نادٍ من أكبر نوادي القاهرة، هزّ كتفيه، فهو لا يعرف الفنانة، وليس لديه وقتٌ لحضور مثل هذه المعارض، وربّما عادَ إعراضه عن الذهاب لعدم رغبته في الخروج بشكلٍ عام. أخذَ حاسوبه ولملمَ أوراقه، وغادر المبنى.

***

بلغ مسمعَه أذانُ المغرب وهو يمشي بالقرب من مسجد التقوى، وكان على وضوئه، فخلع نعليْه، واتّجه صوبَ المسجد، وعندما دخل وجده شبه خالٍ، فلم يكنْ بداخله إلّا الشيخ وعددٌ قليل من المصلّين، لا يزيد على عدد أصابع اليدِ الواحدة، انتهى من أداء صلاته، ثمّ جلس يدعو ربّه أن يعيدها إليه، ولم يبقَ في المسجد سواه والشيخ محمود الذي وقف على مقربةٍ منه، يشرق وجهه بابتسامة واسعة، وينتظرُ حتى ينهي دعاءه، ثمّ قال:

– مرحبًا يا حسين.

رفع رأسَه صوْبه، ثمّ نهض ومدّ يدَه للسلام، وعندما نظر إليه صديقُه عَلِمَ ما ألمَّ به، فقال:

– لم تعثرْعلى مريم بعْد.

قال حسين، مدافعًا دموعًا تكاد تفرُّ من عينيه:

– تقرؤني دونَ أن أتكلّم.

ثمّ مسح بسرعة دمعة هربت وهو يومئ برأسِه مستطردًا:

– لا أزال أجهل السبيل إليها وإلى أفراد المجموعة.

– هَبْ أنه قد وصلت إليك رسالة من أحدِ مراسليك، وذكرَ فيها معاناتك هذه، فماذا كنت حريًّا بأن تقول له لتحلّ مشكلته؟

– سأقول له: افعل ما في وسعك للوصول إليها، واستعنْ بالله، ولكنْ يا شيخ.. يبدو أنّ الطبيب عندما يمرض يُهمل في علاج نفسه.

قاطعَه قائلًا:

– بلْ يكون متمسّكًا به إلى أبعدِ مدى، لأنّه أدرى الناس بدوْر العلاج في درْء مرضه.

وضعَ يدَه على كتف حسين، واستطرد:

– لِمَ لا تسلّم أمرَك له كما ينبغي؟! فأنت على يقينٍ من أنّ ما يحدث هو الأفضلَ لك ولها.

صاحَ في قلقٍ وخوف:

– أخشى عليها مِن نفسها، وأخشى أن يعيدَها فراقُنا إلى كفْرها.

نظرَ إليه الشيخ نظرةَ لوْمٍ قائلًا:

– إن كنت مقتنعًا بأنك مَن هَدَيْتها، فخوْفُك في محلّه، أمّا إذا كنت ترى أنّ الله هو الذي هداها؛ فما خذلها الله ولنْ يخذلْها أبدًا.

***

دخل بيتَه متثاقلًا، حقيقةً، قد نفذَ كلام الشيخ إلى قلبه وطمأنه على حبيبته، بل وعلى كلّ مَنْ آمن مِنَ المجموعة، ولكن لم يتمكّن من تخفيف فقدانِه إيّاها ولهفته عليها. كانت أمّه تشاهد فيلمًا يُعرض في التلفاز، أو هكذا كانت تبدو، فعيناها كانتا ثابتَتَين على شاشته، ولكنّها لم تتابْعه للحظة؛ إذْ كانت تفكّر في معاناة فلذةِ كبدِها، وعندما شعرت بعودتِه، قالت وهي تنهض:

– سأعدّ لك العشاء حالًا.

– شكرًا يا أمي، لا تتْعبي نفسك، فأنا أكلتُ بالخارج.

كانت تعلمُ أنّه يكذب، وقد فقَدَ شهيّته ونقص وزنُه في الأيام الأخيرة، دنتْ منه وهي تقول:

– هوّن على نفسك يا بني، فنصيبُك لن يخطئك، بل يسعى إليك.

ربتَ على رأسِها بحنان وهو يقول:

– لا تشغلي بالك بي يا أمّي الحبيبة، سأكون على خير.

دخل غرفتَه وارتمى على فراشه، وأغمض عينيْه للحظات، ثمّ جالت بخاطره تلك الدّعوة، الدعوة لحضورِ معرض الفنانة نشوى عبد الجبار، فالفنانة اسْمها نشوى، وقد تذكّر فجأةَ رجاءَ ناني لفارس بأنْ يناديها بذلك الاسْم إذا كُتبتْ لهم النجاة وهُمْ يصارعون الموت. انتفضَ فجأة من منامه، وجذب محمولَه الجديد ونظرَ في ساعته، لقد مضى على افتتاح المعرض ربعُ الساعةِ تقريبًا، أخذ سترتَه مرةً أخرى، وغادر منزلَه مسرعًا قائلًا لأمّه:

– لقد تذكّرت موعدًا مهمًّا يا أمي، نامي ولا تقلقي عليَّ، قد أتأخّر.

– وفّقك الله يا بني في كلّ خطوة تخطوها.

مسّت دعوةُ أمّه قلبه الذي كاد ينخلعُ بين ضلوعه، فهو في أمسّ الحاجة لتوفيق الله، كم كان قلقًا مُضطربًا، يقودُ سيارته بسرعةٍ جنونية وبطريقة متعرّجة بين السيارات على غيْر عادته، فقد خشي أن تفوتَه فرصة الإمْساك بأحدِ طرفي الخيطِ للوصول إليها، ومَن يدري، قد يصلُ إليهم جميعًا، ثمّ دار بخلدِه سؤالٌ تَهَيَّبه، ماذا لو لم تكنْ تلك الفنانة هي ناني؟ هزّ كتفيه قائلا وهو يحاول تهدئة نفسه: لن أخسرَ شيئًا، سأعود أدراجي، فأنا أعلمُ أنّ مجريات الأحداث يديرها حكيمٌ عليم. أخذ يدعو ربّه أن يرضيه بما قسمَ له، وصل إلى النادي في وقت قياسي، وأخذ يركضُ سريعًا إلى مكانِ المعرض، عادت إليه بعضُ أنفاسه عندما رأى الأضواء تتلألأ أمام صالةِ العرض لتخبره أنّ المعرض لم ينتهِ بعد، ثمّ عادت إليه الحياة عندما اقتربَ من الباب الرئيسي للقاعة، ووجدَ لوحة الزّهرة معروضةً على المدخل، دخل بسرعة، فوجدَ ناني تقف مع بعضِ ضيوفها، وكانت بثوبٍ مُحْتشم على غيْر عادتها وبدتْ في عينيه أكثرَ أناقة ورُقيًّا، سمعها وهي تقولُ بابتسامة:

– يعودُ الفضل لله وحده، فالجَمال آيةٌ من آياته، والإبداعُ هبَةٌ منه.

لمحتْه، فأسرعت إليه قائلةً وهي تمدّ يدَها بالسلام:

– حسين راشد، كم أنا سعيدةٌ لرؤيتك ثانية!

– وأنا أيضًا يا ناني.

– اسْمي نشوى يا حسين.

جذبَه فارس من ذراعِه ليأخذَه في أحضانه، وهو يضغطُ عليه بقوّة، ويقول مُعاتبًا:

– ألمْ تقل لي إنّ صداقتنا تجاوزت هذا العالم إلى عالم أجْمل؟ فلِمَ رفضتَ الانضمام إلينا في جروب (يقين) على الفيسبوك؟!

تذكَّر حسين رفضَه مؤخّرًا الانضمامَ للعديد من المجاميع لضيق وقته، ولو عَلِمَ أنّ "فارس" من أعضاء مجموعة (يقين) لانضمّ إليهم على الفور. علا صوتُ عمرو ضاحكًا كعادته مِن ورائهما:

– مِن الواضح أنّه لا يريد أنْ يراك ثانيةً في هذا العالم يا فارس؛ ولذا أرجأك إلى عالمٍ آخر لا نراهُ.

استدارَ حسين ضاحكًا، ليأخذ عمرو في أحضانه، ، لم يكنْ يتخيلُ مقدارَ افتقادِه إيّاهم إلّا هذه اللّحظة، ثمّ جالَ ببصره يبحثُ عن طيفِ مريم بينَ الزّحام، وعندما لاحظَ عمرو شرودَه قال:

– يبدو أنك تبحثُ عنْ صورة فارس بين اللّوَح المَعْروضة.

ابتسم حسين، فأردف عمرو وهو يشيرُ إلى فارس:

– هل تعتقدُ أنّ لوحةً بها وجْه هذا البائسِ يُمكنُ أنْ تجذبَ أحدًا لاقْتنائها؟!

قال فارس وهو يأخذهُما تحتَ ذراعيْه:

– أوّلًا هذه الصورةُ ليستْ للبيع، تحتفظُ بها نشوى حتّى تزيّن بها صالونَ مَنزلنا بعدَ الزّواج إنْ شاء الله.

صاحَ حسين بفَرْحة:

– ألفُ مبروك.

سأله عمرو ضاحكًا:

– أتُباركُ دخولَه القفصَ بقدميْه؟!

أخذوا يتحدّثون ويمزحون حتّى رأوا فيفيان تقتربُ منهم وهي تحمل ابنَها، ومعها زوجها الذي بدا عليه الهدوءُ والوداعة، على عكس ما تخيّلوه، أومأت برأسِها تصافحهم، وقدْ عبَّرت ملامحُ وجهها عن الفرحة لرؤيتهم، جرى إليهما عمرو وخطفَ الرضيع من حضنِها وهو يقول:

– سأكتبُ لك عمارةً يا مَلَاك، بل عمارتيْن، فإنك تستحقّ عن جدارةٍ ثروتي كلها أيّها البطل العزيز.

بكى الرّضيع بين يديه، فقال حسين وهو يضربُ بكفّيه:

– لن تتغيّر أبدًا يا عمرو، أعِدْ "ملاك" إلى أمّه، فحضنُ أمّه عنده أغلى من عماراتك هذه، بل أغلى من الدّنيا وما فيها.

تناولت فيفيان ابنَها من يد عمرو، وهي تتمتمُ بكلمات مبهمة تنهرُه بها، واستكانَ وليدها بين ذراعيها، ثمّ مدَّ زوجُها يدَه ليسلّم عليهم، وقالَ وهو يضغطُ على يدِ حسين:

– أستاذ حسين راشد، سعيدٌ جدًّا بالتعرّف عليك، لقد حكتْ لي عنك زوجتي الكثير، إلى حدّ أنني شعرت بأنّني سأقابل سوبرمان.

لم يعرفْ حسين ما إذا كان هذا إطراءً، أو غير ذلك، فقال مُسرعًا:

– الرجلُ الخارق في نظري، هو مَن يحتضنُ زوجته في أزمتِها، كما فعلتَ أنت، ولك عندي كلُّ التّقدير.

فجأة، سمع صوت عبد الوهاب من أبعدِ ركنٍ في القاعة، يصيح:

– يااااا.. حسيييين.

نظرَ إلى مصدر الصوت، فوجدَ عبد الوهاب يخترق الزحامَ مُندفعًا نحوه، وتحاول اللّحاق به امرأةٌ في حجاب أنيق، وتجرّ وراءها ثلاثة أطفال متقاربي العمر. أسرع إليه حسين وعانقَه، أومأت زوجتُه برأسَها تحية له، ثمّ نخزَه عبد الوهاب في صدره، قائلًا وهو يشير إلى الاتجاه الذي أتى منْه:

– أنصحكَ أنْ تذهب لرؤية لّوحة (الربيع) المعروضة في الناحية اليسرى من القاعة، ستعجبُك كثيرًا.

صاحتْ مها:

– يوجد مثلها في هذه الناحية.

قاطعَها زوجُها قائلًا:

– بل ستروقُ له اللّوحةُ الأبعد، حسين صديقي، وأنا أعلمُ منكِ به.

ربتَ حسين على كتفه، وذهبَ مُسرعًا إلى الاتجاه الذي أشار عليه عبدالوهاب، وعندما اقترب، وجدَها بوجْهها الملائكي الهادئ، هذا الوجه الذي افتقدَه بشدّة، ولم يفارق أحلامَه، كانتَ تقفُ بالقرب من أمّها الطبيبة

حنان الشوربجي، وكانتا مُنْهمكتين في الحديث حتى وقعت عيناها عليه، تسارعت دقاتُ قلبِها، وسكتَتْ فجأةً، فلم تنبس بحرف ممّا دفع أمّها إلى أن تدير رأسَها في اتّجاهه، وعندما رأته صاحتْ بامْتنان:

– حسين راشد، كم أنا سعيدةٌ برؤيتك، ووددتُ كثيرًا لو أذهب إلى الجريدة التي تعمل بها لأشكركَ بنفسي، لكنها ضغوط العمل، لقد سافرت إحدى زميلاتي، وأصبحتُ مسئولة في المستشفى عن مَرْضاها إلى جانب مرضاي إلى أنْ تعود، فلم يعدْ لديَّ وقتٌ، حتى لمباشرة أعمالي الاعْتيادية... معذرةً.

– لا عليكِ دكتورة حنان، أتفَهّم ظروفَك تمامًا.

صاحتْ مريم وعلى وجهها أعذبِ ابتسامة:

– مرحبًا حسين، سعيدة جدًّا برؤيتك.

ثمّ أردفت قائلةً بتردّد، وبصوتٍ خافت:

– هل وصلتْك رسالتي؟

أومأ برأسِه قائلًا:

– قرأتُها، ولي عليها تعقيبٌ واحد.

– ما هو؟

هزّ كتفيه وهو يقول:

– إنّك لن تستطيعي تنفيذَ ما وعدتِ به.

– كيف؟

– لقد ذكرتِ أنّك ستنقلين إلى كلّ مَن حولك مِن أصدقاء وجيران وأهل وزملاء وأطفال ما عرفتِه خلالَ الرحلة، وذكرتِ أيضًا أنّك ستنقلينَه إلى أولادك مُستقبلًا إنْ شاء الله.

– وما الغريبُ في ذلك؟

– كيف تدركين أولادَك دونَ أن أتزوجك؟

ترقرقتْ عيناها، فأمسكَ وجْهها بكفّيه، وجفّف بإبهامه دمعَها قائلًا:

– كيف جالَ بخاطرك أنّني أستطيع العيشَ بدونك؟

لمْ تتخيّل الطبيبة أنّ ابنتها الصغيرة استطاعتْ أن تخطفَ لبَّ شابّ بثقل حسين راشد، ففتحتْ فاها دهشةً، حتى صاح قائلًا:

– طبيبتي الرّاقية، هل تقبلينني زوجًا لابنتك؟ فما عُدتُ قادرًا على الفراق.

أومأت الأمّ برأسِها، وقالت بفرحةٍ مع ما يشبه الشهقة:

– الحمدُ لله.

سمعَ صوتًا مجدّدًا يعلو، وينادِيه:

– يااااا حسيييييين، أينَ أنت؟ والله لن نلتقطَ الصورة بدونك.

كان هذه المرة فارس يناديه في وسطِ أعضاء مجموعة (كفرْنا بالعيشة) سابقًا وذويهم، وكانوا يقفون بجانب لوحة الزَّهرة في مدخل القاعة، أخذوا ينادونَ عليه واحدًا تلو الآخر، وكلٌّ منهم في وضْع تأهّب للتصوير. أمسك

حسين يدَ مريم واتّجها بخطواتٍ واسعة نحو المجموعة، واتّبَعتهما الدكتورة حنان، وأخذوا مكانَهم من الصورة، وانبعثَ صوتُ عمرو:

– أين أنتَ يا علاء؟ إننا بحاجةٍ مُلِحّة إلى عدستك الاحترافية، ولتتحول بعدها إلى صرصور حقل، أو فلتذهب إلى الجحيم.

علتِ الأصواتُ بين ضحكاتهم، والدّعاء على علاء، وزجر عمرو، ثمّ أخذَ أحدُ ضيوف المعرض محمولَ حسين، بعد أن طلبَ إليه أن يقومَ بتصويرهم، قام الضيفُ بالتقاط عددٍ كبيرٍ من الصور.. فما أسعدَ هذه اللّحظة! إنها لتستحق بكلّ تأكيد أن تُسجّل في صور فوتوغرافية، وفي ذاكرة كلّ منهم، وفي مقالات يحرّرها قلمُ حسين راشد الذي مدَّ بصرَه إلى السماء المَفتوحة يناجي ربّه ويحمده، فقد أكرمه بما لا تعوضه كنوز الدنيا، ما أجْملَ يقينه، فهو يدرك جيدًا أن قيمةَ عمر الإنسان لا تُقاس بعدد أيّامه ولياليه، وإنما بمدى اليقين الذي يسكنُ قلبَه أيًّا كان عمرُه، عشرين أو تسعين! والله لا يترك الناسَ سدًى، بل يرسل آياته على شاكلةِ كلّ منهم وإدراكه، فيلفظها مَن يلفظها، ويقتنصُها مَن أراد النجاة، وصدق الله حيث قال: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.. ذلك وعدُ الله، ووعدُ الله حقّ. وهو يقينُه الذي سينقلُه حتمًا– مِن خلال قلمه– إلى المجتمعِ شبابًا وآباءً، ومسئولينَ وشعبًا.

النّهاية

صدر للمؤلفة

١ـ عودة – رواية ٢٠١٣

٢ـ القضية لا تزال مفتوحة ٢٠١٣

٣ـ وقت إضافي – رواية ٢٠١٤

٤ـ لعبة آدم – رواية ٢٠١٥

٥ـ المسافر الصغير – للأطفال ٢٠١٧

٦ـ ما زال عطرك يغمرني – رواية ٢٠١٧

٧ـ الكاتبة – رواية ٢٠١٧

٨ـ ما بعد الحياة ٢٠١٨

للتواصل مع المؤلفة:

Hassaballa.salma@gmail.com

صفحتها على الفيسبوك:

https://www.facebook.com/SalmaHassaballa100

موقعها:

www.salma-hassaballa.com